

مونيكا كومبانيكوفا

السفينة الخامسة

ترجمة: خالد البلتاجي

صفصافة
SEFSAFA PUBLISHING HOUSE
WWW.SEFSAFA.NET

رواية

الرواية الفائزة بأكبر جائزة أدبية في سلوفاكيا


الأعمال الكاملة
t.me/kotbhm

السفينة الخامسة



مونيكا كومبانيكوفا

ترجمة

خـــالد البلتـــاجي

SEFSAFA PUBLISHING HOUSE
WWW SEFSAFA NET

خالد البلتاجي/ مترجم مصري وأستاذ اللغويات والترجمة بكلية الألسن جامعة عين شمس بالقاهرة. حاصل على دكتوراه في علوم اللغة التشيكية من جامعة تشالز ببراغ. ترجم العديد من الأعمال الأدبية والدراسات المتخصصة في علم المصريات والسياسة والاجتماع من اللغتين التشيكية والسلوفاكية، منها رواية "الخلود" للأديب التشيكي العالمي ميلان كونديرا. والبلتاجي عضو اتحاد الكتاب المصري ونادي القلم الدولي.

السفينة الخامسة

روايات مترجمة

الطبعة الأولى أغسطس 2014

رقم الإيـــــداع: 2014/13883

الترقيم الدولي: 978-977-5154-28-6

الناشر
محمد البعلي

إخراج فني
علاء النويهي

This book has received a subsidy from SLOLIA Committee, The Centre for Information on Literature in Bratislava, Slovakia.



دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات
5 ش المسجد الأقصى - من ش المنشية - الجيزة - ج م ع.

السفينة الخامسة

تراودني السفن كثيرًا في أحلامي. سفن خشبية تبدو ملونة، كأنها مصنوعة من الورق، أو أشكال من حكايات خرافية في أفلام الرسوم متحركة، يمكن أن يحدث فيها أي شيء. إنها سفن حادة الشكل، مصنوعة من ألواح خشبية خشنة، الفتحات بين ألواحها الخشبية ملوثة بمادة لاصقة. كل تعرجاتها مغطاة بطبقة زرقاء وبيضاء لامعة. تبدو هشة وغير مستقرة، لكنها لطيفة. أحيانًا تكون بها مقصورة يمكن الاختباء فيها. وأحيانًا تبدو مجرد أصداف خاوية من دون مجاديف أو حبال. أتهادى فوق سطح ماء ثابت لا يتحرك. ماء هادئ وخالٍ من تيارات الهواء. وعندما أستيقظ أجد جسدي مبللًا. أشعر بالإرهاق، ويداي تؤلماني كأنني كنت أسبح طوال الليل، أو أجدف. أجد شعري متلبدًا، ويحتاج إلى أن أغسله بالشامبو. أستيقظ على خيبة أمل وانزعاج، أشعر أني أهدرت طاقة كبيرة بلا طائل. نعم، فلم أبلغ أي مَرْسى. حتى تيارات الماء لم أشعر بها، الرياح تدور وهي حبيسة أحد الأحواض البعيدة عن

الماء.

أول مرة راودتني فيها السفن كانت منذ قرابة عشرين عامًا في أثناء استراحة قصيرة غفوت فيها، ولم أكن قد استسلمت لنوم حقيقي. لم تترك في ذهني صورة ما، بل انتابني شعور خفيف بالغثيان.

كنت وقتها في البستان، مستلقية وسط الحشائش. سيقانها الجافة في شهر أغسطس توخز في جسمي مخترقة «تي شيرت» خفيفًا كنت أرتديه، وأمارس لعبتي البسيطة: أتحمل الوخز إلى أن يحدث أمر تافه ومتوقع - مثل أن تسقط إحدى أوراق الشجر على مكان ما فوق الأرض، أو يلتصق طرف الظل بأحد الأحجار، أو يغرد عصفور ما. وإن حدث: أتحرك وأفرك جسدي، وإلا أظل مستلقية، ساكنة لا أتحرك مثل القنفذ. كنت أنتظر حتى يعلنوا عن قدوم القطار التالي بصوت ضعيف، يتبعه صوت معدن يصقل معدنًا آخر. كنت أبقى مستلقية إلى أن أسمع ذلك الصوت الذي أعرفه. لا أتحرك، ولا أسوي حتى قميصي. أحاول أن أحافظ على سكوني حتى وأنا أعض على أسناني من ألم سيقان الحشائش المدببة والحادة مثل الإبر. أظل مستلقية خمس دقائق أخرى وأنا أطرح ذراعي عن آخره ليختفي وسط قش الحشائش المتكسر، وأدير كفيّ نحو السماء. أشعر بنملة تزحف فوق راحة يدي؛ فأزيحها قليلًا حتى تنزل عن يدي، ثم أغرق في الزمان والمكان. أرى نفسي أتمدد فوق سطح قارب يتهادى فوق سطح الماء ويجعلني أستسلم للنوم.. نوم وسط النوم. لا أرى من فتحة عيني المواربتين سوى سماءٍ زرقاء صافية، وأطراف القارب المتلألئة، ومجداف وحيد ملقىً على جانبي. قررت أني حين أنهض سأمسك بالمجدافين بكلتا يدي وأذهب بالقارب إلى أعلى. لكن متى سأنهض؟ وكيف

سأعرف أن عليّ أن أنهض؟

بعدها زحف ظل بيت صغير في الحديقة وظلل عيني. عندها أدركت أن أحدهم يقف بجواري، إنه إنسان. أصبت بالارتباك للحظات، لكني الخوف لم يجد إلى نفسي طريقًا. أدرت رأسي، ثم طرفت بعيني، ورفعت بصري إلى أعلى. لم أجد هناك أحدًا. لم أجد سوى شجرة تفاح، وجزء من ظل كوخ في الحديقة. كانت الشجرة تتمايل قليلًا، فتسللت هذه الحركة إلى أحلامي. شجرة متشعبة، كثيفة الأغصان. بدت كل ورقة فيها كأنها ورقتان بظلها المتهدج الذي يسقط على عيني. علقت حبات التفاح الناضجة فوق الأغصان وكأنها حبات زينة صغيرة، أو أشياء منبوذة، لم تجد لها مكانًا مناسبًا على سطح الأرض. لكن شجرة التفاح استعادت حقيقتها وخصوبتها بمجرد أن فتحت عيني وفركتها بأطراف أصابعي. ذكرتني ثمار التفاح أنني لم أتناول أي طعام في ذلك اليوم تقريبًا. اتكأت على مرفقي، وأغلقت عيني للحظات من جديد. كان يمكنني أن أظل هكذا مستلقية نصف ساعة أخرى، رغم وخز غصن صغير سرى في عظمة كتفي، وربما لساعتين إن أردت، أو كان لدي سبب لأظلّ هكذا، بأن يراهنني أحدهم على القيام بذلك مقابل رغيف خبز مثلًا أو مشروب كاكاو ساخن. كنت وقتها على استعداد للقيام بأي شيء. كنت في العشرين من عمري.

اعتدلت، ثم جلست وأنا التفت حولي يمينًا ويسارًا، إلى أعلى وإلى أسفل كي أرخي عضلات رقبتي التي تصلبت. ما زلت إلى اليوم أقوم بهذه الحركة، وبالطريقة نفسها حتى أسمع صوت فرقعة عظمة، إنهم يطلقون عليها اليوم اسم كالانيتيكس.

مددت يدي إلى الخلف، فلمست دائرة من أرض واطئة، لطخة

نحيلة فوق سطح من حشائش خضراء ذابلة. كأنه مكان انتزعوا من فوقه بعد أعوام أحد البراميل، فصار خاويًا، بلا ماء ولا نبات.

ما زلت أتذكر كل حركة قمت بها وقتها. أتذكر أني مررت بكفَي عدة مرات فوق الطين، وضغطت على كل ما نتأ فوق الأرض، وسويته بأصابعي. أتذكر أني رحت بعدها أتقلب فوق الحشائش، أمعن النظر في ذلك المكان الخواء، كأنني أردت التخلص من شكوكي حول وجوده، وأنه ليس حلمًا راودني وأنا نائمة وسط الحشائش. لكني حلمت بالقارب، وحلمت أيضًا بتلك المقبرة الصغيرة. كلها أشياء محتملة. الإنسان يرقد، ويفكر، ثم يغلبه النعاس، فينام لمدة ساعة، أو ساعتين. ساعتين من الحياة يقضيهما في أحد الأغوار، وتظلان هناك إلى الأبد، محرومتين من أي فرصة في حياة كاملة، على نحو أفضل. الحلم يجمع بين أشياء تبدو غير مؤتلفة، فيتأملها الإنسان ويسعى إلى أن يجد ما يربطها ببعضها. لوتسيا - أمي اسمها لوتسيا، طلبت مني منذ صغري ألا أناديها بكلمة ماما؛ لأنها تشعر كأنها عجوز خَرفة - كانت كثيرًا ما تنام بهذه الطريقة: عيناها مواربتان، بهما خطان أسودان رطبان، لا تطرف بهما، وأحيانًا كانت تحرك مقلتيها يمينًا ويسارًا كأنهما بندول ساعة. تتحسس بأصابعها مسند المقعد، وتجلس مُنكبَة على نفسها، وقدماها أسفل جسمها. هكذا كانت تظهر فوق الأريكة البنية القديمة، كأنها خرجت من وسط الوحل كظل لأمي الحقيقية التي ما زالت على قيد الحياة. ثم تستيقظ فجأة، وتقشعرّ. تصلح من شعرها، وتؤكد أن شيئًا ما قد حدث وهي جالسة دقيقة أو دقيقتين فوق الأريكة، ومستغرقة في التفكير. وهو ما لم يكن يحدث بالطبع. تقول إن أحدهم أخذ خُفَها، وسكب ماء من الغلاية الكهربائية، ثم أشعل التليفزيون، وغيّر الساعة في هاتفها المحمول. كان كثيرًا

ما يظهر عليها الإرهاق بعد كل مرة تنام فيها هكذا. كنت أقول لها: كيف تكوني مرهقة وقد نمتِ لمدة ساعتين! لكنها تؤكد أنها لم تنم، فقط كانت تسترخي، وتقرأ الأخبار على الشاشة. كانت تجيبني على مهل وهي تتنفس بصعوبة، أو تهمس وهي مسدلة العينين تدعوني أن أصدقها، وتطلب مني أن أصب لها الماء في الغلاية لأصنع لها قهوة سادة قبل أن أخرج.

حفنات من الطين والحجارة محفورة بمجرفة بلاستيكية صغيرة كانت تطوق جثة قِط، وتمنع عنه الديدان والذباب، وتَحُول دون فضولي لرؤيته، وتمنعني من أن أعبث بالعصا في صدره الصغير المفتوح. كان جسده ما زال دافئًا أمام بوابة صغيرة عند مدخل حديقة الجيران، دسوه في حفرة من أثر عجلة سيارة داستها دراجة جارنا النارية بكل ثقلها فقسمته إلى نصفين متساويين، صارا كأنهما قطعتين من النقانق الموصولة بحبل. عَلقت الأتربة بفروه، وبدت إحدى أقدامه مكسورة بطريقة لافتة. لولا حدقتي عينيه، تلك الكرتان اللامعتان المتدليتان من محجر عينيه لبدا ذلك القط الصغير كأنه نمر أسود من قصة "نمر تراسي[1]"، نمر صغير يرقد كما هي الحال دائمًا على الطريق، كسولًا، معتدًا بنفسه، ومستمتعًا بدفء الشمس، يتجاهل نظراتي الفضولية.

لم أتردد كثيرًا. كنت أعرف أن أحدًا لن يهتم برفع تلك البقعة السوداء من الطريق. كنت أعرف أيضًا أني لن أمنع نفسي من أن ألتقط عصًا أو سكينًا أو حتى مقص الحديقة وأعبث في الجثة بفضول حقيقي عما يوجد تحت الفرو، وعن ملمسه، ورائحته. هل له رائحة اللحم في مطعم المدرسة، أو أنه يشبه إصبعًا مبتورًا. كنت

1- قصة قصيرة للأديب الأمريكي ويليام سارويان. صدرت لأول مرة في عام 1951 واكتسبت شهرة واسعة وصارت مصدرًا لإلهام الكثير من المبدعين - المترجم

أعرف أني أفعل شيئًا لا يليق، ولا يليق أن أفعله هنا في الشارع، من دون رداء أبيض، وأدوات معقمة، وأمل في أن أعيد إليه الحياة.

قمت وأنا في السابعة من عمري مع أصدقائي بدفن أحد العصافير. عثرنا عليه أسفل إحدى الشرفات في الحي. كان كائنًا صغيرًا، وردي اللون. تُغطي جسده بضع ريشات رطبة، له عينان زرقاوان واسعتان. من الصعب أن تصدق أن طائرًا مثله يمكنه أن يحلق في الهواء، وتتابعه بسعادة وهو ينقر في فتات الطعام أمام أحد المتاجر الكبيرة. اخترنا له مكانًا هادئًا وجميلًا. قمنا بعمل حفرة على عمق ثلاثة أصابع، وصنعنا له شاهد قبر صغير من ريشتين وحجر، نعم، حجر وصليب، تمامًا كما يجب، وكما يليق عند موت أي إنسان. أقمنا له أيضًا حفل تأبين حقيقيًا. فارتدينا ملابس رياضية داكنة اللون، وأحضرنا زهورًا وشموعًا صغيرة تناسب قبر العصفور الصغير، وقمنا بتلاوة الصلوات ونحن نحبس أنفاسنا، ونتلعثم في كل كلمة. ومن لم يعرف نص الصلوات كان يردد آخر مقطع منها. شعر كل منا بشكل خفيف برائحة الموت، فقط للحظة قصيرة، عندما أدركنا حتميته. لم نستطع وقتها أن نفهم أكثر من ذلك. إضافة إلى الخوف، والرعب الرهيب من الموت والتوقف عن الحركة: انتبهنا إلى أننا ما زلنا صغارًا، ضعيفي البنية والمقاومة، ويمكن أن نصطدم في أي وقت بسور السلم، وتنتهي بنا الحال فوق الرصيف أسفل العمارة وأقدامنا مكسورة. استمر ذلك الوضع للحظات ونحن نفكر في الموت وفي الطيور. بعد ذلك بأسبوع انشغلنا بأمر آخر ونسينا حكاية الطائر.

بعدها بأربعة أو خمسة أعوام رأيت قطًا ميتًا أمام بوابة حديقة بيتنا الريفيّ. كنت ساعتها وحدي. من دون تعليق قد ينم عن ارتيابي، ومن دون وهم الإيمان بالملاك الحارس، ومن دون حزن

حقيقي على القط الصغير الذي لم يسمح لي يومًا أن أضع يدي عليه، وخوفًا من طبيعتي الفضولية رحت أتفحصه عن قرب. وبعد لحظات من التردد لمسته بإصبعي. كان ما زال دافئًا، وطريًا مثل غطاء السرير المطروح. بدا أقبح قليلًا من غيره من القطط وهي نائمة. لم أشعر نحوه بالأسف، ولم أشعر بشيء غير عادي. فهو لم يكن صديقًا لي، كان مجرد متسول، يظهر عندما يكون في يدي طعام، لم يظهر أي امتنان على إطعامي له. حاولت أن أستدعي ولو دمعة واحدة، لكني لم أنجح. حاولت أيضًا أن أتجاهل النظر إليه، لكني لم أستطع.

عدت إلى الحديقة، وأخذت مقشة من وراء الباب، ثم بدأت أنظف غرفتي كي أشغل نفسي بشيء آخر غير القط. حملت كومة القمامة على صفحات جريدة قديمة، وتوجهت نحو البيت ـ كنت غالبًا أرش القمامة فوق الحشائش الموجودة أمام بيتنا الريفي مباشرة ـ من دون أن ألقي ولو نظرة سريعة على البقعة السوداء الموجودة على الطريق. بعدها رحت أنفض أغطية السرير والوسائد. تخيلت أن أحدهم يناديني من خلف شجيرات سور الحديقة؛ فألقيت الوسائد على الحشائش وأسرعت خارج البوابة، فلم أجد أحدًا. لم أجد سوى تلك البقعة التي تضيء مثل ممحاة فوق سبورة المدرسة، ثقب أسود يجذب أنظار الفتيات الفضوليات. أمسكت الجاروف حتى تمكنت من نزع الجثة عن الأرض بعد ثلاث أو أربع محاولات. حملته في الجاروف وقفت أمام البوابة أفكر في أن ألقي به في حديقة جارنا عبر السور. وفي النهاية قررت أن أودّعه بطريقة لائقة.

كانت جنازة العصفور طقسًا سريًا، وهادئًا، وباردًا أيضًا. كانت بمثابة تأكيد لصداقتنا، وللخوف الذي جمعنا. لم يكن الأمر يتعلق بالطائر، بل بنا نحن، أطفال الحي الذين أحسوا بأنهم كبار

ذو أهمية طالما أصبح لديهم سر مشترك، وطالما كان هذا السر مرتبطًا بالموت. فعل كل واحد منا شيئًا ما من أجل ذلك الطائر من دون أن ينبث بكلمة، أو ينشب أي شجار نتيجة التعليق على عمل الآخرين. لم يتبرم أحد، أو ينطق بكلمة سوقية. كان الجميع على قناعة بأن العمل الذي هبط عليهم من السماء عمل شديد الأهمية.

كان دفن القط عملًا عاديًا كغيره من الأعمال القذرة المرهقة. استخدمت فيه أداة كبيرة وثقيلة على يدي الضعيفة. فقدت الكثير من قوتي ومن حرصي وأنا أدور حول البيت وحول أشجار التفاح. أجوب أرجاء الحديقة المهملة، حتى إن الجثة الصغيرة سقطت على الأرض رغمًا عني فرأيت جانبها الآخر الذي كان في حالة سيئة. احترت أين أدفنها. ثم أخذت حجرًا أبيض كبيرًا من وسط كومة من الحصي ملقاة في أحد جوانب البيت ـ ما زلت أحتفظ به في فجوة في الحائط أعلى السرير، وبجوار جمجمة القط البيضاء توجد قطعتان متشابهتان منه ـ ثم شددت ساقي وفردتهما، وقذفت الحجر خلف ظهري، فصنعت حفرة في المكان الذي سقط فيه الحجر. أخذت جاروفًا بلاستيكيًا صغيرًا يشبه ذلك الذي يلعب به الأطفال في الرمل. وضعت القط الصغير المتهالك في الجاروف الكبير مرة أخرى، ثم أدخلته إلى الحفرة بعناية كأنني أضع عجينًا في وعاء الطهي. فركت الجاروف بالحشائش جيدًا، ثم أعدته إلى مكانه ثانية. أغلقت الحفرة وسويتها، ثم وضعت فوقها كتلة الحشائش التي كنت قد انتزعتها من عليها من قبل. ثم دستها بقدمي حتى لا تبرز فوق الأرض، ورغم ذلك بدت غريبة. في النهاية اجتززت النبتة التي تكسرت، وألقيت بها في حديقة جيراننا عبر السور، مُعتَمِدة على انتشار الحشرات الضارة عندهم. كنت واثقة أنه بعد عدة أسابيع وربما قبل ذلك ستنمو الحشائش بالتأكيد فوق تلك

النقطة البيضاء البور، وسيختفي أثر المقبرة إلى الأبد.

لم يبحث أحد عن القط يومًا ما، ولا حتى ذلك الرجل الذي داسه بدراجته النارية وهو نائم، ولا حتى الجيران. هؤلاء كانوا لا يأتون إلى الحدائق البعيدة عن المدينة إلا لجمع بعض الثمار. حتى أنا لم أفكر فيه. فلم يكن قطًا مميزًا في شيء. فالكثير منه يتسكع في المنطقة، وما أن يختفي أحدهم حتى يظهر بعدها بيومين قط غيره. كنت واثقة بأنه آجلًا أو عاجلًا ستزحف إلى هنا قطط أخرى، لتلاطفني، وتدور حولي، وتتمرغ بين قدمي. يكفي أن أترك أمام البيت علبة ملوثة ببقايا الزبادي، أو عظمة أو قطعة خبز. القطط مثل ذبابة العنب التي تتوالد لحظة سقوط أول قطرة في قاع الكأس. سوف تدق الباب بمخالبها وتموء. وما أن تحصل على بعض الطعام تنصرف، وتختفي لتبحث عن حفرة في الجدار، أو تنسل أسفل بوابة البيت، أو تسير بكل هدوء وهي ترفع ذيلها في الهواء استهزاءًا بهُريرَة سمحت لها بأن تشاركها طعامها رأفة بها. قطة صغيرة كانت من الجبن والبطء ما منعها من أن تنال بعض حنان ودفء القط الأكبر.

كنت دائمًا أحكم إغلاق باب الكوخ قبل أن أغادر المكان، وكذلك بوابة الحديقة العالقة بين أوراق شجيرات السور المتوحشة. انخفضت درجة الحرارة فجأة بمجرد أن توارت الشمس خلف السحب المترامية. ارتديت سترة طويلة الذراعين، وأخرجت من جيوبي بأصابع مرتعشة فتات الخبز، ألقيته وسط آثار المارة. عند سقوط الأمطار كانت تلك الأخاديد تزداد عمقًا، وتزيل عنها مياه المطر الأحجار والرمال. توقفت للحظات في المكان الذي أنهى فيه القط حياته بطريقة بائسة، ورحت بشكل عفوي أحفر بحذائي في المكان الذي علقت به بضعة شعيرات سوداء، فانهارت حبات رمل

صغيرة داخل الحفرة. لم أشعر بشيء غير عادي، لم أشعر باشمئزاز أو بحزن. وتملكني الملل والجوع.

أردت أن أحكي لأحدهم عن ذلك القط الأسود. كان الحادث يسيطر على عقلي. تمامًا مثلما تعلق يد أحدهم بين أبواب الحافلة وأنت تعرف أن ما حدث أمر عاديّ وأن الحياة مستمرة. كل ما حدث مجرد ألم بسيط في يده. يرتبك السائق، ثم يعاود النظر في المرآة العاكسة. تعود بعدها إلى البيت، وتقابل جارك فوق السلم؛ فتحكي له عن الحادثة. فتصيبه بالارتباك؛ لأنها المرة الأولى التي تخاطبه فيها، وهو لا يعرف ماذا تريد منه. لكنك تشعر بالارتياح، فتودعه، ثم تغلق الباب خلفك وتنسى كل ما حدث.

تمنيت أن ألتقي بالفعل بمن لديه الرغبة في أن يستمع إليّ. أخبره أني قابلت زميلتي في المدرسة، وأنها عثرت على قط ميت، وأنها حكت لي بالتفصيل عن الدقائق الأخيرة من حياته، كي لا يتهمني أحد بأن لي علاقة بموته. أزعجتني فكرة أني لم أفعل معه كل ما يجب، وأنه كان عليّ أن أواريه التراب بطريقة أكثر وقارًا، وأن أحزن وأبكي أكثر مما فعلت. لم أعرف إن كنت قد تصرفت بطريقة ملائمة أم لا، لذلك كنت في حاجة إلى أن أتأكد من ذلك. أن أحكي ما حدث بصوت عالٍ. أقول كيف كان يرقد هناك، أتحدث عن شكله الغريب، والمخيف، عن إحدى عينيه المفقوءة والأخرى المنبعجة في التراب، عن قط أسود صغير رغم أنه بدا كخرقة مُجعدة. أردت أن أقول بصوت عالٍ أيضًا إنني لم أرثي لحاله؛ لأنه لم يسمح لي يومًا أن أداعبه. كل ما كان يفعله هو أن يسرق الطعام وينفض شعره.

كل ما فعلته في الساعات الثلاث الأولى بدأ يَذْوي في داخلي في وقت لاحق، وأنا أسير في طريق متعرج وأتكئ على شِباك صدئة وأعمدة خشبية: عدو سريع من محطة السكة الحديد بين مواقف

السيارات وعبر الحدائق. عدو بلا سبب، مجرد عدو لا طائل منه، مجرد ضجر. صعود التل، وهرولة، مع عدة وقفات عند شجيرات التوت وحباته الناضجة، كلمات مُدرِّسة الفصل تتردد في مؤخرة رأسي: لا تأكلوا أبدًا حبات التوت في الكَرْم؛ فهي مرشوشة!! بقعة سوداء، تراها من بعيد، لكن لا تعرف ما هي، بقعة كبيرة، قطّ. رائحة البنزين المحترق، شعور مفاجئ بأثر جثة القط بين أصابعي المنقبضة. جاروف ثقيل، وخرقات بالية، وحالة بين النوم واليقظة بعد الظهيرة ورأسي ملقاة فوق الحشائش، ونملة في كفي، ونوم فوق مركب يتهادى فوق الماء، وشعور قوي بالدوار للحظات، ومشبك شعر متمرد، عليّ أن أجاهد كي ينغلق بصورة صحيحة، وبرودة وفتات صلب في جيوبي، وصوت قادم من بعيد لقطار يغادر المحطة، صوت غير مميز لأذن لم تعتد عليه.

أسرعت من خطواتي، وفي المدينة؛ حيث تلتقي الحشائش مع الأسفلت المتكسر هرولت، وجريت إلى أن سمعت طقطقة خفيفة في إحدى ركبتي، وضعف في ساقي قبل أن أصل إلى المحطة. سمعت صوت طنين في أذني، وشعرت بعضلات ساقي ترتجف. شعرت بأن ركبتي على وشك الانفجار كفقاعة الماء. لكنه كان شعورًا زائفًا بالطبع، فركبتي كانت في حالة جيدة، كانت فقط ترتجف قليلًا. تبخرت رغبتي الشديدة في الحديث مع أحدهم، والاقتراب من أي إنسان حي بالغ، كأنها ضباب اختفى بسرعة خطواتي وسط برودة شهر أغسطس وقت الأصيل. جلست للحظات على مقعد أمام محطة القطارات. كنت في حاجة إلى أن ألتقط أنفاسي. كان الهواء ثقيلًا، ورائحة دخان السجائر تنتشر في الهواء، وخطوط بول رطب تسيل على جدار كشك الجرائد. لم تصل إلى أنفي في منطقة المحطة سوى رائحة البول والسجائر.

كانت «لوتسيا» بالبيت، وضوء المطبخ مشتعلًا، رأيته من بعيد.

انطلقت في العدو من جديد وقد انتابني شعور بالسعادة والارتياح. قفزت بخطوات واسعة وسط ظلام دامس - انهض أيها الزند الدامي. تذكرت لعبة كنا نلعبها يومًا ما في فناء البيت.. زند الخشب الدامي.

كان الدّرج مظلمًا باستثناء صف الأجراس الطويل، ولوحات بأسماء أصحاب الشقق على الأبواب. ساعدتني على الوصول إلى بيتنا بسهولة. لم يكن باب العمارة موصدًا، كالعادة ذهب أحدهم للتدخين أو لشراء شيء من المتجر الليلي ولم يرغب في حمل المفاتيح معه. وحتى لا يُغلَق الباب تمامًا كان من الضروري جذب باب العمارة بحرص شديد، واحتجازه بالقدم كي لا يدخل لسان القفل في فتحة الباب، أو وضع نشرة الإعلانات بين اللسان والفتحة. حتى لوتسيا عندما كانت تنتظر قدوم أحدهم، كانت تترك باب العمارة مواربًا - وكانت دائمًا عندما تغلق الباب بهذا الحرص تنحني بطريقة غريبة وهي تدس رأسها بين كتفيها مثل الديك الرومي، وشعرها يتدلى على جبينها. في ذلك الوقت كانت تصبغ شعرها باللون الأصفر وتتركه طويلًا يتجاوز كتفيها. كان يبدو عليها الشعور بالذنب مثل اللص، أو مثل العشيقة التي تقيم في العمارة المجاورة. لكنها لم تكن عشيقة لأحد من الجيران. كل ما في الأمر أنها لم تكن تريد أن تنهض من الفراش مرتين. لم ترغب في أن تضع قدمًا أمام قدم، وتنزل من الطابق الثالث. كما أنها كانت تتكاسل في فتح باب الشقة أكثر من مرة في اليوم الواحد، لذلك كانت تفعل حركات مماثلة في الدور الذي نقيم فيه. تنحني وهي ترتدي الروب، وتنتعل في قدميها خفًا غليظًا. لا تظهر من خلف شعرها المسدل غير عين واحدة مرهقة، متيقظة قليلًا. متيقظة في أرض الأعداء الواقعة في الدهليز المشترك؛ حيث يتربص بها

الجيران. كانت تترك الباب مواربًا، ثم تسنده بحذائي من الداخل كي لا يغلقه تيار الهواء؛ فيستطيع أصدقاؤها دخول الشقة وقتما شاءوا من دون أن يدقوا على الجرس. كثيرًا ما كانوا يدخلون من دون أن يخلعوا أحذيتهم، ويتصرفون في الشقة كأنهم في صالة انتظار عامة، ينظفها أحدهم في الصباح الباكر، وينفض بقايا السجائر من الطفايات. فالأبواب لا تُغلق في صالة الانتظار، ولا يخلع أحد حذاءه. يبصقون على الأرض، ويلصقون قطع اللبان على مساند المقاعد. يأتي الناس إليها بتردد وحذر، وينصرفون منها على عجلة من دون أن يلقوا التحية على أحد.

كنت دائمًا أخلع حذائي حتى عندما كنت أذهب إلى نهاية الصالة لإحضار معطفي، ما لم أفعل كنت أنال العقاب. الباقون كانوا يحظون باستثناءات. لم تعنفهم لوتسيا يومًا على أحذيتهم الملطخة بالطين، فقط تحدق فيهم على استحياء. كانت تخجل من عجزها على أن تصنع نظامًا في شقتها التي تعيش فيها، وتضع قواعد لها. فضلًا عن ذلك كانت ضعيفة البنية، هزيلة مثل ساق نبتة صغيرة. لم تكن قادرة حتى على أن تفرض على الضيوف أن يخلعوا أحذيتهم. لم تكن ترفع يدها ولا صوتها إلا عليّ. كنت ملكًا لها، جزءًا من كيانها. كانت كمن يضرب نفسه، أو كمن يتدبر أمر نفسه بنفسه، كمن يلقي بالماء البارد فوق ظهره في حوض الاستحمام. فلا يصاب بالتجمد، إنه مجرد عقاب وأخذ العبرة.

كانت لوتسيا أيضًا تخاف من الجدة إيرينا. حتى رغم أن إيرينا كانت ترقد في السرير شبه عاجزة، علينا أن نغير لها الحفاضات، وتخلط لها الطعام. كانت تنفذ جميع تعليماتها وأوامرها حتى ولو كانت خطأ ولا جدوى منها. كنت أكره سلبيتها التي قد يعتبرها من لا يعرف الأوضاع في أسرتنا أنها دليل على الحب أو رعاية

جدة عجوز مريضة. رعاية كان من المفترض أن تكون طبيعية، لكنها لم تكن كذلك. فالعلاقة بين لوتسيا وإيرينا كانت تجارية بحتة. وعلاقة لوتسيا بنا نحن الاثنتين كانت تجارية لا عائلية. خالية من أي تعاطف حقيقي، أو حميمية، أو تفاهم. خالية حتى من شعور بالمودة أو القرب.

كانت تعاملني بلطف فقط طالما تصرفت بناء على رغباتها، ولم أتسبب لها في مشكلات. كانت كثيرًا ما تقول لي: لا تعتبري نفسك ابنتي ما لم تحسني التصرف. افعلي ما تريدين، يا ياركا! افعلي ما تريدين، لكن لا تزعجيني بمشكلاتك! هل هذا واضح؟!

كانت إيرينا نفعية مثلها تمامًا. قال للوتسيا ذات مرة:

- أنت سوف تغيرين لي الفراش، وفي المقابل سأسمح لكِ بالإقامة في شقتي. وإلا فلن تحصلي على شيء. لا تحاولي خداعي؛ فأنا مازلت أتحكم في جميع حواسي. رغم أنكِ تتمنين موتي في الحال، كل منكما تتمنى موتي.

إنها أسرة قائمة على المقايضة. لم يحدث جرّاء تلك الاتفاقات أي خير يومًا ما.

كنت أستجيب لأي نظرة من لوتسيا. أجتهد في تلبية رغباتها كي لا تجد ذريعة لتغضب مني. تقريبًا لم أفعل شيئًا آخر طيلة طفولتي سوى أن أحاول تنفيذ كل ما تريده لوتسيا. كنت أقرأ رغباتها بين شفتيها لألبيها حتى قبل أن تنطق بها. لكن رغباتها تلك كانت شديدة الغرابة، بسبب طفولتي الساذجة لم أفهمها أو أتفهمها. مع ذلك كنت أجيد التبضّع، وترتيب البيت، ونشر الغسيل، وحمل صندوق الزجاجات الفارغة إلى المتجر. ومع ذلك كنت أحصل على أعلى الدرجات في المدرسة، وبناء على رغبتها أحبس نفسي في

غرفتي لمدة يومين، أتبول في وعاء خزفيّ. في الوقت نفسه كان هناك أطفال غيري يلعبون بألعابهم مثل الجاروف، والأوعية، والصابون، والنقود. يبدو أننا تجاوزنا تلك الفترة.

عندما كنا نغلق الباب؛ كان أصدقاء لوتسيا يُلِحّون في دق الجرس مرات ومرات. يضغطون بلا توقف على جميع الأجراس إلى أن يفتح لهم أحد الجيران وهو يسُبّهم. وما أن يصلوا إلى باب الشقة يبدءون من جديد في الطرق على الباب بقوة وتعجل وإصرار. كأن لوتسيا لم يكن لديها شيء آخر تفعله سوى انتظارهم خلف الباب ويداها فوق المقبض. كانوا يستعملون الحمام والفوط، وحتى فوطي الصغيرة المعلقة على ارتفاع منخفض فوق خطاف مخصص لها. كانوا يدخلون إلى غرفتي، ويتمرغون في سريري سكارى، فاقدي الوعي. كثيرًا لم أجد مكانًا أنام فيه. كانوا يخلفون وراءهم في حجرتي رائحة كريهة، وغطاء ملوث، وولاعة سجائر أو نقودًا معدنية مبعثرة هنا وهناك، سقطت من جيوبهم.

كان أحدهم يأتي إلى حجرتي، مهندس ما، كان المفضل لدى لوتسيا، وساعدها في العثور على وظيفة. يأتي إلى حجرتي رغم أنه كان يعرف أني نائمة هناك. كان ذلك يحدث في أثناء الليل أو ربما في الصباح الباكر؛ إذ يعتقد أني نائمة. كان ذلك يحدث في أثناء حفلات السمر؛ حين يشارك فيها عدد كبير، وتفقد لوتسيا السيطرة على الوضع بكل سهولة. يغلق الباب خلفه بحرص، ثم يخلع حذاءه ويدفع به أسفل السرير، ثم يتجرد من قميصه وسرواله، ويمرر إحدى يديه فوق شفتي والأخرى بين فخدي. يتنفس بصوت عال وبسرعة مثل كلب مرهق، رائحة فمه كرائحة السجائر المختلطة برائحة خرقة رطبة ملقاة في أحد الأركان. كل ما أفعله هو أن أغلق عيني بشدة، وأفتح فمي كي لا أختنق. كنت أتخيل نفسي أسبح

تحت الماء. أسبح، وكل ما أشعر به من لمسات ولعاب وأنفاس، كله بسبب الماء، وحشائش الماء، والكائنات البحرية. لم أكن أنبث بكلمة واحدة، أو أتحرك من مكاني. لم أفعل أي شيء. فقط أرخي جسمي بكل استسلام وهدوء. وعندما ينتهي ويغلق الباب خلفه أعود، وأغير ملابسي، وغطاء السرير، وأواصل النوم.

كنت أحاول أن أنسى ما فعله إلى أن تشرق الشمس، فأجلس معه ومع لوتسيا في المطبخ، ونتناول طعام الإفطار عند الطاولة بطريقة طبيعية. كنت عندما أقابله في الحي أتظاهر بأن شيئًا لم يحدث، وأني لا أتذكره، ولا أعرفه. فالواقع أني لم أكن أتذكر شيئًا على وجه التحديد. لا أتذكر شيئًا مخيفًا أو مؤلمًا لا يمكنني تجاوزه. مجرد شعور مُلتبس بالقذارة والخجل. كأن سيدة ما قالت لي في الحافلة إن رائحتي كريهة، وإن هذا لا يليق بالفتيات، وإن عليّ أن أغتسل بطريقة أفضل. ولا يليق بفتاة مثلي أن تكون كرجل كبير مبلل بالعرق.

كان يفعل مع لوتسيا أشياء أسوأ من تلك. كان البيت كله يهتز، وكان الجيران يستدعون الشرطة؛ لأنهم لم يجرءوا على الدخول إلى الشقة من بابها الموارب. لم أكن أجرؤ أنا أيضًا على أن أذهب إليها وأخبرها أن رجلًا ما لا يعجبني يرقد في سريري بينما رجل آخر يضاجعها في الغرفة المجاورة. لن تسمعني، ولن تصدق أني أنا الفتاة الصغيرة أعاني من مشكلات ما. ستقول لي:

- يا ياركا! إن مشكلاتك ليس مشكلات. إنها مجرد تفاهات.. تفاهات وعبث.

كان أصدقاؤها مجموعة شباب من المدرسة الإصلاحية. إيماءات وكلمات فظة. ندب على سواعدهم. فتيان كانوا يمكنهم

أن يبكوا عند رؤيتهم ثمرات الخوخ في الطبق؛ لأن أجمل ذكريات طفولتهم مرتبطة بتمرات الخوخ. وسرعان ما يقذفون الطبق بعد أن يفرغوا منه على الحائط، أو يجرحون معصمهم كنوع من الاحتجاج. كانت لوتسيا تمتص كل هذا كالإسفنج، تمتصه كي تتعلم منهم أشياء تريدها. كانت تأخذ من كل واحد منهم شيئًا ما ـ أحيانًا تسمع موسيقى الجاز، وأحيانًا أخرى تستمع إلى موسيقى الأفلام. كانت أحيانًا تشعل عيدان البخور. وأحيانًا أخرى ترتب الأثاث على طريقة ال"فينج شوي[2]". بعد ذلك بدأت تدخن في المطبخ وفي الحمام، تلقي بأعقاب السجائر في حوض المرحاض؛ فتبقى هناك عائمة لمدة يومين، لا يمكن أن تغرق كأنها سفينة نوح. كانت تلقي بأحذيتها الملطخة بالقاذورات في سلة الملابس، وتضع ملابسها المتسخة في خزانة الملابس. تعلمت خلط الخمور عالية التركيز بالنبيذ، وخلط مختلف السوائل بالأدوية. تعلَّمت كيف تضع إصبعها في حلقها وقت الضرورة، وتتبول في القدر الخزفي، وتستلقي على الأريكة وساقاها فوق المسند. ترقد ساعات في شبه غيبوبة وعيناها مواربتان مثل باب العمارة، مفتوحة بقدر سُمك عود ثقاب. فجوة بين النوم واليقظة. كانت في حالة تأهب كي ينتفض جسمها ويتحرك من مكانه طالما ستحصل على مكافأة بعد تلك المحاولة. كان جسد لوتسيا دافئًا وطريًا رغم أنها كانت دائمًا تشكو من تصلب في جسدها، وببرودة ما بعد الموت. يداها باردتان دائمًا، كذلك ساقاها وباقي جسدها، ولا تعرف كيف تدفئه.

أحيانًا كنت أستلقي بجوارها، لكني لم أتحمل. كنت أشعر أن

2- تعني بالصينية الرياح والماء.. وهي تعاليم صينية قديمة تتحدث عن علاقة الإنسان بالمكان والزمان - المترجم

لوتسيا لا تشعر بي على الإطلاق، وترد على وخذاتي الطفولية، ومداعباتي، وأسئلتي، وعلى لمساتي لها بتأفف. كانت ترقد مثل خرقة بالية، مبللة بالعرق، رطبة، وأحيانًا متسخة. كانت تأتي أيام تكون فيها مرهقة إلى درجة تعجز عن الذهاب إلى الحمام كي تغتسل. كانت حواسها مستغلقة، فلم تكن تشعر برائحة جسدها، ولا برائحة العرق أو بقايا الطعام بين أظافرها. كنت أخشى من أن تكون مصابة بمرض ما، بشيء فسد داخل جسدها ولا تظهر آثاره عليها - لا توجد آثار دماء، ولا طفح جلدي ولا أية كدمات. شيء ينخر في عضدها ويسبب لها ذلك الإرهاق الغريب المستمر. تخيلت أن بها دودة ما كالدودة الشريطية التي تجوب شرايين القلب وتعشش فيها، فتمتص قوتها ومشاعرها. الدودة الشريطية تقاوم الأدوية والكحول. تتغلغل إلى جلدها وعضلاتها. لا تُجدي معها أية توسلات، ولا تنفع معها دموع الآخرين. وما أن تعشش في بطين القلب، وتتمكن منه؛ تبدأ فورًا في النمو كأنها شجرة. تتجه إلى أعلى، فتدخل إلى رأسها وعقلها، وتدُسّ فيهما فروعها وأغصان قمتها، ثم تتجه إلى أسفل فتنسل إلى يديها وقدميها لتعشش فيهما وتتخذهما جذعًا لها. وتنتشر بالتدريج في كل جسدها. قد يستغرق ذلك شهورًا من دون أن تظهر علي جسدها أية آثار لوجود تلك الدودة إلا في عينيها.

ما جعلني أتخيل وجودًا لتك الدودة الشريطية: هو أني لم أجد سببًا آخر يجعل لوتسيا تبدو بذلك الإرهاق المتواصل، وعجزها عن القيام بأبسط الأعمال، الاهتمام بنظافتها الشخصية. كانت وقتها في قمة شبابها، أصغر من جميع أمهات أصدقائي. عندما جاءت لأول وآخر مرة لحضور مجلس الآباء؛ رفضت المُدّرسة أن تعطيها أية معلومات لأنها لم تصدق أنها أمي. لم أكن أناديها بكلمة أمي، وهو الأمر الذي أصاب المُعلِّمة بالإرباك، فهي لم تقابل

في حياتها شيئًا كهذا. لم تظهر بعدها أمي في المدرسة، وكانت تأخذ معلوماتها من المدرسة من خلال الهاتف. كانت وقتها في الثانية والعشرين أو الثالثة والعشرين من عمرها. وكنت أنا في الصف الأول. كانت تعمل بصورة غير منتظمة، ولديها الكثير من الأصدقاء الذين يقدمون لها العون. كانت تبدو وهي في أحسن أحوالها كأنها شقيقتي. كانت حريصة للغاية على أن تبرز شبابها، وتتجنب أي شيء يربطها بالأمومة أو بكونها تعول طفلًا. كانت على قناعة بأنها غير جذابة للرجال كونها أمًا غير متزوجة. كانت تقول إن الحمل دمّر جسدها، وهو أسوأ ما يمكن أن تقابله امرأة في حياتها. فهو يُعجِّل من ذبول جسدها، ويبدل من روحها، ويجعل من المرأة مجرد بقرة حلوب. إنه يدمر حياتها بلا رجعة.

كان عمر لوتسيا عندما وُلِدْت ستة عشر. من الطبيعي أن مشاعرها كانت أبعد ما تكون - بتعبير أكثر رقة - عن الرضا والسعادة وتحقيق الذات. كان أداء دور الأم في ذلك العمر يعني شيئًا واحدًا: تقدم السنّ والبقاء في البيت. كان عليها ملازمة الشقة فلا تبرحها، فيزداد وزنها، وتكف عن الاهتمام بنفسها، وتفقد الأصدقاء والعشاق، وتفقد أيضًا رغبتها في الحياة، وتفقد حريتها، ويعوزها النوم ووقت الفراغ. لذلك راحت تقاوم بكل قواها. كانت عندما تهم بالخروج ترتدي ملابس كتلك التي ترتديها زميلاتي في المدرسة؛ تنورات قصيرة، وتشيرتات وردية اللون أو بنفسجية، تعلوها شعارات بارزة. كانت أحيانًا ترتدي سراويل جينز وأحذية رجالي كبيرة، وتضع فوق رأسها غطاء رأس السترة التي ترتديها، أو قبعة من القماش. تجلجل في يديها أساور ودوائر رخيصة وبالية، مُدلاة فوق معصمها. كانت أصابع يدها تتشنج وهي تسير، منفرجة مثل عروق أوراق الأشجار حتى لا تسقط الأساور من على معصمها النحيل. كان من الممكن أن نتبادل الأشياء بيننا، فنرتدي

نفس الحذاء، ونذهب للتبضع معًا. لكن ذوقنا كان مختلفًا، كما أن لوتسيا لم تكن ترغب في شيء كهذا.

كانت تحذرني من وقت لآخر، وتقول:

- لا تناديني بكلمة أمي؛ فأنا أشعر معها بأني امرأة عجوز. ناديني باسمي، لوتسيا.

عجز لساني عن مناداتها باسمها، ودائمًا ما علق الاسم في حلقي، وفشلت في المقاومة والسعي كي أنطقه بطريقة طبيعية وصادقة. ورغم ذلك تعلمت أن أناديها باسمها.

- لكنكِ أمي، أليس كذلك؟ والأم دائمًا تكون واثقة من نفسها، أم أن الأمر ليس كذلك؟

- ليس من الضروري أن يعرف بهذا كل الناس.

- أتخجلين مني؟

- كفي عن هذه الحماقات! أنا متعبة. أنا مرهقة.

هكذا كانت تنهي جميع أحاديثها معي.

كانت تبدو مرهقة دائمًا، وتتحرك متثاقلة من دون أية انفعالات، رغم أنها كانت في قمة شبابها. أتذكر كيف كانت بعد موت إيرينا مباشرة، وقتها لم نضطر إلى التنقل بين الشقق المستأجرة، ولا أن نتحمل صراخ إيرينا. كان عمري حينئذ عشرة سنوات، وكنت قادرة على الاعتماد على نفسي تمامًا. كنت أقضي الكثير من الوقت في حلقات الدراسة ومع الأصدقاء. كانت لوتسيا وقتها تمارس عملًا ثابتًا نسبيًا، وهو ما يعني أنها عملت لما يقرب من ثلاثة أشهر في مكان واحد. وربما كانت في علاقة عاطفية مستقرة نسبيًا هي

الأخرى. يُدلّل على ذلك أن عشيقها وقتها أصلح خزان المرحاض، وأن فرشاة أسنانه كانت موجودة فوق حوض الاغتسال. أتذكر أن لوتسيا وقتها كانت مجنونة وسعيدة، تتحرك في أرجاء الشقة بكل خفة. أتذكر أنها أيضًا كانت تطبخ، وتنظف الشقة، وتذهب للتبضع، وتقوم بكامل الأعمال التي تقوم بها أية أمّ في المنزل. كانت عندما تنفعل بشدة - بسبب مشاجرة مع صديقها أو لتأخر راتبها - تقف عند النافذة، وتدق بقدمها على الأرض، وتنقر بأظافرها الطويلة، وأصابعها الطويلة أيضًا على إيقاع إحدى الأغاني.

ورثنا شقة صغيرة بعد موت إيرينا. كان هذا بمثابة معجزة.

كانت إيرينا تقوم بحملات تنظيف متقنة في الشقة على فترات منتظمة. أول مرة نظفت فيها الشقة بطريقة متقنة كانت عندما ذهب زوجها المدعو ميلاتيتش إلى النمسا عام 1968. وقتها أصيب الجميع بالدهشة؛ لأن السيد ميلاتيتش كان طيلة حياته رجلًا هادئ الطبع، وديعًا، ويُعوّل عليه، كان أيضًا عاملًا مستقيمَ في عمله. ذهب ذات يوم إلى المقابر في منطقة «دافين» لتنظيف قبر أخيه من الأعشاب الضارة ولم يعد من وقتها. ترك في براتسلافا زوجة ورضيعًا ذا عامين. كان هناك شك في أبوته لذلك الطفل، وكان هروبه سببًا في تأكيد تلك الشكوك. وعندما كانت إيرينا تَذكُره بشيء من إنكار مصطنع للذات؛ كانت دائمًا تتحدث عن رجل يدعى ميلاتيتش، رجل خنوع وضعيف ومتردد. رجل ساعداه دائمًا ملوثان بالطين. من المؤكد أن زياراته لمقابر دافين كانت تصيبها بالانزعاج الشديد. أنا لم أره. كل ما عرفته عنه أنه كان يمشي وهو يحني ظهره، وكانت لديه حديقة جميلة. كان يقضي أوقات فراغه كاملة إما في تلك الحديقة وإما في مقابر دافين. كانت إيرينا تعمل مديرة لدار حضانة. حملت في طفلها الأول وهي في الأربعين من

عمرها عام ستة وستين. كان ذلك حدثًا مدهشًا. لم يتوقع أحد من معارفها حدوث شيء كهذا. احتار الجميع في تقبل الأمر. لم يعرفوا إن كان عليهم أن يهللوا للحدث ويباركوه، أو يتظاهروا كأن شيئًا لم يحدث، ويتكتموا على الخبر. صارت إيرينا مجبرة على أن تظهر للعالم والد الطفل، وتتزوج، وتوائم بين حياة امرأة تزوجت في سن متأخرة، واستسلمت بعقلها وجسدها للتربية في مجتمع اشتراكي، وبين حياة أم وزوجة مسئولة. بعد ستة أسابيع حملت الطفل معها في مهده إلى دار الحضانة أسفل مكتب المديرة. كان يتناول كل ثلاث ساعات بالتمام والكمال زجاجة لبن، تضع له بودرة ثلج على مقعدته. استطاعت إيرينا على طريقة عصرها أن توائم بين عملها وأسرتها، في الوقت الذي كان المدعو ميلاتيتش ينظف الأعشاب الضارة فوق قبر أخيه. في يوم ما أرسلوا الرفيقة المديرة للعمل في مطعم الدار، في قبو المبنى الخرساني نفسه؛ لأن زوجة الرجل المهاجر لم تستطع أن تربي الأطفال ليكونوا شيوعيين كما ينبغي.

بعد مرور ثلاثة أيام من سقوطها المُذِلّ؛ قامت بتنظيف الشقة بكل إتقان حتى محت منها كل أثر لجدي. حطوا من مرتبتها في العمل؛ فصارت بمستوى المدعو ميلاتيتش الذي ظل يعمل قبل هروبه في وظيفة عامل صيانة في مصنع ديناميت نوبل للكيماويات. كانوا يتحرّونها على أنها شخص مشتبه فيه. وفجأة ظهر عليها الهِرَم. وفجأة خرج الشر من مكمنه بعد أن اختفى خلف مكانتها الكبيرة في العمل بالحضانة، وخبأته خلف ابتسامة زجاجية مصطنعة. لزمت بيتها، وصنعت منه منفىً مختارًا. قامت بتنظيف ملجأها الإسمنتي، وهيأت لنفسها نظامًا يوميًا صارمًا، لا يعكر صفوه عامل صيانة أو غيره. كانت تُرتب الملاعق والسكاكين فوق مناديل المائدة، وتضعها على مفارش الطاولة المزركشة التي لم

يمسسها أحد من قبل، وترصها بطريقة منمقة حسب لونها. كان كل شيء متناغمًا بطريقة صارمة. يوجد في مدينة «نيودورف»، على بعد عشرة كيلومترًا من الحدود مع النمسا متجر لبيع الزهور اسمه ميلاتيتش. أعتقد أني قد أفكر في الذهاب إلى هناك يومًا ما. إنه متجر يبيع الزهور وشتلات النباتات والبصل.

بعدها بخمسة عشر عامًا عادت من جديد لتنظيف الشقة بنفس الإتقان. كانت تنظف ما تخلفه أمي، لوتسيا وأنا. وبعد مرور ستة أسابيع؛ بلغت لوتسيا عامها السابع عشر. نهرتها إيرينا قائلة: لقد عُدتُ إلى العمل بعد ستة أسابيع من الولادة، لما لا تفعلين أنتِ أيضًا؟ عليك أن تجدي لنفسك مسكنًا آخر بسرعة. وحتى ذلك الوقت يمكنكِ أن تعيشي أنت والطفلة في المطبخ. أمامك ثلاثة أشهر، لا تزيد يومًا واحدًا. لقد دمرتما حياتي! لم أعد أطيق رؤية أيّ منكما هنا! خذي ما تريدينه من حجرتك، وسأتدبر أنا الباقي. سأغلق الحجرة حتى تتأكدي أنه لم يعد لكِ مكان هنا. بعدها تخلصت إيرينا من جميع أشياء والدتي، من دُماها وألعابها وألواحها وسائر مقتنياتها من أيام الطفولة. تخلصت من كل شيء تركته لوتسيا ولم تخفه. لوتسيا أيضًا لم تأخذ أي شيء تقريبًا؛ لأنها استهانت بما قالته إيرينا. وجدت لوتسيا نفسها فجأة تقف فوق جسر عائم هشّ، يفصل - ويصل في الوقت نفسه - الطفولة والشباب. لقد خسرت جميع الأشياء التي تذكرها بأنها كانت طفلة يومًا ما، وكانت تذهب إلى المدرسة، وكان لها لُعبها الخاصة. لم تتمكن حتى من نقل الأشياء التي جعلت منها فتاة شابة. فبقيت عالقة بين الطفولة والشباب. إنها ما زالت غير قادرة على التعايش مع حقيقة أنها صارت أمًا، ولم تعد طفلة. انسدّت أمامها الطرق كافة، واختفت من تحتها الأرض الصلبة التي يمكن أن تقف عليها بثبات. لم يتبق شيء يربطها بفترة البراءة. لم يعد لديها ما يأخذ

بيدها إلى المستقبل وهي مطمئنة. فقدت كل شيء.

جمعت إيرينا في أثناء عيد الميلاد عام 1989 بطاقات العضوية، والأوسمة، والشارات، والرايات الصغيرة، ويوميات رحلاتها، والأشياء التذكارية التي جمعتها أثناء الإقامة في رحلات الحزب. جمعت كل ما يثبت أنها كانت عضوًا عاملًا في الحزب الشيوعي، ووضعته في صندوق كبير. ثم راحت تحتفل بعدها بعيد ميلاد المسيحيين بكل ما تحمل كلمة الاحتفال من معنى، كأنها كانت تمارس تلك الطقوس منذ الأذل خلف ستائر مُسدلة. كانت عندما تشعر بالأمن تتصرف مثل الحلزون المُخنَّث، تتقمص الدور، وتزحف في الطين، وتتقدم إلى الأمام.

عدنا إلى إيرينا عندما بلغت الخامسة والستين، وأصيبت بكسر في مفصل قدمها. ربما رأت وقتها أن هذا هو الحل الأوفر والأكثر منطقية. فمَن غيرنا يمكنه أن يرعاها، ويعيد لها كل ما فعلته لنا قبل أعوام. من غير ابنتها وحفيدتها التي اعتادت تحمل الأعباء، وإحصاء التكاليف في المتجر. قبلت لوتسيا العودة إليها، فكفاها ترحالًا بين الشقق المستأجرة على مدى تسع سنوات. أسدلت رأسها، وحزمت حقيبتها واعترفت بالهزيمة.

عشنا معًا في شقة إيرينا المكونة من غرفتين ما يقرب من عام. بعد أسبوع من الانتقال إلى هناك أدركْت أن بديلًا آخر غير الحياة في ذلك الثلاثي سيكون أفضل. لكن لوتسيا قالت إن علينا أن نتحمل. فهى لن تعيش إلى الأبد.

قالت بعد انتقالنا إليها على الفور، وعندما بدأنا نتواصل معًا:

- لا تناديني بكلمة جدتي.

ثم سألتني مستنكرة:

- هل أبدو مثل جدة؟

قلت لنفسي:

- قطعًا لستِ كذلك.

أنا أتخيل جدتي على صورة مختلفة تمامًا، إنسانة ودودة ورقيقة، تفتح لي ذراعيها. سأناديكِ كما تناديكِ لوتسيا. الساحرة الشريرة.

- ناديني باسم إيرينا. لقد أخبرتك بهذا من قبل. أنا لست جدتك ولا جدة أحد غيرك.

- أوامرك يا إيرينا!

وهكذا عشت مع لوتسيا وإيرينا. يمكن بكل بساطة أن أعتبرهما مجرد سيدتين ترعياني. كان يمكنني أن أسكن مع جيراننا بدلًا العيش معهما.

قبل ذلك كنا نقيم في شقة بالإيجار في الجانب الآخر للمدينة. في شقة مكونة من أربع غرف، يشاركنا فيها ستة أو سبعة طلاب من كلية الفنون. لم أراهم مجتمعين على الإطلاق، واختلطت عليّ وجوههم. بدا لي أنهم كانوا يتبادلون الملابس، والأحذية، والعطور، والأصدقاء، وحتى الأفكار فيما بينهم. كنت أعتقد أنهم يتشاركون خزانة واحدة، يأخذ كل منهم ما يروقه منها بغض النظر عن جنسه أو مقاسه. كانوا شبابًا مرحين، ويتمتعون بمزاج طيب معظم الوقت. لكني كنت أمَلّ من متابعة حضورهم وانصرافهم غير المنتظم، ومن شجارهم ومزاجهم المتقلب. كانوا كثيرًا يتبادلون الغرف والأسرة.

ففي المساء يدخل طالب أصلع إلى إحدى غرف النوم، وفي الصباح يخرج من غرفة أخرى. أو يأتي إلى الشقة شخص غريب، فيأخذ مكان طالب آخر كنت قد اعتدت عليه، فيختفي من دون أن ينبس بكلمة. تملكني شعور بأننا نسكن في بيت صغير للدمى، يقوم طفل شقيّ بتغيير أثاثه باستمرار، ويعيد ترتيب العلاقات داخله بناء على مزاجه المتقلب. وأنا غير قادرة على التأقلم مع تلك التغييرات المفاجئة.

لم نكن نشعر بالخصوصية ولا بالهدوء. كنت أنا ولوتسيا ننام فوق أريكة ضيقة في غرفة صغيرة، كانت تستعملها إحدى الساكنات كمخزن، أو كورشة لتصنيع الفخار. كان من الضروري أن نغادر تلك الشقة طالما حظينا بعرض إيرينا السخي. لم تتردد لوتسيا؛ فاستغنت عن قيمة شهر الإيجار الذي دفعته مقدمًا وعن مبلغ تأمين خرق عقد الإيجار.

بدأت لوتسيا بعد عودتنا إلى البيت في استعراض نفسها بجميع الأشكال الممكنة كي تعوض شعورها بالهزيمة المريرة. انطلقنا في العمل. اندفعنا مثل الإعصار، وراحت لوتسيا تعيد ترتيب البيت بلا هوادة وبكل إصرار. اضطرت إيرينا إلى النوم على أريكة في غرفة الاستقبال الضيقة، وبدأنا نستمتع برفاهية النوم في غرفة كبيرة ومضيئة.

وضعت جهاز التليفزيون في غرفة النوم، وتركت لإيرينا مذياعًا نزعت عنه عمدًا سلك الهوائي. خلال بضعة أعوام انهار النظام المتقن الذي بنته إيرينا على مدى سنوات. ألقت لوتسيا جواربها بجوار المناشف، وأعادت ضبط قنوات التليفزيون، ثم ألقت بأدوات المائدة كلها في أحد أدراج البوفيه، ووضعت الدمى الزجاجية في أحد الصناديق.

صرخت إيرينا:

- لقد حولتِ الشقة إلى كباريه. لا يوجد أي نظام، فوضى! لقد دمرتِ كل شيء! دمرتِ كل شيء!...

راحت تشكو مثل الحيوان، لكنها كانت عاجزة عن فعل أي شيء. كانت فقط تمسك بالباب، أو تستند إلى كتفي، وتضرب بعصاها في السجادة. لم تكن قادرة على أكثر من ذلك، لم تكن تقوى حتى على رفع عصاها كي تشتت المناشف في أرجاء الغرفة. كانت تجاهد كي تحافظ على توازنها وهي تقف منتصبة.

كنت أصاب بالاكتئاب وأنا أشاهد امرأتين لا يربطهما سوى بخل كل منهما على الأخرى، واعتماد إحداهن على الأخرى، وأعرف أني أنتمي إليهما، وتربطنا ببعضنا - كرهًا - علاقة قرابة لا تنفك. من لا يعرفنا لا يفهم سبب ارتباطنا ببعضنا، فكل منا تنادي الأخرى باسمها رغم أن دمًا واحدا يسري في عروقنا.

كانت إيرينا تحيك اللوحات. كانت رسوم كروشيه عليها صور فاكهة، وباقات ورد من زهرة الليلك، يعلوها التراب. بهت لونها، وفارقتها الحياة. ذات يوم أزالت لوتسيا جميع لوحات إيرينا من على الحوائط، ثم نزعتها بقسوة من أطرها. كانت إيرينا تقف أمامي مثل حجر قديم مُتَهدِّم، لم يبق منه سوى كومة من شظايا صخرية تهتز. تتكئ بإحدى يديها على إطار الباب، وتمسك عصاها باليد الأخرى، وتجاهد كي تلتقط قطع القماش التي انتزعتها لوتسيا، ركبتاها ترتعشان وهي تتحسس مكانًا بعصاها فوق السجادة. أسقط في يدي، لم أعرف إن كان عليّ أن أرثى لحالها أو أتشفى فيها. كانوا يكررون على مسامعنا في المدرسة مرارًا بأن علينا احترام كبار السن، وأن نفسح لهم مكانًا، وأن نساعدهم في حمل

المشتريات. رأيت عن قرب وجهها الذي ملأته تجاعيد الغضب وقلة الحيلة، رأيت عينيها بلا رموش، حمراء دامعة مثل عيون الزواحف، رأيت بشرتها الصفراء تشبه ورق الشمع المجعد عند بائع اللحم. رأيت شعرها المتناثر تعوزه لمعة فضية، رأيت الندب وشعر بشرتها والبقع البنية والبثور، كل هذا مُغطىَ بورق الشمع. كانت امرأة حقيقة بطريقة تثير الاشمئزاز. برزت تفاصيل جسدها، واختفت حقيقة أنها جدتي من ذاكرتي تمامًا. كنت أتابعها كأنها حشرة تحت مجهر مُكَبِّر. شممت رائحة جسد طاعن في السن لا تخطئها الأنف. لم أر فيها شيئًا آخر سوى ساحرة شريرة، تبسط مخالبها كي تدكها في كتفي، وتصنع مني طرفًا آخر من أطراف جسدها. لم تجد شيخوختها صدى في نفسي رغم أني كنت على وعي بها. قلت لنفسي: ساعديها، قفي إلى جانبها، سامحيها! أما لوتسيا فكانت تفعل ما تفعله عن كراهية خالصة، لوتسيا، تلك المرأة الشريرة الخبيثة. لم تستطع القيام بشيء آخر غير إزعاج حيوان عاجز عن الدفاع عن نفسه. إنه أمر شاذ وتصرف خسيس. انتفضت إيرينا للحظة وهي تحاول أن تطال لوتسيا بعصاها. لكن يدها انزلقت من فوق إطار الباب الذي كانت تستند إليه. التفتت إليّ بشكل غرائزي ومدت يدها المخضبة بالبقع، ثم فردت أصابعها مثل حيوان مفترس يتأهب لاصطياد إحدى القوارض الصغيرة وهي تهرب. انتفضت هلعًا، وأسرعت تجاه لوتسيا، ثم هرولت إلى داخل دهليز الشقة. سمعت من الدهليز صوت ضربة قوية، لكن ربما كانت مجرد ظنون. تراجعت إيرينا بعد تلك الحادثة، وتركت لوتسيا تفعل في الشقة ما تشاء. ثم ماتت بعدها بعام.

بعد انتهاء جنازة إيرينا؛ همَت لوتسيا على الفور بمجرد أن دخلت إلى الشقة بخلع كل قطعة ملابس سوداء كانت ترتديها. نزعت المعطف الأسود وباقي الملابس كأنها حيكت من اللباد؛

فسببت لها حكة وهي تضعها على جسدها العاري، ثم تركتها ملقاة فوق أرضية الشقة. دخلت إلى كل غرفة في الشقة، وفتحت نوافذها على مصراعيها. فتحت أيضًا باب الشقة عن آخره فتسببت في تيار هواء شديد جعل أوراق الفواتير الملقاة جانبًا والمناديل فوق طاولة إيرينا بجوار السرير تتطاير في أرجاء الشقة مثل حمامات تعلن عن قدوم السكينة والسلام بعد طول انتظار.

كانت لوتسيا تهرول في أرجاء الشقة مرتدية حمالة صدر حمراء، وتتعثر في الملابس السوداء التي ألقتها على الأرض. استقرت الأوراق البيضاء بهدوء فوق السجادة وفوق الأثاث. ودخلت أوراق شهر أكتوبر الجافة إلى الشقة مع تيار الهواء، ثم علقت في ثنايا الستائر. بينما كنت أغير ملابسي على مهل تعثرت لوتسيا بمعطفها، فتمددت فوق الأرض. رأيت كدمة زرقاء كبيرة فوق فخدها من الخلف. استدرت فرأيت منشفة عالقة على وجهها. ظلت مستلقية على الأرض بضع دقائق وهي تنتفض. لم أعرف إن كانت تنتحب أم تبتسم. كانت تتخذ وضعًا شبيهًا إلى درجة كبيرة بالوضع الذي ماتت عليه إيرينا. لكن لوتسيا لم تكن تعرف بهذا الأمر؛ لأنها لم ترها عندما لفظت أنفاسها الأخيرة. لم ترها إلا وهي في كامل ملابسها، مهندمة ومسجاة، ترقد بكل جلال ووقار.

صارت الشقة التي ورثناها منظمة، وأصبحت محتوياتها مرتبة. تخلصنا في وقت لاحق من كل ما كان يذكرنا بإيرينا. تخلصنا من أشيائها الخاصة التي لم تتمكن لوتسيا من التخلص منها خلال العام السابق، من ملابس، ومزهريات، وتحف، ولوحات. دسسنا في أكياس بلاستيكية ملابسها المصنوعة من ألياف صناعية ولم تكن صالحة حتى للاستخدام كخرقات للتنظيف. وضعناها بجوار حاويات القمامة. فربما يعثر فيها أحدهم عن شيء يناسبه.

تصرف طبيعي اليوم، فلا أحد يخجل من أن يفتح خزائن ملابسه ليعرضها أمام سكان الحي. لكن الجميع يخجل من أن يفتش فيها. بعد ذلك بأسبوع وجدنا ملابس إيرينا، وملاءاتها، وستائرها النايلون، وجواربها مبعثرة في أرجاء الحي عالقة فوق الأشجار، ومبللة وملطخة بالطين في البرك الصغيرة على جانب الطريق. لم يلبس أحدهم على الإطلاق أيًا مما وقع في أيدينا في أثناء تنظيف الشقة، لم يغسله ولم يعد إليه الحياة. ولا حتى مناديل الطعام المشغولة التي كانت إيرينا تخبئها في أوراق الشمع. لم يلمسها سوى القطط التي بعثرتها في مرفأ السيارات.

بعد أن نظفنا الشقة من مقتنيات إيرينا؛ قررنا - لوتسيا قررت أن تتخلص من الخزائن القذرة المُغطاة بقشرة من خشب البلوط. كانت تصدر صريرًا مخيفًا. كانت تهتز رغم أنها تقف فوق ألواح خشبية. كنت أخاف أن تسقط عليّ ذات يوم وأنا ألتقط جواربي من أحد أدراجها العليا، وأدفن تحتها بعد أن تشطرني إلى نصفين. سأفترش الأرض وأنشطر إلى جزأين مثل تلك القطة السوداء. لن تتمكن لوتسيا من رفع الخزانة عني، ووصل قدمي بنصف جسمي العلوي. تخيلت نفسي وأنا أرقد، رأسي ونصف جسدي أسفل الخزانة. سيكون بترًا متقنًا. قدماي ملقاة فوق السجادة مثل عودين من الثقاب.

جاء أحدهم في الليل وأخذ الخزائن. وحمل أيضًا السرير العريض المتحطم الذي لم نحتفظ منه سوى بالحشية. ظلت الطاولات الصغيرة المتصدعة التي توضع بجوار السرير ملقاة في فناء البيت لمدة أسبوعين، إلى أن حملها أحد سكان الدور الأرضي وأحضرها إلى الطابق الثالث، ووضعها أمام باب شقتنا ومعها ورقة يطلب منا فيها أن نرمي تلك الخردة في المكان الصحيح،

في فناء تجميع النفايات. من ذا الذي سيحمل النفايات إلى فناء جمع القمامة، بينما هى بطريقة أو بأخرى تتداعى وتختفي بمرور الوقت بجوار حاويات القمامة أمام البيت؟ على الأقل كان لدي مكان أحتفظ فيه بأشيائي بعد أن أطلقت لوتسيا سراحي.

كانت الشقة في حياة إيرينا غارقة في الظلام الحالك بفضل مصابيحها المصنوعة من أسلاك وأغصان. كانت بقع الإضاءة المرصوصة مثل قشور الأسماك تسبح فوق الحوائط عندما تتحرك المصابيح وسط تيار الهواء. تمكْنت من تفكيك تلك المصابيح، ورحت أثب بينها، وأقطعها إلى أجزاء، وأجمعها مع قدورها وأغطيتها المحترقة في حقائب بلاستيكية. اخترق أحد الأسلاك حذائي الرياضي الوحيد فثقبه.

رحنا بعدها - أسبوعَ تلو الآخر - نحمل خلسة أكياسًا كبيرة متخمة برزت منها الأسلاك، ونلقيها في حاويات القمامة بعد أن ينظفها عمال النظافة مباشرة. كنا نفعل هذا بعد الغروب حتى لا يرانا الجيران، وكي لا تضطر لوتسيا إلى دفع أموال إضافية قيمة نقل تلك النفايات.

كانت لوتسيا تتصرف كالمجنونة وهي تتخلص من بقايا إيرينا. كانت تنزع الستائر، وتمزق السجاد، وتحطم الأواني، وكأنها تنفث في تلك الأشياء المُعينة البائسة سنوات من الغضب المتراكم على تلك المرأة العجوز الكئيبة.

تجاوزت خطة تجديد الشقة التي تدمرت شهر نوفمبر، وامتدت إلى ديسمبر ومنه إلى شهور الصيف. كان هناك دائمًا نقص في الأموال اللازمة والوقت الكافي. رغم أن دائرة أصدقاء لوتسيا كانت تتسع يومًا بعد يوم؛ لم يظهر بينهم من يأتي بسيارة ضخمة،

ويأخذنا إلى أحد المتاجر لنشتري ما ينقصنا من أثاث، ويحمله لنا حتى الطابق الثالث. لم أحزن على أننا تخلصنا من مخلفات إيرينا. لكني كنت أنتظر تحقيق الخطة الطموح التي ضمت: سريرًا، ومكتبًا، وخزانة، وملابس وكرسي هزّازًا، وأيضًا جهاز تشغيل الموسيقى. في النهاية اكتفيت بأن أصبحت لي غرفة خاصة، ودهليز مستطيل مظلم، عليه دهانات لم تكتمل، وحشية فوق ألواح خشبية. كان ذلك كافيًا وقتها؛ لأن مزاج لوتسيا المعتدل كان مثل بودرة السكر التي تزين كعكة فاسدة. لكن مزاجها المعتدل استمر لفترة طويلة. إلى ما يقرب من عام.

بقيت الشقة بعد عاصفة الغضب التي انتابت لوتسيا مُدمَّرة تمامًا. توقفت عن التفكير في الأمر، ورحت أستغل كل ما تقدمه لي الشقة. لم تكرر لوتسيا ما فعلته لتجديد هواء الشقة بنفس الحماس، فبقي الهواء عالقًا في أرجاء غرف الشقة الثلاث الصغيرة. صار ثقيلًا. صارت جميع الزيارات مُمِلَة ومبتذلة تحت ضوء مصباح مخبأ خلف ظل سخيف وعشوائي، شكل جرعة كبيرة من الوهم قادمة من خلف كوب بلاستيكي للزبادي. بدت جميع الزيارات كأنها ظلال تتحرك. خبت لمعة حبات الكريستال والترتر المزيفة التي زينت "تي شيرتات" صديقات لوتسيا. خفف أصدقاؤها الصاخبون السوقيون من لهجتهم، وزحفت الكلاب أسفل الطاولة لتخفي أنوفها. كأننا في بيت الموتى.

كانت لوتسيا تعتقد أنها سوف تتخلص من إيرينا إلى الأبد بمجرد أن تُدمّر نظامها وطريقتها في ترتيب الشقة. لكن شيئًا ما غامضًا ظل يطاردها.

لم تكن لوتسيا تجيد تنظيف المنزل، لم تكن تعرف بالأمور الأساسية المتعلقة بإدارة المنزل. لم تفكر يومًا أن تفتح نافذة

غرفتي من وقت لآخر ليتجدد هواؤها. كدنا نختنق ونحن نتنفس هواءً فاسدًا في أكثر أيام السنة سخونة. انطفأ مزاجها الجيد بعد مرور عام، وراحت لوتسيا تشكو من الإرهاق والضعف. كانت تقول إنها لا تريد أن تتنفس أو تنهض من الفراش أو تنام. لم أفكر في تنظيف الحمام، أو التخلص من المسطردة المتيبسة في الثلاجة. كنت أنظف كل ما تقع عليه عيناي، وكل ما أتعثر فيه. أنظف كل ما كان يعوق طريقي إلى غرفتي أو إلى الحمام. كنت أغسل أكوامًا من الأواني كي أجد طبقًا أضع فيه قطعة السمك. تلك الأواني التي يصعب التكهن بموعد ظهورها وكيف ظهرت. لوتسيا لم تكن تطهو أي شيء في المنزل تقريبًا. كنت أنظف سلة المهملات عندما أجدها قد امتلأت ولم يعد بها مكان لعصاة الآيس كريم التي لو وضعتها لسقطت الفضلات. كنت أمسح أرضية الشقة حتى لا أضطر إلى غسل جواربي كثيرًا. تعلمت كيف أستخدم ثلاثة برامج مختلفة في غسالة الملابس، وكيف أفرز الغسيل. تعلمت هذا من والد زميلة لي في المدرسة؛ لأن لوتسيا لم ترغب في قراءة دليل استخدام الغسالة.

ناديني باسمي، بيتر! لا تناديني يا عمو! هذا ما قاله لي والد زميلتي دوروتا. لم تكن عندي مشكلة في هذا الأمر؛ فأنا على أية حال لا أنعت أمي بكلمة ماما.

بيتر.

كنت أتمنى أن يقيم بيتر معنا في الشقة، أجلس على ركبتيه، أستمع إليه وهو يتنفس، وأتنفس معه. أطوق رقبته بيدي، وأتناول الشطائر التي يعدها. شطائر بالمسطردة. أعدها خصيصًا لي أنا وحدي. لم تكن دوروتا تحب المسطردة. أنا على العكس كنت أحبها بالمسطردة؛ إذ أستطيع أن أحصي عدد الشطائر التي صنعها لي ولدوروتا. إنه العطف والاهتمام المتجسد في الشطائر. كم لا يعد

ولا يحصى.

كانت ثقته بنفسه تفوق الوصف. الثقة التي افتقدتها إيرينا ولوتسيا وجميع أصدقائها. إنه بيتر الكبير اليافع، الذي يكبرني بعشرين عامًا، إنه بيتر الذي كنت أناديه باسمه، ولديه إجابة عن كل سؤال، وعنده وقت لعمل كل شيء. بيتر الذي علمني كيف أغسل الملابس.

همسَت في أذني ذات يوم وأنا في الحافلة امرأة عجوز، وقالت إنها تشم رائحتي، وهذا لا يليق بفتاة جميلة مثلي؛ أن تكون رائحتي كالفأر الميت. عندها فهمت لماذا يرفض كل من في المدرسة أن يشاركني خزانتي الصغيرة. كان الأمر بالنسبة للوتسيا سيان. وكنت أخجل من أن أخبر بيتر بشيء كهذا. لهذا ادعيت أمامه أن لدينا غسالة جديدة، وأن لوتسيا أضاعت دليل الاستخدام. لكن الغسالة كانت عندنا منذ فترة طويلة، غير أن لوتسيا لم ترغب في استخدامها. كانت تفضل الانتظار حتى يأتي أحد معارفها وتقول له إن الغسالة تعطلت من جديد، وتدعوه لأن يلقي عليها نظرة. أحيانًا كان أحدهم يشغلها لنا.

أجلسني بيتر فوق الغسالة، وراح يعلمني لمدة نصف ساعة كيف أقرأ العلامات الموجودة على الرقعات الدلالية في الملابس. نصف ساعة كرسها بكل اهتمام لتعليمي. انتابني خلالها شعور بأني أدخل إلى قمرة سفينة صلبة تقف في المرفأ. كنت مرتاحة وسعيدة. كنت غارقة في الحب، ومبهورة مما يحدث.

بدأ كل شيء يسوء بعد مرور عام. فَتر مزاج لوتسيا المعتدل مثل ماء يتساقط من صنبور سيئ الإغلاق. بدأ يظهر كقطرات، وارتبط بقطرات الفودكا والويسكي. عندما كنا نسكن في شقق بالإيجار

كانت مضطرة إلى السيطرة على تصرفاتها، لكنها في شقتها الخاصة تفعل ما يحلو لها.

لم نكن نر بعضنا كثيرًا كما كنت أتمنى. كانت لوتسيا تقضي معظم الوقت خارج البيت، في العمل. في عمل ما لم تكن تجد له اسمًا محددًا. في البداية حاولت الادعاء بأن لديها عملًا جيدًا ومنتظمًا في أحد المكاتب - عملًا جيدًا في أحد المكاتب! لكني لم أكن غبية، وفهمت على الفور أن المكاتب لا تعمل من الثالثة والنصف بعد الظهر وحتى الثانية صباحًا. كانت تعرف أني أعرف بهذا الأمر، وأنها تكذب. فما كان منها إلا أنها كانت تروح وتجيء من دون تفسير، وتأتي بالنقود إلى البيت. أو يأتي أصدقاؤها إن لم تأتِ هي. عندما كانوا يسألونني في المدرسة عن عمل أمي، كنت أختلق أي مهنة. لم أخبرهم أنها تعيش من إعانة البطالة، وتسافر في أرجاء البلاد تبيع أو تشتري. كنت أجعلها أحيانًا تعمل في البارات، أو تقود سيارة أجرة، أو تسافر إلى النمسا، أو تعمل من البيت، لكني لا أعرف ما تفعله على وجه التحديد. لم تكن تتحدث معي في أي شيء. لم أكن أتنبأ بمواعيد حضورها إلى البيت أو انصرافها، وهو ما كان يزعجني. لو كنت وقتها أكبر سنًا لما أزعجني إلا حضورها.

كان أطفال الحي يحسدونني؛ لأني أقضي معظم الليالي وحدي بالبيت، ويمكنني أن أشاهد ما أريده من أفلام.

كانت الأمطار تهطل على مدى عشرة أيام، ولا تُلقي إحدانا التحية على الأخرى خلالها. كنت أقول لنفسي إن كثيرًا من الناس يقيمون علاقات جيدة وحميمة من دون أن يحتاجوا إلى الكلمات. لماذا لا نفعل أنا ولوتسيا ذلك؟

مرت سنوات حتى أدركت أن العلاقات الحميمة قد لا تحتاج إلى كلمات، بحسب مقدار الحب فيها. ما كان بيني وبين لوتسيا لم يكن أي نوع من التواصل الصامت، أو الحميمية. بل كان غيابًا تامًا للتفاهم، كان تجاهلًا واضطرابًا. لم يكن الدم الواحد سوى مجرد سائل يتحرك في عروقنا.

كنت في الثلاثين من عمري عندما التقيت بيتر من جديد. لم يخاطبني طوال الليل إلا بأربع كلمات:

- أخيرًا. اصمتي! اهدئي!

غير ذلك كان الحديث عن الطعام، والنبيذ، وعن ابنته دوروتا التي تناولت معنا العشاء.

حتى ذلك الوقت؛ كنت لا ألتقي إلا بأناس لا يكفون عن الحديث إلا عندما يشربون شيئًا أو يدخنون. تعودت على ذلك. لم يكن الأمر صعبًا. أحيانًا كانت تكفي الابتسامة، أو تكرار ما يقوله الآخرون. كان الأمر مثل لعبة الأطفال عبر الهاتف؛ إذ يقول أحدهم للآخر شيئًا في أذنه، فيهمس الأخير لطفل ثالث بنفس الكلمات، وهكذا حتى تصل الكلمات إلى الجميع. أية كلمات، ليس من الضروري أن تحمل معنىً محددًا. كانت مجرد لعبة الغرض منها هو التسلية، وقضاء الوقت في مجتمع الكبار.

كنت أريد أن أكون وَدودة مع كل شخص حتى أنعم بالهدوء، ولا أضطر إلى الدخول في مشكلات مع الآخرين. لم أرغب في أن ألفت انتباه أحدهم إليّ كي يهتم لأمري، لم أكن في حاجة إلى شرح أيّ شيء لأحد، ولا حتى لزملائي في العمل، ولا لجيراني، ولا للطبيب. كان لديّ مُستند، سيرة ذاتية علمية. البيانات الرئيسية داخل الجدول، ومعلومات إضافية بين الأقواس أو في الهامش.

سيرة ذاتية مُعدّة بشكل جميل، ولغة رصينة. وضعتها في قالب حصلت عليه من الإنترنت، ليس بها شيء مبالغ فيه أو يثير حفيظة أحدهم. كنت أقدم ذلك المستند لكل من يطلبه، أو حسب ما أراه أنا، خصوصًا إذا ظهر من يسهب في السؤال بطريقة مزعجة، وأرى أنه يجب الحفاظ على اتصال به. كنت أحافظ على ذلك المستند نقيًا خالصًا، لا يمكن أن تقرأ بين سطوره أكثر من أسماء محطات العبور، وتاريخ العبور بكل دقة. كان في إمكان كل من أراد أن يلتقط من جيبه ذلك المستند التعريفي، ويقدمه على أنه جوهر حياته. فيمكن أن يكون أي منهم قد حصل على تعليمه الأساسي في شارع نويل، وحصل من هناك على شهادة الثانوية، أو رخصة قيادة سيارة خاصة، أو اجتاز إحدى الدورات التدريبية، ولديه هواية التردد على السينما أو قراءة الكتب. كنت أشعر بأن أحدًا لا يراني تقريبًا، أشعر بالأمن الحقيقي وأنا أنظر إلى تلك الورقة كفرد مثل ملايين البشر.

لم يطلب مني بيتر - لا في تلك الليلة، ولا في أي وقت بعدها - أية بيانات. كان صعبًا القبول بذلك بعد كل تلك الاختبارات التي بدت كأنها تبادل للآراء من دون التزام على أحد، أو حديث اجتماعي لا يهدف إلى شيء، لكنها كانت في الحقيقة استبيانًا مفصلًا، ينتظر الطرف الآخر في نهايته أن يُكوّن صورة مكتملة عن الشخص. وبناء عليه سيقرر إن كان سيواصل الحديث معه حتى يصلا إلى الفراش، أو ربما إلى أبعد من ذلك. لم أكن أفكر خلال تلك الحفلات إلا في أمر واحد: ماذا يريد مني ذلك الرجل، ولماذا لا يضع حدًا لكل تلك المعاناة. كأنه لا يكفي أن نقف وجهًا لوجه، وأتابع في صمت وترقب إن كان التفاعل الكيميائي الذي أراه سيسفر عن مواد علاجية أم عن انفجار.

انتابني في تلك الليلة رغم تلك المحادثة المختصرة - أو ربما

بفضلها - شعور بأن مواد علاجية بدأت تتفاعل بيننا. رغم تلك المواد فقد عَلِق الهواء، وانتشر الضباب كي تتركز مشاعرنا فقط على حالة الحب التي تنمو. على حالة الحب التي تنمو ليس بفضل البيانات حول إجمالي الدخل الشهري، والهوايات والصحة النفسية، لكن على حالة الحب التي تتوالد من الكيمياء، وعلى حالة المزاج المتقلب الرائعة.

حالة رائعة من تقلب المزاج، وعطف لا ينتهي، أو كما يقال: كان الأمر على نحو مشابه. لا يمكنني أن أفسره بصورة مختلفة. لا يمكنني أن أفسر ما حدث بيننا، بين شخصين يبدوان من الوهلة الأولى بأن أحدهما لا يناسب الآخر على الإطلاق.

كانت الأيام الأخيرة من شهر سبتمبر. فترة الصيف المتقلبة. جلسنا عند طاولة في حديقة أحد المطاعم. كانت الطاولة مُعَدّة بشكل جيد. بدوتُ وقتها مثل سمكة الحبار، جسد كبير جامد متعدد الأطراف. نزلت ضيفًا غير متوقع، قام النادلون الماهرون بتوسعة مكان لي قبل أن ألاحظ أنهم لم ينتظروا قدومي. بدا بيتر مرتبكًا قليلًا، ولم يستطع للحظات أن يضع لنفسه حساءً في الطبق. كانت دوروتا تتحدث مثل عجلة مُسنَّنة كسرت أحد أسنانها. راح النادلون يلاطفوننا بطريقة هادئة، وسط صليل الملاعق وسكاكين الطعام. انطلقت الموسيقى - موسيقى عذبة تداعب الحلقوم كي ينزلق الطعام سهلًا إلى المعدة. قوارض أسماك السرطان تتصدع، وأطباق الحلوى تجلجل، والطاولات تصلصل، والناس ينهضون ويجلسون. وفجأة وسط كل تلك الحركة سيطر على كلينا وجوم وعتمة، بهدوء وتلقائية تشبه لحظة هبوط الليل. خفّت الأنوار، وهجعت الأصوات، وتضاءلت الطاولة، وتوقفت عجلات دوروتا عن الدوران. لمس بيتر يدي فجأة، ولم يكن الأمر من قبيل المصادفة. كانت لمسة تشبه

لطمة على زجاج واجهة عرض في متجر الجواهر.

ثعبان بحر كهربائي! كررت هذه العبارة على مسامعه مرة أخرى عندما ضاجعني في الكرم، في إحدى مزارع العنب القديمة قرب منطقة راتشا، حدث هذا بعد شهر من ذلك اللقاء. كانت كل الكروم فوق السفح في ذلك الوقت مهجورة تقريبًا ومهملة. حتى قام ملاكها بتقسيمها إلى مساحات أصغر وتحويلها إلى أرض للبناء. ونما الكرم من دون انتظار رعاية منهم، لكن شجيراته راحت تتضاءل عامًا بعد الآخر، ومالت عليها أشجار الكولا، وتساقطت على أرضها الأسلاك وتجذرت فيها.

خُضنا الحشائش العالية، وزحفنا وسط الأسلاك، وصعدنا درجة تلو الأخرى، درجات خطوط شجيرات العنب التي تفصلها عن بعضها حدود منحدرة، وأكوام من الأهداب الجافة المتراكمة، ونباتات الكرز والتوت. لم نتوقف إلا فوق التل عند الغابة، في غور بين صفين من شجيرات العنب. وطئنا الحشائش بأقدامنا، ثم بسطنا غطاءً. كان ذلك بعد الظهيرة. المدينة تنبح من تحتنا مثل كلب جائع. وأنا أفكر في أن حديقة ميلاتيتش توجد على يسارنا على بعد عدة مئات من الأمتار. راودتني الفكرة سريعًا، مجرد فكرة دارت برأسي ثم اختفت مثل حبة الثلج. تمامًا مثل رجل التقى بامرأة كان يرافقها يومًا ما في المدرسة الإعدادية، لا يتذكر حتى اسمها.

نزعنا ملابسنا في وضح النهار، في ضوء النهار الساطع. كنت أثق به. جلس فوق الغطاء، ووضع رأسه وسط عيدان زهور مسحوقة. ثم فتح عينيه ونظر إلى أعلى، خلف كتفي، وقال:

- يا إلهي! كل هذه الطيور! تطاير بالفعل سرب كامل من الطيور

فجأة من بين أشجار الكولا التي تطوق الكرم. دارت الطيور فوق الغابة للحظات، وكما انطلقت فجأة هبطت فجأة، واختفى صوتها.

وضع بيتر يده على نهدي مرة أخرى قبل أن ننصرف، الغطاء ملوث بالتراب، وملابسنا مجعدة، وكدمات ملونة على جانب فخذي من الداخل. قلت له: ثعبان كهربائي!

سكنت الأمراض في جسد إيرينا، باغتتها الشيخوخة والوهن بأسرع ممن هم في سنها. أفسد ذلك خططها، وقضى على ثقتها بنفسها. نساء غيرها في مثل عمرها يجلسن بين الجمهور في ككمبارس برامج التليفزيون، أو يتسكعن بخطوات قصيرة في المدينة، ويبحثن عن لحم بسعر رخيص. يثنين أقمصتهن وهن في الحافلة، فيرى كل سكان براتسلافا الندب المنتشرة فوق بطونهن الشفافة. لكن إيرينا لازمت الشقة. وخبأت نفسها وسط خطاياها، وتحت الغطاء. راحت تعاني وحدها، تفسر المكائد التي يحيكها العالم بأسره ضدها. لم تكن تتوقع شيخوخة سريعة تم اختصارها في بضع سنوات. لم يتقلص الألم رغم هذا الاختصار. لم يتحول إلى بضعة آلام صغيرة تافهة. تجمعت شتى الأمراض، ولم تدر أين وقع الخطأ، وهي من كانت دائمًا على علم بكل شيء. وفجأة صارت لا تعرف حتى اسمها.

رفضت مقعدًا للمعاقين. أَعتقد أنها كانت خائفة - وهي محقة - أن نتوقف بعدها عن رعايتها تمامًا؛ لأنها بذلك ستكون أكثر قدرة على الحركة، وعندها قد نقول لها:

- ها أنتِ تعتمدين على نفسك! فتولي أمر نفسك!

ربما كانت مخاوفها في محلها؛ خصوصًا أنها ستنزل إلى درجة أقل وهي فوق المقعد، ستكون أسفل مستوى الرؤية. وستضطر لرؤية الناس من أسفل، وتنظر في فتحات أنوفهم.

ستصبح مجرد صندوق خاوٍ يتحدث فوق عجلات المقعد. ربما كانت لتعيش عشرة أعوام أخرى فوق المقعد، وأعتقد أنها كانت ستتحمل الحياة مع لوتسيا أيضًا؛ لأن الأشرار يعيشون حياة مديدة. لكنها اختارت الحياة القصيرة، الحياة وهي واقفة على قدميها.

ماتت إيرينا. مرّ وقت طويل وأنا عاجزة على التأقلم في شقتنا الخاوية. كنا دائمًا من قبل نتشارك مع الآخرين المسكن؛ في بيت الطلبة، أو في غرفة خلفية في بيت سيدة متقاعدة عجزت عن دفع إيجار بيتها، أو فوق أريكة في صالون التجميل تملكه إحدى صديقات لوتسيا. كنت عندما أعود من المدرسة لا أجد أحدًا بالبيت. مقاعد خاوية، وسرير مبعثر، ورسالة فوق الطاولة أو لا شيء. جعلني ذلك أبالغ، وأترحّم على الأوقات التي عشتها قبل عام، عندما كانت إيرينا معنا. كانت إيرينا سيدة مزعجة، ومتكبرة، وقاسية. وجهها مربع، انتشرت فيه فجوات غائرة كأنها حفرت بفأس. لكن كان يكفي أن أغلق الباب كي لا أراها ولا أسمعها، فبعد الحادثة التي تعرضت لها صارت عاجزة عن النهوض بمفردها.

لم تكن لوتسيا تعمل كثيرًا؛ لأنها لم تكن مضطرة إلى دفع إيجار مرتفع، لذلك تبقى لدينا مزيد من النقود. كما أن إيرينا لم تكن عبئًا كبيرًا. فقد رفضت مشاركتنا الطعام. كانت ترفض أي طعام أقدمه لها أو تقدمه لها لوتسيا؛ لأنها كانت تعتقد أننا نود أن نضع لها سمًا فيه. كنت أقدم لها وجبات الغداء في وعاء محكم الغلق لحفظ الأطعمة. كانت تجلبه من مطعم المدرسة. من المطعم الذي كانت

تعمل فيه. كنت أساعدها كل ثلاثة أيام على الوصول إلى حوض الاستحمام، أو الذهاب إلى الطبيب من وقت لآخر. كانت لوتسيا تفعل كل ذلك بشكل آلي، بلا اكتراث، بل من أجل الشقة فقط. لا أفهم كيف استطعنا الحياة على هذا النحو.

لوتسيا. ناديني باسم لوتسيا، أنا لست امرأة عجوزًا. هكذا كانت تكرر على مسامعي. بدأنا بالتدريج نعيش معًا كشخصين منفصلين، أنا ولوتسيا.

كان عمري وقتها عشرة أو أحد عشر عامًا، وكنت قادرة على الاعتماد على نفسي وإدارة البيت بشكل كامل. تعلمت الكثير بعد موت إيرينا، خصوصًا الطبخ. كانت تخبرني بما يجب أن أشتريه كي أصنع رقائق محشوة على الغذاء. كنت أنفذ جميع تعليماتها. أذهب إليها وهي فوق السرير، أحمل ميزان المطبخ والعُلَب والأواني، فتقول:

- حسنًا،

أو:

- أضيفي ملعقة أخرى، وقلبيه مرة أخرى!

لكنها لم تكن تأكل أي شيء أطهوه. كانت تكتفي بوجبة الغداء من مطعم المدرسة. وتتناول على العشاء رغيف خبز مع اللبن. كانت تقطع الرغيف في الطبق بنفسها، وتصب عليه اللبن من

العلبة مباشرة. كانت تعلن بابتسامة المنتصر، أو أحيانًا بطريقة رشيقة؛ أنها أحبطت محاولاتنا لتسميمها.

أحيانًا كانت تمر ثلاثة أو أربعة أيام لا ألتقي فيها لوتسيا. لم أكن أتحمل البقاء في البيت في انتظارها، فهي لم تكن قادرة يومًا على أن تخبرني بموعد عودتها إلى البيت، وعندما كانت تخبرني لم تلتزم يومًا بما كانت تقوله. كنت أفضل التسكع خارج البيت، في الهواء الطلق. وعندما كانت لوتسيا تظهر في الشقة في أوقات كهذه؛ كانت تترك لي نقودًا فوق الطاولة تكفي ليوم أو ليومين. أخمن منها موعد عودتها إلى البيت. أحيانًا كانت تترك لي الطعام في حقيبة بلاستيكية مع رسالة قصيرة، مجرد جملة تخبرني أنها تريد شيئًا من المتجر أو من الصيدلية. كانت كثيرًا تغفل عن إخراج الطعام من حقيبة المشتريات، كانت تنسى، أو ربما تتكاسل. وعليّ بعدها أن أمسح الزبد الذائب، وآكل أرغفة خبز ملتصقة، وحبات خوخ فاسدة.

في أثناء الليل؛ كانت لوتسيا فجأة تنتبه، وتنهض من فوق المقعد، ثم ترتدي ملابسها، وتضع زينتها، أو أحيانًا تلقي فوق كتفها سترة طويلة محبوكة بها طوق تلفها به لتخفي قميص النوم من تحتها، وتغطي ثدييها اللذين خلا من حمالة الصدر، ثم تنطلق إلى الخارج. كنت أستلقي أمام التليفزيون أو أرقد في السرير فوق ظهري، وأضع يدي أسفل رأسي أتطلع إلى سقف الغرفة، وأحاول الاسترخاء والهدوء. كنت أحاول التفكير في المدرسة، أو فيما سأفعله في اليوم التالي، أو أحاول النوم. كانت كل تلك المحاولات والتركيز الشديد تنتهي بالفشل. كانت كل فكرة متصلة تقطعها أصوات قادمة من خلف الباب لتخبرني أن لوتسيا تمشي بحذر في أرجاء الشقة، من دون خف في قدمها وسط الظلام، تبحث عن سترة

أو مفتاح، وترتدي ملابسها، ثم تحمل حذاءها في يدها، ثم تغلق الباب وهي تدس رأسها بين كتفيها - كأن حركة كهذه يمكنها أن تخفض صوت ارتطام الباب - ثم توصده بالمفتاح.

كانت أحيانًا تترك مفتاحها الاحتياطي المكسور في فتحة الباب من الخارج كي لا أستطيع الخروج لمراقبتها. كانت تنزل فوق الدرج حافية كي لا يعرف الجيران أنها تهرب من الشقة مجددًا. كانت غالبًا لا تلبس حذاءها حتى بعد أن تبتعد عن البيت، ولا عند محطة القطارت أو في المتجر الليلي، ببساطة كانت تنسى. كانت تسير وهي تحمل الحذاء في يدها، وتتجاوز الأرض الموحلة، وأكوام القمامة بشكل عفوي. نسيت عدة مرات أن تغلق الباب خلفها، فكنت أراقبها. أقفز من ظل إلى ظل آخر كأنني في فيلم سينمائي، فقط كي أتأكد من أنها لا تفعل شيئًا معيبًا. كانت فقط تسير، وتضع قدمًا أمام الأخرى، كأن ذلك هو غايتها في الحياة، كأنها تنتظر تلك اللحظة طوال اليوم. تنتظر تلك المشية المرتبكة، تسير في صمت تحت أي ظروف حتى تسقط من الإعياء.

كانت ليالي طويلة وصعبة. تغرق الشقة في الصمت بعد خروجها؛ فأستدير على جنبي، وأسحب الغطاء المخملي فوق رأسي عسى أن يساعدني الظلام على النوم. وعندما أفشل أجلس فوق إفريز النافذة، أتطلع إلى الطريق ربما أرى قامتها المحنية أسفل معطفها الداكن الطويل الذي يلوح خلفها وكأنه راية حداد. كنت عندما أراها أنتظر كي أتأكد من أنها عبرت بوابة البيت. بعدها أعود إلى سريري وأستسلم للنوم على الفور بكل هدوء، حتى قبل أن تسحب لوتسيا مفتاحها المكسور من مغلاق الباب.

لم أكن أفهمها، لكن لم أغضب منها. كنت أخاف منها. لم أطلب منها أن تبقى في المنزل، وأن تكون معي كل مساء. لم ألمها

على أنها كانت تتركني وحيدة بالبيت. فلم أكن أعرف ما تفعله الأمهات الأخريات. لكني أقنعت نفسي بأن ذلك أمر طبيعي. لم يبق لدي سوى أن أتعايش مع الخوف والوحدة كأنهما جهاز صدمات كهربائية مُثبّت بجوار قلبي. كنت أتخيلها وهي تجلس بالبيت أيامًا وأشهرًا لا تتنفس، غارقة، ومقبورة في الظلام مثل حشرة السيكاد[3]. تشرب الخمر وتصب عليّ جام غضبها. كنت أعتقد أن ذلك احتمال ممكن أن يحدث.

كنت أحاول البقاء خارج البيت أطول وقت ممكن. فلم أكن أرى في البيت سوى غرف شبه فارغة، أحسب بخطواتي مساحة الشقة التي بدت دائمًا كأن محتوياتها قد سُرقت منها. لم تكن تلك الشقة الحزينة إلا لوتسيا نفسها. وجه مسروق، عالق وسط حالة تحول كبيرة، وعاجز عن العودة أو التقدم إلى الأمام، أو تفسير أو وصف ما يحدث. وجه عاجز عن الارتخاء أو النمو. حاولت أن أتفهم حالتها، أن أحبها، حاولت ألا أقف عائقًا في طريقها. حاولت أن أكون حملًا وديعًا بجوارها، يمكنها أن تمد لي يدها كي أساعدها وقتما تشاء.

كان الحديث معها أشبه بالحديث مع شخص في غرفة نائية، تفصله عن غرفتي حجرة كبيرة خاوية. كأن حائطين، وغرفًا، وفتحات، وخواءً يقف عائقًا بيننا. كان صوتها قادمًا من بعيد، يصل مكتومًا وغامضًا.

3- تسمى أحيانا حشرة الزّيز لأنها تصدر صوتا يشبه كلمة زيزأو زيز الحصاد. لكن اسمها باللاتينية هو السيكاد - المترجم

كان أحد البساتين ضمن ما ورثناه عن إيرينا. اكتشفنا في إعلان الوراثة أن إيرينا اشترت بعد الثورة ولأسباب غامضة بستانًا كان يستأجره المهاجر ميلاتيتش. إنه قطعة أرض في منطقة حدائق قديمة خلف محطة القطار. في البداية لم تهتم لوتسيا بالموضوع، لم تفكر حتى في الذهاب إلى هناك لرؤية المكان والتحقق من حالته، أو زراعته. لم يكن الأمر بالنسبة لها سوى مشكلة أخرى عليها أن تجد لها حلًا، عبء إضافي آخر لن تجني من ورائه أي منفعة حقيقية.

بعد وفاة إيرينا بعامين؛ بدأ مالك قطعة أرض مجاورة للبستان في الاتصال بلوتسيا. اقترح عليها أن يشتري البستان. كانت لوتسيا منزعجة من المشكلات التي توشك أن تبدأ. ولم تسمح للرجل بالدخول إلى الشقة. لكن عندما اتصل للمرة الثانية والثالثة، نهض شيطانها من مكمنة، وقالت لنفسها: بما أن جاري هذا مهتم بقطعة أرض تافهة كهذه؛ فلابد أن لها قيمة ما. نسخت خريطة الموقع التي أحضرها الرجل، وأعطتني كماشة وحزمة مفاتيح ورثتها عن إيرينا. وأرسلتني لتفقد الموقف.

ألقيت نظرة عابرة على البستان ولم أجد فيه شيئًا مميزًا، لكن لوتسيا قالت إنها لن تبيعه مهما كان ثمنه. بدأت منذ ذلك الوقت أعيش حياتي الثانية.

كان البيت الريفيّ، والبستان، والكرم المهجور جزءًا من عالم يختلف تمامًا عن الحي السكني، وساحة اللعب المُدمّرة، والأطفال الملولين. كانت مملكة خضراء ملكي أنا وحدي. منطقتي المستقلة المدللة والمفضلة. منطقة أحتاجها غذاءً لروحي البسيطة. كانت عرينًا لي، مكانًا وفر لي وقتها هدوءًا وشاعرية لم أشعر بها من قبل. كان هدوءًا حقيقيًا، في الداخل والخارج. شهيق عميق وزفير طويل. مع كل شهقة قوة، ومع كل زفرة تطهير. هدوء، وروائح. حشائش أعلى من قامتي. أفكار تراودني ولا يقطعها سوى القطط، والأرانب، وحيوان ابن عرس، وطيور، ومتسكعون يظهرون من وقت لآخر. جاءوا من شرق سلوفاكيا، وفي طريقهم إلى العاصمة؛ نزلوا في محطة قطارات فينوهرادي. أول شيء حصلوا عليه بيوت خشبية صغيرة وسط بساتين مهجورة.

لم يعتنِ أحد بالبستان على مدى أكثر من عشرين عامًا. أنا نفسي لم أَضع في الأرض بذرة واحدة، ورغم ذلك كان البستان خصبًا وكريمًا. كان جارنا يلقي فيه من خلف الجدار العازل أكوام الأعشاب النافقة، ربما كانت جذور زهور التوليب الميتة، وأغصان شجيرات الفراولة أو عصي من أشجار كرم سقطت في إحدى الحفر وقررت أن تواصل الحياة. نما بالقرب من الحائط كثير من النباتات المختلفة التي قررت أن تصارع معول التهذيب لتنمو وتزدهر. نمت هناك أنواع من الزبيب، وشجيرات عنب الثعلب المرقطة، غير مكتملة النمو. تساقطت منها الثمرات قبل اكتمال نضجها. ازدهرت شجيرات العليق، وزهور التوليب، والورود، والبنفسج، وفي الخريف زهور داليا. كانت أغصان العنب وزهور الياسمين تزحف أسفل السقف المعدني وهي عالقة فوق البراعم بعد أن كانت عالقة في

إفريز السقف. اهتزّت فوق إطار النافذة قطعتان معدنيتان من النقود عثرت عليهما بين خطوط السكة الحديد. كانتا بحجم كفي طفل. طرف إحداهما معوج وخشن. ثقبتهما بمسمار، ثم علقتهما في أحد الأسلاك، ورحت أنظر إليهما من خلف النافذة وهما ترتطمان ببعضهما في الهواء، فتصدران صليلًا وخشخشة عندما تشع الشمس عليهما.

كان سلك الكهرباء عالقًا فوق الأرض عند طرف متشعب لعصا خشبية، مثبتًا في قضيب أجوف فوق سور بستان جارنا. برزت وصلة الماء من بين الحشائش، وانتصبت مثل ثعبان الكبرا أمام البيت الريفيّ.

كنت أحافظ على الكوخ نظيفًا من الداخل دائمًا. أنظف غطاء الأرض البلاستيكي وما به من حفر بصورة منتظمة، أنفض التراب عن غطاء السرير أمام البيت الصغير. وأرتب السرير والمقعد، والرفين حيث امتلأ أحدهما عن آخره بالأواني، وفوق الثاني رُصّت أكواب ـ كأنها في معرض خزف من عصور مختلفة ـ متعددة الأشكال، وبقايا أطقم من كئوس لامعة، وأوانٍ، وعصي طهي خشبية، وأدوات طعام. غُطّيْت الثقوب الموجودة في كساء الحوائط الخشبية بالملصقات، ثم أصلحْت الأماكن التالفة بشريط لاصق، وقطع خشبية. عُلّقت خلف باب البيت بندقية صيد فارغة من الخرطوش، لا تصلح إلا لترهيب صبية مزعجين يتسلقون السور بحثًا عن شيء يسرقونه. وقف في أحد الأركان فرن صغير من حديد الزهر على ثلاثة أرجل. إنها قطعة أثاث لم أدرِ ما الغرض منها لوقت طويل، إلى أن تساقطت منها حفنات من الرماد. فوق الفرن بطارية جافة ثقيلة، وسكين صدأ طوله عشرة سنتيمترات وعلبة ثقاب، وبضعة مشاعل. كل تلك الأشياء كانت تحميني من

الشباب المنحرفين، والمشردين السكارى، والجوعى، واللصوص، والمتسولين، والمحتالين. فلم تكن الشمس تشرق بصورة منتظمة، وكانت الطيور تزقزق. كان المطر أحيانًا يدركني وأنا في الحديقة، أو يهبط الظلام، وتهب الرياح خارج البيت؛ فتزأر الأشجار، وتتساقط ثمرات التفاح النيئة على صفائح سقف البيت. كانت الفئران تعبث خلف الحوائط الخشبية. كنت وقتها مجرد طفل قادم من حي سكني بالمدينة، أكثر ما اعتاد عليه هو سماع صوت الماء المتساقط من ماسورة الصرف، يصل إلى أذني مخترقًا جميع طوابق البيت، أو سماع شجار الجيران، ووقع أقدام المارة في طرقات البيت.

من الواضح أن السيد ميلاتيتش حصل يومًا ما على كمية وافرة من الدهان الأزرق؛ فقام بطلاء كل ما وقعت عليه عيناه على مدار العام باللون الأزرق. كان شكل البيت الأزرق من الخارج بنوافذه البيضاء؛ يبدو كأنه سفينة بخارية تائهة وسط بحر من الحشائش. كان اللون الأزرق طاغيًا في الداخل أيضًا؛ المقاعد زرقاء والسرير، وسور الحديقة والأحجار التي تحد الممشى، وهو ممر نبتت فيه الحشائش. كانت الأحجار البيضاء تنتشر متلألئة وغائرة في فجوات في جميع أرجاء الحديقة وقد غسلتها الأمطار. كنت وقتها أؤمن بأنها تتحرك في الحديقة من تلقاء نفسها، تدفعها قوة خفية، قوة قادمة من الفضاء. فلم يكن هناك ما يدعو قوة بشرية أن تدفعها أمامها. كان ذلك أحد أسراري مع حديقتي.

على النقيض من تلك الأحجار: كانت تنتظرني عند عودتي إلى المدينة عمارة من خمسة طوابق، ليس بها مصعد. بُنِيَت من مربعات باهتة ونوافذ تلمع في إيقاع منتظم. كأن جميع سكان العمارة لديهم الذوق نفسه والمزاج نفسه، فكلهم تقريبًا يشاهدون الشيء نفسه، فيلم السهرة الذي يتحدث الجيران عنه لاحقًا من

خلف الأبواب، أو من خلف النوافذ المواربة.

كانت بعض شرفات البيوت مُغلّفَة بالزجاج، والبعض الآخر بالبلاستيك أو بألواح معدنية متعرجة عليها مزهريات وسجاجيد مبللة، تتساقط منها المياه على تلك المزهريات. توحي العمارة من بعيد بأن كل من يسكن في تلك العُلَب يعيش الحياة على طريقته الخاصة، منعزلًا عمّن حوله، لا يتشاجر ولا يتعامل مع غيره.

فوق الحديقة والعمارة توجد سماء واحدة بلونها القرنفلي، سماء صافية مترامية. بفضلها عرفت أني أعيش مرة واحدة، وأنه لا حدود بين الحديقة وبين شقتي، ولا بين حياتي وحياة الآخرين. بفضلها عرفت أن هذه الحياة لا يمكنني استرجاعها مثل فيلم على أسطوانة مدمجة.

كان طريق العودة من الكوخ إلى الحي السكني يستغرق خمس عشرة دقيقة، أو ربما عشرين دقيقة. كنت أفكر طوال الطريق في القط الميت الذي واريته التراب منذ قليل. وما أن رأيت عمارتنا حتى اختفت من ذاكرتي صورة القط المسكين.

عندما وصلت إلى باب العمارة لم أسمع سوى بضعة أصوات خافتة، وصوت الإعلانات، ونباح الكلاب، وصوت خلاط الطعام، وحوار بصوت عالٍ، حاولت أن أفهم فحواه. كانت الساعة نحو الثامنة. بدأت مسلسلات تدور أحداثها في المستشفيات. انطلق صوت سدادة من الفلين وحفيف سائل ما يسقط في الكأس. أسندت ظهري إلى الباب وأنا أضع يدي في جيبيّ، وضغطت عليه بكل وزني - مثل جميع أطفال العالم الذين يفعلون الأشياء العادية والبسيطة بطريقة معقدة - وبعد أن تحرك الباب الثقيل أدركت أني أقف وحدي تمامًا خارج البيت. لا أثر لأطفال تلهو. اختفى الصبية من العمارة المجاورة في مكان ما بعد أن كانوا يتسكعون في أرجاء الحي حتى في الظلام وفي أوقات المذاكرة. كنت آخر من يعود إلى البيت، أقف هناك بمفردي. لم يأت أحد ليأخذني إلى البيت، لم يودعني أحد. في الواقع أني لم أتحدث مع

أحد طوال اليوم. وفجأة شعرت بالوحدة. كان شعورًا عميقًا وباردًا. ذكرني ذلك بوعاء سحيق، كأني ذلك الوعاء. كنت ممتلئة بالوحدة. استدعى ذلك من ذاكرتي موقفًا حدث لي وأنا في الصف الأول، عندما ذهب كل من في الفصل في رحلة مدرسية إلى أكوابارك، وكنت الوحيدة من بينهم التي لم تذهب، وقتها قالت لي أمي بأنني يمكنني الاستحمام في حمام البيت.

رغم ذلك استطعت أن أجد في ذلك الموقف شيئًا إيجابيًا بكل سهولة. فكثير من الأطفال يستجدون آباءهم كي يسمحوا لهم بالبقاء خارج البيت حتى الثامنة على الأقل، يبكون ويصرخون، يسوقون حججًا غبية، وفي المقابل يحملون أكياس القمامة معهم للتخلص منها في الحاويات، أو يغسلون درجات السلم، أو يشترون لأبيهم بيرة من المتجر الليلي. يتصارعون مع والديهم في حرب صغيرة بكل إصرار ساخر ومُخجل. يقايضونهم ويبتزونهم، فهم يعرفون جيدًا كيف يؤثرون في أهاليهم المرهقة. يُولَدون بقدرة على تقدير مدى القوة التي يتمتع بها آباؤهم. كل هذا من أجل أن يستمتعوا ولو بقليل من ظلمة المدينة، أو على الأقل بما تسمح لهم به المصابيح ويافطات الإعلانات. فقط من أجل أن يجربوا الخوف في جماعة، مثنى أو فرادى. على الأقل لبضعة دقائق معدودة وهم عائدون إلى بيوتهم.

أما أنا؛ الطفلة الوحيدة في حديقة مظلمة خلف سياج من الأشجار تقع أعلى مدينة تعج بساكنيها، حصُلْت على كل ذلك مجانًا. لم أكن مضطرة إلى فعل أي شيء، أي شيء على الإطلاق. هل كان ذلك أمرًا جيدًا؟ أم سيئًا؟ أين ذهب كل هؤلاء الأطفال في ذلك المساء، بعد أن كانوا يركضون في الشوارع طوال النهار؟ ماذا فعل والداهما، وماذا فعلوا هم كي يحبسونهم في الشقق الساعة الثامنة، وفي

شهر أغسطس في وسط المدينة؟ كيف قضوا آخر أيام الإجازة؟ هل جلسوا هم أيضًا أمام التليفزيون، يعانون في كل مساء مثل والديهما في متابعة أحد الأفلام بعد أن تفضلا عليهم، وسمحا لهم بمتابعتها ـ لأنكم كنتم اليوم مطيعين، أفلام لا يفهمون منها شيئًا، وتستمر معهم في أحلامهم بعد أن يتقوقعوا في أسِرّتهم، يحاولون التفكير في شيء يحبونه؟ هل حدث لأحدهم أن اضطر يومًا إلى البقاء في دهليز البيت، يقف ساعة أو ساعتين قبل أن تنتهي لوتسيا من أمر لا يمكنها تأجيله، ولكي تنجزه تحتاج إلى هدوء وشقة خالية؟ وماذا عن الآباء؟ هل أحسوا بالراحة بعد أن انتهت ملاحقات الأطفال لبعضهم في الشقة وهم يحملون فرشاة الأسنان في أيديهم، هل أحسوا بالراحة بعد أن انصرف الأطفال أخيرًا إلى غرفتهم رغمًا عنهم، وبعد أن توقفوا عن إزعاج والديهم والإلحاح عليهم بأن يلتفتا إلى ما يقولونه أو يفعلونه؟ والداهم المتعبان من العمل، ومن حرارة الجو ومن حياتهما الطويلة التي عليهما أن يعيشاها، ومن الطقوس اليومية المتكررة. الطقوس التي تجعل حياة أطفالهم سعيدة، يشعرون معها بالأمن والطمأنينة. لكنهم يفسدون على أطفالهم حياتهم، يضعانهم فوق المقاعد كل مساء، بدلًا من أن يتركوهم يفعلون ما يحبونه. لكن هل ما زالوا يذكرون ما يحبونه أصلًا؟ أم أنهم يكررون آليًا حركات الأمس نفسها وقبل الأمس والعام الماضي؟ هل يفكرون في أنه قد يكون مفيدًا أن يقضوا مع أطفالهم ساعة أو ساعتين، وأن يستلقيا بجوارهم على السرير في الساعة السادسة صباحًا؟

كان يسكن في العمارة المقابلة في الطابق الثاني صبي اسمه كريستيان، يبلغ من العمر سبعة أعوام. كان يبدو دائمًا نظيفًا، مصفف الشعر، ويرتدي ملابس أنيقة. كانت عمته ترسل له الملابس من مدينة لندن. كان لديه كل ما يحتاجه في حقيبته

المدرسية. كان يجيد تحية الآخرين رغم أنه لم يكن يتمتع بذكاء غير عادي. كان مجتهدًا، يتابع دراسته باهتمام. كان الأطفال في المدرسة يحبونه، فلم يكن يتصادم مع أي منهم. وفجأة بدأ يوخز نفسه بالإبر، ويغرزها خلف أظافره. كانت أمه ترافقه عند الإخصائية النفسية بالمدرسة. أكثر ما عانى منه هو سخرية كل من في المدرسة منه بأنه مريض نفسيًا، ومجنون. كان ذلك يزعجه أكثر من عجزه على الإمساك بالقلم بين أصابعه.

ما الذي كان يفعله كريستيان في ذلك المساء بعد غروب الشمس؟ كان ذلك في شهر أغسطس والهواء ما زال دافئًا ولطيفًا. هل كان يجوب في شقتهم الكبيرة ذات الأربع غرف؟ كان نصيبه منها غرفة للأطفال، وكانت أمه تفضل استقبال الزيارات في غرفة خاصة، أطلقت عليها غرفة الصالون. هل اتخذ أبوه غرفة في الشقة، وجعلها مكتبًا له بحثًا عن ركن هادئ بالشقة؟ هل كان يجلس في حجرة أبيه قابعًا تحت الطاولة، يحاول ألا يلمس قدميه كي لا يزعجه؟ هل كان يجلس في ركن مظلم؛ حيث سمحا له بالجلوس هناك، يتخيل كيف سيكون الأمر لو حبس نفسه في غرفته وأغلق المصباح للحظات؟ فيشعل البطارية، ويضع كفه فوق زجاجها الساخن ليرى أصابعه وأظافره الحمراء التالفة وهي متوهجة. يتابع الظلال فوق الحائط أو فقط يقرأ الأحرف في بصيص الضوء؟

هل استلقى بجوار والدته في السرير؟ هل صارت أمه مهجعًا له، وصار نومه نومًا لها؟ فصار إيقاعها إيقاعًا لجسده؛ إذ لم يجد مهربًا أمام حبها واهتمامها به. اتحدت ذفراتها مع ذفراته ولم يتبق في شقتهم المزيد من الأكسجين. هل كان أكثر ما كان يهم والدة كريستيان هو أن تعرف من أين يأتي بتلك الدبابيس. أين يحتفظ بها وهو لا يملك غرفة خاصة في الشقة ولا حتى خزانة

بمفتاح يخبئ فيها أغراضه مثل باقي الأطفال؟ كيف استطاع أن يخدعها طوال الوقت وهي لا تفعل شيئًا كل يوم سوى التنظيف الدائم لشقتهم ذات المئة مترًا، وتعرف عدد ثنيات الستائر المخملية البيضاء الناصعة، وتعرف عدد الفجوات بين ألواح أرض الشقة الخشبية؟ كيف استطاع أن يخبئ علبة الثقاب والدبابيس التي سرقها من على لوحة المدرسة، ومعها حشرات جافة، ودائرة مُسطّحة لامعة حصل عليها من آلة حاسبة استبدلها ذات يوم بقميص اشتراه من لندن؟ سألتنا نحن زملاءه عدة مرات، وسألت أصدقاءه في الحي إن كنا نعرف شيئًا عن تلك الدبابيس، وأين يخبئها. ناشدت كل منا وهي باكية أن نحسن التعامل معه، وألا نزعجه كي لا يُفسِد جسده الصغير.

هل كل كريستيان يرقد في سريره وهو يدس أصابعه في شعر أمه المتشابك وأنا أقف عند بوابة البيت، وأدك المفتاح في فتحتها؟ هل اعتاد النوم بتلك الطريقة؟ أم تظاهر بأنه نائم لأنه لم يستطع النوم على وقع تنهدات أمه الثقيلة التي تشبه صرير الرياح القادمة من فجوة بين لوحين، لكنه عجز عن أن يقول لها:

- أمي! لم أعد في حاجة إليكِ! يمكنني الآن النوم بمفردي.

ربما انتظر أن يغشاها النوم قبله، ومد بعدها أصابعه بحذر تحت غطاء الحشية المتهتك، وأخرج من هناك علبة الثقاب.

أخبرني ذات يوم ونحن عائدين من المدرسة عن سره الكبير. كانت عيناه تلمعان من الإثارة. أكمام السترة التي يرتديها مدلاة، وتكاد تبلغ ركبتيه. نصحته همسًا بأن يصنع فتحة في الحشية أسفل طرفها، ويضع علبة الثقاب بين أسلاكها اللولبية. قدمت له النصح لأني كنت أعرف جيدًا أن الألم البدني يتغلب سريعًا على

الألم النفسي. كنت أعرف أن البحث بين الأسلاك من وقت لآخر يحدث نوعًا من التوازن.

كانت شقة مايا فوقنا بطابقين. كانت تذهب مع أبيها مرة أو مرتين في الأسبوع لصيد الأسماك. تستيقظ في الرابعة والنصف، وعند الخامسة تكون جالسة فوق مقعد قابل للطي عند الشاطئ، تتطلع إلى سطح الماء الساكن. كان الظلام ما زال قائمًا ومايا تخاف من الظلام. تخشى المشي بمفردها في دهاليز المدرسة الخاوية. كانت تخاف السيول ومن أشياء أخرى كثيرة. كان أبوها مُمَدّدًا في كيس النوم، وقد استرخت مفاصله من شرب الخمر. إنه أبوها الذي طالما تمنى أن يُرْزَق بولد. كان كل أمله أن يكون عنده ابن، ولد يحبه، له شعر بلون الرمال، ركبتاه مسحجتان. ولد يشتري له صنّارة صيد.

كان النعاس أحيانًا يغلب مايا في أثناء الحصة. كانت صامتة مثل السمكة، رائحتها نتنة مثلها. لم يرغب أحد في الجلوس بجوارها. كانت إن نسيت زيها الرياضيّ لا يعيرها أحد زيًا من عنده. أحيانًا كان أبوها أو أحد معارفهم ممن لم يثمل في أثناء رحلة الصيد يصطحبها إلى المدرسة. فتقوم بتغيير ملابسها في الحمام؛ ترتدي سروالها المموه، وقميصها الوردي الذي دسته لها أمها سرًا في حقيبة معتمة. لا تضع أية عطور ولا مساحيق تجميل. وبعد حصة الدراسة تغتسل مرة أخرى في الحمام وتتأهب للانصراف. بينما يكون أبوها قد وصل إلى البيت، وأيضًا الأسماك.. تطوف في ماء الدلو، تنتظر سكينًا طويلًا ونحيفًا تشق به مايا بطونها وتنظفها. بعد كان أبوها يثني عليها، وعلى قدرتها على وضع يدها كلها في جوف السمكة من دون أن تمزقها. كان ما تستخرجه من جوف الأسماك يشبه كعكة الجيلاتين المصنوعة

من أحشاء السمك. في المدخل المجاور لنا وفي الطابق نفسه، خلف جدار غرفة مايا كان يسكن وقتها توءمان في سن الثامنة تقريبًا، باتيو وماتيو. كانا إما حبيسين شقتهما أو يترددان في المساء بين البارات وأكشاك السجائر الموجودة في الحيّ، يبحثان عن والديهما. كانا يحملانهما مثل الكلاب. أحدهم قابع خلف معطف أمه، والآخر أسفل معطف أبيه. جسدان صغيران، نحيفان من سوء التغذية، لكنهما كلبان محبوبان. كان من المفترض أنهما في الصف الثاني مع كريستيان. لكن أمهما نسيت أن ترافقهما لتسجلهما في المدرسة؛ فتأخرا عنه عامًا. بعدها راح الجميع يتحدث عنهما بأنهما رسبا في الصف الأول.

حدث كثيرًا أن رأيتهما يتسللان مسرعين إلى غرفة مايا عبر النافذة وهما ينتعلان حذاء المدرسة. فقد أخفت أمهما الأحذية عنهما كي لا يذهبا وراءها. وكثيرًا ما كانت أقدامهما تنزلق من فوق الإفريز فيستعيدان توازنهما. كان ذلك طبيعيًا رغم جسديهما الضعيفين النحيلين مثل عيدان الحشائش. لم يكن أمامها خيار آخر. كنت أحبهما. أحبهما مثل حبي لجميع المخلوقات الصغيرة الضعيفة. كنت أساعدهما عن بعد، أدفعهما براحتي نحو الحائط العمودي، وأساعدهما على مواصلة السير والتقدم والتغلب على خوفهما من الأماكن المرتفعة ومن السقوط والموت فوق الخرسانة الصلبة.

كنت أشعر بالأسف عليهما. أحيانًا عندما كانت الرياح تهب وتصعب رؤيتهما وسط ظلال الأشجار المتأرجحة، يُخيّل لي أنهما يسقطان، ويتطايران عند النوافذ ويقعان فوق الأسفلت. يسقط أولهما بعد أن انزلقت قدمه، ثم يليه الآخر بعد أن أفلت يده من فوق السلك بعد أن تردد قليلًا. كأنه كان ينتظر أن يظهر الحبل الخفي،

ويشتد كي يساعده على التغلب على خوفه، فلا يخون شقيقه، ولا يتركه وحده فوق الإسفلت. كانا صغيرين للغاية، ولم يظهر لهما أي أثر فوق الرصيف. لكنهما كانا على الأقل اثنين، توءمًا. يستمد كل منهما قوته من الآخر. كنت أفكر فيما لو أنهما نفضا عن نفسيهما وحدتهما مثلما ينفضان التراب بعد سفر طويل؟ هل يدركان معنى أن يكونا متلازمين طوال الوقت؟ هل ينادي أحدهما على الآخر باسمه كما أفعل أنا مع أمي وجدتي، أم أنهما يقولان - أخي وتوءمي؟

لم يكن باب البيت موصدًا، بل مغلقًا كي لا يتأرجح. فكان يكفي دفعه، ثم الصعود درجات السلم حتى الطابق الثالث، الهرولة فوقها، واجتياز درجتين في خطوة واحدة قبل أن يظهر العفريت من قبو البيت. العفريت الذي يرهب الأطفال الكبار والصغار، تلاميذ المدارس الذين توقفوا عن الخوف من العفاريت. لكنهم لم يستطيعوا نسيان ذلك العفريت. فيصعدون بسرعة كل مساء فوق درجات السلم، ظهورهم متوترة من الخوف. وبسرعة يفتحون باب الشقة، أو يدقون الجرس لكي تفتح لهم أمهاتهم قبل أن ينطفئ النور تلقائيًا، فيعيشون لحظات من الرعب وسط ظلام الدهليز الطويل ورائحته العفنة، يتحسسون الحائط بأيديهم يبحثون على زر الكهرباء بكل لهفة. وعند الباب يكتشفون أنهم لا يعرفون في أيّ جيب من جيوبهم الكثيرة وضعوا مفتاح الشقة. أو يصابون بخيبة أمل ويكتشفون مثلي أن باب الشقة موصد بالمفتاح من الداخل. كان هذا يحدث لي كل يوم، وأستاء منه كل يوم، وتتساقط نفسي منه غمًا وأسفًا كل يوم. كان أمرًا مزعجًا وكريهًا، ورغم ذلك لم أشعر بأن ذلك شيء غير معتاد.

كان النور في الدهليز ينطفئ محدثًا طرقة بينما أحاول أن

أدفع المفتاح في الكالون لكي أسقط مفتاح لوتسيا منه. بعدها يسقط المفتاح العالق في الكالون على سِنَة واحدة فوق الأرض. يسود الهدوء بعد خشخشة المفتاح المعدني في الباب وأنا أحبس أنفاسي. كنت دائمًا حريصة على ألا يحدث ذلك، لكن الشيء نفس كان يحدث دائمًا، في كل مرة تقريبًا. سقط المفتاح على الأرض، وبعدها أسقِط في يدي. في البداية كنت أتحسس أرضية الدهليز وسط الظلام. وعندما يفتح أحدهم باب شقته في الطابق الأعلى، ويتحرك في الدهليز، أنهض مسرعة لأعثر على زر المصباح الذي أعرف مكانه عن ظهر قلب. أجلس بعدها فوق طاولة إيرينا الصغيرة التي كانت تضعها بجوار السرير، وأشرع بكل هوادة في فك أربطة حذائي الصيني ذي اللونين الأبيض والأسود. أسمع صوت شخصين يتحركان في الطابق العلوي، كل منهم يسير ببطء كأنهما لا يرفعان أقدامهما من على الأرض. لا أسمع سوى صوت أحذية أو ربما خفّ متواصل لا ينقطع، ينذر بسوء يقترب. شعور مخيف كنت أشعر به حتى وأنا في الخارج، في الشارع الذي خلا من المارة. تغلغل ذلك الشعور إلى نفسي أكثر، حتى وصل إلى معدتي إن جاز التعبير. رحت أقول لنفسي:

- فكري في شيء تحبينه!

لكن ما تبادر إلى ذهني من جديد هو ذلك القط الأسود الصغير. ظلت الخطوات تقترب، ثم رأيت أيادي تمسك سياج الدرج بتشنّج، حتى ظننت أن السياج واستقرار البيت بأكمله صار مرتبطًا بحركات ذلك الشخص. تعرفت إلى يدي جارنا النحيفة والضعيفة، يظن الإنسان عند النظر إليها أنه إن لمسها ستتكسر مثل ورقة جافة. كان هذا من دواعي ارتياحي، فقد استطعت تقدير مقدار قوتي وقوة ذلك الشخصين. كان رجلًا مدمنًا على الخمر يقارب

الستين بصحبة زوجته التي تشبهه في ضعفه وخلجات جسده، تتبعه على بعد خطوتين، كأنها أرادت بذلك أن تجد مأوى لها من تيار الهواء، وتوفّر على نفسها طاقة تحتاجها في خطوة مؤلمة قادمة.

كانا بالفعل ينتعلان خُفًا، كتلاً سوداء ينتعلانها في أقدامهما. انطفأ النور مرة أخرى بعد أن تحركا إلى الأمام بضعة سنتيمترات أخرى. تحول خوفي إلى غضب من لوتسيا. لو أنها تركت لي رسالة فوق الثلاجة، أو ضحت بثلاث كرونات واتصلت بي في الصباح قبل أن تغادر المنزل لكنت انتظرت هناك في الحديقة، أو عند المتجر الليلي، أو لتجولت بالحافلة في المدينة. لكن قدري أن أتعثر في دهليز ضيق بين مناضد صغيرة، وأتعرض للسقوط بين أحبال متشابكة. مشهد لم أكن في حاجة إليه. فكثيرًا ما التقيت جيراننا في الدهليز، وعرفوا مجددًا أني لا أستطيع الدخول إلى الشقة، وأن شيئًا ما حدث. في البداية كنت أختلق أسبابًا لا أساس لها، أتظاهر أني ذاهبة إلى القبو، أو أنظف الدهليز. ورغم أن ذاكرة كليهما أسفنجية إلا أنهما يعرفان أن أمي قد أوصدت باب الشقة لتحول دون دخولي. ربما لأن لديها رجلًا ما في الشقة، أو غشيها النوم، أو تريد ببساطة أن تكون في البيت وحدها. كانا يشعران نحوي بالأسف، كان كل منهما على المعاش المبكر. يقضيان أيامهما جالسين في البيت، يدخنان ويشربان الكحول عند نافذة مفتوحة. وعندما يرغبان في التغيير ينطلقان إلى الشارع، يتجولان في الحي. يمشي هو في المقدمة، وهي خلفه تسير على بعد خطوتين، تحمل في يدها حقيبة تساعدها على حفظ توازنها، وتشبع غريزة الأنوثة لديها. يسيران صامتين مثل عجلتين مزيتتين، يتوجهان نحو المتجر الليلي حيث يشتريان مشروبًا، ثم يسكبانه في جوفيهما كأنهما لم يشربا شيئًا طوال اليوم.

كانا أحيانًا يتشاجران همسًا، شجار يكاد يكون صامتًا. كانت المشاحنات لا تُرَى إلا على وجهيهما المتوترين، وحركات حادة في أطرافهما ورأسيهما. كانت المرأة تقبض على حقيبتها وتحاول أن تلحق بزوجها، تسير على إيقاع خطواته. تسير بخفة على خط مستقيم، تمامًا كما كانت تفعل يومًا ما وهي ذاهبة إلى عملها، وقت أن كانت قادرة على أن تقرر في أمورها وأمور الآخرين. كانت تنتبه كثيرًا إلى حركاتها حتى إنها أغفلت من حولها، فلم تكن تلقي التحية على أحد، ولا تنتبه إلى الطريق، بل تتتبع خطوات زوجها. بدا زوجها مثل حيوان عجوز مريض. عيناه الصغيرتان غارقتان في الدموع، بشرته تحمل ظل اللون الأبيض نفسه مثل شعره الأشيب. وفتحتا أنف تشتمان رائحة الإيثانول في الهواء، ويدان طويلتان ترتطمان بفخذيه. كنت أحب تلك المرأة كثيرًا، أعجبتني محاولتها الحفاظ على مظهرها جيدًا وأنيقًا. كانت تَظهر بكامل زينتها، تشتري فساتين ملونة تتعرض للتهتك وسط الأجمات في أثناء جولاتهما الليلية.

لم أرغب في الالتفات إليهما. استغللت لحظات الظلمة وتجاوزتهما في منطقة الميزان قبل أن يعثر الرجل على زر النور. مررت بجوارهما بخفة حتى إنهما لم يشعرا سوى بحفيف هواء خفيف عن يمينهما. جلست على الدرج الأخير، وأسندت رأسي فوق ركبتي، وغفوت قبل أن يسحب جيراننا أقدامهم مع على الدرج الأخير، ويمد الرجل يده على باب الخروج. عندما نهضت من غفوتي شعرت بالإرهاق وعدم الاتزان. عاد الظلام مرة أخرى يسيطر على الدهليز، وهواء بارد قادم من نافذة مُهشَّمة. راودني أمل أن يظهر خلف إطار النافذة الفارغ أي شخص يملأ بئر الوحدة القاتلة، أي شخص يعبر الطريق، أو يتجول في الفناء فوق الحشائش التي لمعت بندى سقط في أثناء الليل. شيء ما تحرك

خلف إحدى النوافذ المقابلة، لكنه كان مجرد ظل، أمنية أن أرى أحدهم وليس رجلًا حقيقيًا. فكرت في أن أنزل وأدق بقوة على أية نافذة من النوافذ الثلاث في البيت المقابل لو أنها أضاءت من جديد. لكن قبل أن أفعل رأيت باب إحدى الشقق في الطابق الثالث يُفْتَح بقوة، ويخرج منه أحدهم، ويهبط فوق درجات السلم من دون أن يشعل الضوء. إنه يتجاوز الدرجات بسلاسة من دون أن يتعثر فيها. كان هذا رجل يتردد علينا كثيرًا. سمعت لوتسيا وهي تؤمن الباب من الداخل بالسلسلة، كأنها تخشي أن يكون من ينتظر في الدهليز شخصًا آخر غيري.

نادتني متسائلة بصوت مكتوم:

- ياركا؟

إنها لوتسيا، قصيرة، تقف حانية ظهرها، ونحيفة لدرجة أنها قد تنسحق في فتحة الباب الموارب العالق في سلسلة التأمين. همست لي قائلة:

- تعالي!

ثم فكت السلسلة، فتدفق ضوء أزرق إلى الدهليز، مختلف عن الضوء المنتشر في الدهليز. قالت:

- هيا، تعالِي!

كأنها هى من تنتظر وليس العكس. لم تنس أن تقول لي:

اخلعي حذاءك!

ثم همست وهي في المطبخ، وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة اعتذار باردة:

شلابو ترك لكِ شيئًا هنا.

كانت تسعد عندما يفكر أصدقاؤها في ابنتها ليرضوا بذلك ضمائرهم.

إنه إذن شلابو. كان يتردد علينا كثيرًا في مثل تلك الأوقات. يأتي كل يومين، وغالبًا ما كان يبيت عندنا. استمر ذلك الأمر ثلاثة أشهر، ثم اختفى بعد أن عدل عن رأيه، ولم أره بعدها. بدأ يتردد علينا بعده رجل آخر. يتصرف كأنه ساعي بريد جديد. في البداية مرتبك، يدق خطأً على باب شقة أخرى. ثم بعدها بثلاثة أسابيع يصعد درجات السلم حتى في الظلام.

تبعثر على الطاولة بعض الملصقات، وصور لحيوانات لم أعد أهتم بها. لكني كنت أعرف أنه من الأفضل أن أخفي خيبة أملي كي أتجنب المواجهة مع لوتسيا. قلت لها:

- أبلغي شلابو شكري!

أزعجني هذا الأمر كثيرًا؛ فأنا لم أعد طفلًا. ما فائدة تلك الملصقات القمينة؟ هل أضعها على حافظة أقلامي كي يضربني بها أحدهم على رأسي في المدرسة فيما بعد؟ قلت لنفسي:

- بالله عليكي يا لوتسيا! كيف تفكرين بهذه الطريقة!

وهنا بدت لي لوتسيا كأنها صارت عجوزًا خَرِفة، تعيش في عصر ما قبل القرود بمئة عام.

كنت أرغب في تناول شيء ساخن، حليب، أو كاكاو، أو شاي. شيء أدفئ به جوفي، كوب ساخن أضعه فوق معدتي، وألفه بيدي. لكن برنامج ذلك اليوم كان يتكون من زبادي بارد، فرضيت به.

سألتني لوتسيا:

- ماذا تقولين؟

أجبتها:

- لا شيء.

حوار بسيط ومقتضب. لم تلق إحدانا ولو نظرة واحدة على الأخرى. كنت أقف متكئة إلى الخزانة، وألعق الزبادي. أجابتني لوتسيا:

- حسنًا!

أو شيئًا من هذا القبيل، ردًا محايدًا لا معنى له. تناولت طبقًا آخر من الزبادي، على أن أشتري غيره في الصباح. سقطت الولاعة على الأرض، فسألتني وهي تميل بجسدها للأمام، وبالكاد أسمع صوتها:

- ماذا حدث؟

كنت أعرف جملها البسيطة عن ظهر قلب. لم أكن أتوقع منها أي جديد. أجبتها:

- لا شيء!

لم تكن أي منا تحرص على إجراء الحوار، لذلك تواصل بمنتهى البطء. ترددت في أن أحكي لها عن ذلك القط. كان يمكنني أن أستطرد مع لوتسيا في الحديث عنه، ربما أرادت أن تسمع تلك الحكاية، وتستمع إليّ. لتعرف أني واريته التراب بنفسي، وأني لم أتركه وسط التراب عُرْضة للشمس، لتعرف أني لا أفكر في نفسي

فقط، وأنني لست مستهترة، وخالية من المشاعر كما تتهمني لوتسيا.

أخيرًا قلت لها وشفتاي محفوفة بالزبادي الأبيض:

- عثرت اليوم على قطّ ميت.

- أين؟

- أمام الحديقة؟

- هل ذهبتِ إلى هناك مرة أخرى؟

هكذا كانت الحال دائمًا. أنا في وادٍ وهي في وادٍ آخر. مستوى مختلف من الحوار.

- أليس من الأفضل أن تلعبي في فناء البيت؟

هَمّت، وفتحت صنبور الماء في كفها، وارتشفت الماء منها. كانت طولي تقريبًا، وبدونا كأننا شقيقتان. كانت كل منا مرهقة في ذلك المساء، مبللة بالعرق، تحافظ على مسافة كبيرة من الأخرى كأننا قطبان لمغناطيس ينفر أحدهما من الآخر، عاجزان عن الاقتراب. عجزنا عن تعديل أنفسنا على الجانب الصحيح، فأُصِبنا بالإرهاق.

- أنا تعبانة!

قالتها لاحقًا بنبرة مختلفة تمامًا، كأنها نسيت كُليًا موضوع القط، والحديقة، والحوار الذي بدأ، ومرّرت يدها بطريقة آليه على رأسي. كأنني فتاة صغيرة ما زالت طفلًا. ألقيت كوب الزبادي البلاستيك في السلة، وذهبت مسرعة إلى غرفتي. مثل الأطفال الصغار.

كانت غرفتي طويلة، وضيقة، أشعر فيها بالضيق. كانت الضوء القادم من النافذة الصغيرة عاجزًا عن الانتشار فيها بدرجة كافية. كانت تبدو كحجرة طبيعية لفتاة؛ حوائط وردية، ووسائد صغيرة، وأشياء تافهة مكونة من تعاويذ معلقة في حبال. نقلت لاحقًا جميع ألعابي تقريبًا، وجميع الصور إلى البيت الريفي. أخذ بعض أصدقاء لوتسيا بعضها لأولادهم، وبعضها الآخر تَدمّر. كانت لوتسيا تحب الغرفة وهي على تلك الحال، خالية. كانت تمتدحني، وتقول إن غرفتي مُرتّبة، وكل شيء في مكانه، خالٍ من التراب. لم يتبق في ذلك الوقت على الحائط الملوث بآثار المَلصقات سوى بضع قصاصات من الجرائد، وبقايا شريط لاصق يلمع.

خلعت سروالي، ألقيت به على المقعد، فسقط كوب الأقلام. أحدثت الأقلام المُبعثرة ضجيجًا لم يكن بالحجرة شبة الخاوية ما يخمده. ظللت واقفة للحظات وأنا أنظر ناحية الباب أنتظر أن تأتي لوتسيا، وتلقي على أقوالها المأثورة

- كفي عن افتعال المشكلات، أنا تعبانة!

عندما كنت أصغر من ذلك؛ كانت لوتسيا تعتقد أني لن أفهم مغزى كلمة مشكلات. لذلك كانت تقول:

- كوني طفلة صالحة وإلا فلن أحبك!

هذه الجملة يفهمها أي شخص. الصلاح، والحب. لذلك حاولت بشتى الطرق أن أكون فتاة صالحة. توقفت عن الشكوى، كنت أنصاع لجميع أوامرها، لم أكن أعترض على ما تقوله، لم أطلب منها شيئًا، أو ألِحّ أو أصرخ. كنت أسبح في بحر لوتسيا مثل سفينة صنعت من حبة بندق هائمة في الماء. أتجنب أي مواجهة معها، كأنني أتفادي الأحجار. أناور من حولها بهدوء وصبر، أتجاهلها

كأنني لا أراها، ولا أشعر بها. لم أكن أقاوم الصدام معها، لكني لم أفعل ما يستدعيه. كنت أخاف من أن تهجرني لوتسيا إن أفسدت شيئًا، ولا تعود من رحلة الإسراء اليومية. كنت واثقة من أنها قد تفعل هذا. تخيلت نفسي وأنا أقف عند النافذة أنتظر عودتها. أتخيل نفسي أقف عدة أيام أعاني الجوع وأتبول على نفسي. رغم ذلك لا أجرؤ على أن أبرح مكاني عند النافذة. ولو فعلت لفاتتني اللحظة التي أرى فيها معطف لوتسيا يرفرف في الهواء مثل راية السلام. ولن أتمكن من منعها لو أنها عدلت عن عودتها إلى البيت عند البوابة. كان ذلك يمكن أن يحدث في أي وقت، لذلك كنت أحيانًا أعيش لحظات من الرعب خوفًا من أفعل شيئًا يغضبها، وتحدث مشكلة من دون أن أدري. في تلك الليلة لم يكن هناك ما يدعو للخوف؛ لأن لوتسيا استسلمت للنوم. وما أن يغشاها النوم تصير جثة هامدة. اغتسلت، ثم ذهبت إلى السرير.

راودني حلم. مررت بأحد المسابح المزدحمة. تطايرت في الهواء أوراق صفراء متشابكة، ثم سقطت على سطح الماء. كانت تسبح فوقه مثل البط، تتهادى، وتدور حول نفسها. كان المسبح خاليًا. كان منتصف الصيف. ربما كان شهر سبتمبر والأطفال كلها مازالت في المدارس. كانت المياه ملوثة كأنهم لم ينظفوا الحمّام طوال الصيف، ولم يطهروا مياهه. وعلى الجانب المقابل للمسبح، بعيدًا عني، فوق مركب خشبي أزرق، داخل كابينة مربعة تشبه حديقة بيتنا الريفي إلى حد كبير يجلس بيتر وشقيقته دوروتا التي لم أكن أرها كثيرًا. شعرت وقتها بأنها قريبة مني. استحثني بيتر بصوت عال، وطلب مني ألا أخاف، وأن أقفز إلى الماء. لكنني كنت خائفة، وأشعر بالبرد. خرج بيتر من الكابينة، وراح يتأرجح فوق المركب المرتعش. أشار بيده التي يحمل فيها بطاقات ما، ثم صاح:

ـ اسبحي يا ياركا! ستكونين أفضل تحت الماء! هيا اغطسي في الماء يا ياركا! اسبحي وتعال عندي!

كانت عيناه تلمعان من السعادة، صدقته وقتها! صدقت عينيه وأنا في الثانية عشرة من عمري وحتى بعد ذلك بعشرين عامًا. كان جسد بيتر الكبير الضخم بمثابة يقين كنت في حاجة إليه كي أقفز في الماء، وأتكيف مع درجة حرارته التي وصلت حد التجمد. رحت أسبح ورأسي تحت الماء، أخذت نفسًا عميقًا، وأغلقت عيني من دون أن أفكر في عمق الماء، ولا في النفايات التي التصقت بذراعيّ؛ فأفسدت إيقاع السباحة. شعرت وأنا أغطس تحت الماء كأنني في زجاجة. لازمني ذلك الشعور فيما بعد، وبعد تلك الحادثة الحزينة. شعور بأني حبيسة إحدى الزجاجات، لا أخرج منها، يراقبني فيها الناس. هكذا كانت طفولتي كلها. واصلت السباحة. وفي لحظة معينة رأيت نفسي من أعلى، بعينين ورقة تتطاير في الهواء. رحت أراقب نفسي، وإيقاع يدي وقدميّ المنتظم. أراقب رأسي وهو يشق الماء بانسياب. أراقب شعري وهو يرتفع. تكسرت أشعة الشمس الشاحبة وضوء مصباحين كبيرين على سطح الماء، فشوهوا شكل جسدي. وكأنك تنظر إلى العالم من خلف كأس ممتلئة بالماء. من خلف زجاجة، أو من وراء الماء. رأيت بيتر وهو يلقي بالبطاقات في الماء، يلقي حفنة كبيرة من الأوراق البيضاء الصغيرة، كأنه ينثرها احتفاءً بي. كأنها عملات معدنية فضية يلقيها في نافورة المدينة وهو يردد في نفسه أمنية بالحب. إنها عملات فرانك سيناترا الثلاث. سبحت نحوه، تجاوزت حمام السباحة في نَفَس واحد، بنعومة ثعبان الماء. فلم أكن أفكر في تلك اللحظة إلا في ذلك الرجل. رجل واحد، رجل كبير وقوي، يمكنه أن يستمع إلي من دون شروط، ويجيبني عن جميع أسئلتي. مَنْ غير بيتر يمكن أن أفكر فيه؟ في لوتسيا التي تنام في النهار، وتنام حتى وهي تمشي؟

أفكر في الساحرة الشريرة إيرينا؟

واصلت السباحة وشعري قد انفصل عن بشرة رأسي. انفصلت في البداية عدة خصلات بسيطة، ومع كل حركة يتزايد عددها، تركتها خلفي كأنها حشائش مائية في مياه هائجة منتظمة. لم أشعر بها إلا عندما دخلت بين ثديَيّ. نهضت من تحت الماء. كان المسبح ممتلئًا بالشعر، لكني لم أفقد شعرة من رأسي. اختفى المركب، واختفى بيتر، ولم يخلف وراءه إلا وريقات التصقت بجسدي. التصقت بي مثل كل شيء قاله لي وقتها. وقت أن كان يهتم بي، وقت أن كان يعلمني ما كان على أمي أن تعلمني إياه. كان يعني لي الكثير، أكثر مما كنت قادرة على فهمه في ذلك الوقت، وأنا في الثانية عشرة من عمري.

استيقظت في صباح اليوم التالي على جوع شديد. لكن الثلاجة كانت فارغة. بعد أن أكلت كوبين الزبادي بالأمس لم تبق وسط أكواب بها بقايا الأطعمة المطبوخة سوى فجوة حزينة. فهمت من أول نظرة أن لوتسيا لم تذهب بعد إلى المتجر. وفهمت من النقود الموجودة فوق الطاولة أنها لن تذهب. رسالة مقتضبة كتبتها على قصاصة من علبة سجائر، لم أكن في حاجة إلى أن أقرأها. المشتريات. كان بإمكانها أن تكتب المزيد.

لو أنها فكرت قليلًا، لو أنها أرادت وكتبت بخطٍ أصغر لتمكنت أن نكتب حتى عشر كلمات على تلك الوريقة الشفافة. لكنها لم تجهد نفسها يومًا. لم تصنع مشكلات لا طائل منها. ياركا!

- لا أريد أن تتسببي في مشكلات لا طائل منها، ماشي؟

كان هذا هو نشيدها، وصفتها من أجل حياة هادئة. كانت من قبل ترسم لي أيقونة ضاحكة أو شيئًا مشابهًا يذوب في قطرة ماء. فيما بعد لم تكتب حتى علامة تعجب. ربما كانت غاضبة بسبب ذلك الضجيج، أو بسبب أمر كان عليّ أن أقوم به. لا أتذكر أني نسيت شيئًا.. دائمًا كان لدي ما أفعله. الغسيل، والقمامة، والواجبات المدرسية. كان هذا يصيبني بالارتباك، ويشعرني كالمجنونة. فلم

أستطع معرفة سبب ذلك البرود الذي كانت عليه.

صار الجوع شديدًا ومقيتًا، وبدأت معدتي تؤلمني. أخرجت من الثلاجة ومن الخزانات كل ما يمكن أكله، ورصصتها بجوار بعضها على طاولة المطبخ. مسطردة جافة، ومسحوق للطهي، وكيسين شاي مبللين، وقطعة مرق لحم. لا يمكنني أن أضعها كلها في إناء واحد حتى إن أردت أن أطهو غِراء. بحثت في جميع أرجاء الشقة؛ فلم أعثر على شيء صالح للطعام سوى بقايا خبز مدهونة بالزبد، وجدتها فوق نوتة ملاحظات ملوثة بالدهن بجوار السرير في غرفة لوتسيا. انتبهت إلى أن هذه الشقة مجرد قبو، ولا يمكننا أن نهبط إلى أقل من ذلك. إلى أقل من أن أحبو في الشقة على أربع، أبحث أسفل جهاز التدفئة ربما أجد هناك قطعة بسكويت منسية.

كانت الساعة قد بلغت منتصف الثامنة. فكرت أن أنهض لأرتدي ملابسي على مهل شديد، وأنظف أسناني بكل عناية، ثم أمشي بروية، من دون هرولة. بعدها سأصل إلى المتجر بعد أن يكون قد فتح أبوابه. لن أضطر إلى الانتظار أمام أبوابه الزجاجية الضخمة التي تعمل بالكهرباء، أتابع السيدات يضعن الخبز الطازج في سَلاتهن.

ارتديت الملابس نفسها التي كنت ألبسها في اليوم السابق، لم أفتح خزانة الملابس إلا لتضييع الوقت. كانت الخزانة شبه خاوية، في درج الجوارب لا يوجد سوى زوج وحيد ملفوف على نفسه، وسروال، وفانلتين، وسراويل داخلية متسخة. لا مجال للاختيار. تطلعت إلى نفسي في المرآة الموجودة في دهليز الشقة. كان السروال القصير متسخًا بعد أن لبسته على مدى أسبوعين كل يوم. لكن عندما مررت عليه قطعة قماش مبللة، ظهر السروال من خلف التراب، وصار صالحًا للبس لمدة أسبوع آخر. أما الفانلة فكانت

في حالة جيدة، كنت أحافظ عليها. لبستها لمدة ثلاثة أيام، ونمت بها مرتين كي تتخلص من رائحة الحشائش والأزهار الخضراء الصغيرة وتأخذ رائحتي. كانت سلة الغسيل ملقاة أمام المرآة، لم أتمكن من إغلاقها. ثلاثة أرباع الملابس في خزانتي وبعض الفانلات الرجالية تتدلى منها كما تتدلى عيدان المكرونة من الوعاء. مر أسبوع آخر من دون أن تغسل. كانت لوتسيا تعتقد أن الأشياء تصنع نفسها بنفسها، تشتري نفسها، تنزع الجلد عن نفسها، وتتجهز من تلقاء نفسها، وتغسل نفسها بنفسها. كانت تقول:

- غدًا، يوم الأربعاء، الشهر القادم.

الحقيقة أنني لم أغسل ملابسي بنفسي - وكنت قد قررت وقتها أنني لن أفعل، لشدة غضبي من غلقها الباب أمامي - وكان عليّ أن أرضى بما أعثر عليه في قاع سلة الملابس نفسها المصنوعة من الأملود.

كنت أقابل مجموعة من الصبية مختلفي الأعمار وأنا عائدة إلى البيت عبر الفناء. أخطو فوق حشائش صفراء مسحوقة. كان عمر أصغرهم سبع سنوات، كان اسمه كريستيان، يسكن في العمارة المجاورة. وكان أكبرهم سنًا أظنه في الخامسة عشرة. لكنني لم أكن أعرفه جيدًا، لأنه لم يكن من سكان المنطقة. لذلك كان شخصًا مشبوهًا. كان يبذل جهدًا كبيرًا في التحكم في قسمات وجهه. يحاول أن يبدو كشاب بالغ، وساخط. كان يمشي بخطىً واسعة، يمسك بالسيجارة بين الإبهام والسبابة، ويلسع أطراف أصابعه في كل لحظة. فلم يكن قد تدرب عليها بعد.

أما الصبية فكانوا مختلفين، ورغم ذلك متماثلين مثل كلاب

صغار من أم واحدة. كانوا حريصين على أن يبدو أحدهم مثل الآخر. فلا يقل أحدهم عن الآخر، ولا يكون أسوأ من غيره. حَنُوا جميعًا ظهورهم كأنه عرض لمرض معدٍ أصيبوا به جميعًا من سيجارة «مارلبورو» يتناقلونها بينهم. يبصقون لعابًا ثقيلًا ولزجًا. أيديهم غارقة في قيعان جيوبهم. كانوا يتفحصون صورهم سرًا كلّما مرّوا على زجاج في واجهة أحد المتاجر. يحنون بعدها ظهورهم أكثر فأكثر، ويرفعون أقدامهم على مهل. كانت الملابس التي يرتدونها والشكل الذي يظهرون به يشوه أجسادهم البنية الرائعة. سراويلهم ضيقة بصورة تثير السخرية، يرتدون معاطف تصدر حفيفًا، قذارة خلف أظافرهم، وعلى رءوسهم قبعات لاعبي البيسبول.

- مرحبًا ياركا!

ناداني أطولهم قامة، ثم رفع مقدمة قبعته، فرأيت في عينيه استخفاف مُصطنع. سألني:

- هل أجد معكِ سيجارة؟

توقفت، وأخفيت الكيس البلاستيكي خلف ظهري. أجبته بفتور:

- كلا!

أجبته بلا مبالاة، فلم أكن مضطرة إلى أن أستجيب لطلباتهم. لم أكن أهتم لأمرهم. بالتأكيد لم أكن مثل دوروتا التي لم تتحدث إلا عمن نظر منهم إليها، ومتى بصق تحت قدميها. كان هذا وقتها أمرًا جللًا. كان هذا بمثابة تحرش جسدي تقريبًا. لكنهم كانوا جميعًا بنفس الأخلاق. كانوا يتخيرون شخصًا ما، ثم يمُرون أمام عمارته، أو يصادقون شقيقته. لم يحاول هؤلاء الصبية أن يتحدثوا معي. كنت أعرف أنهم ضعفاء، وأنهم هم أيضًا يبكون. وسيبكون

حتى عندما يكبرون. وسيتوسلون أيضًا. سيسقطون على الأرض تضرعًا إن اقتضى الأمر ذلك.

ذهبت معهم عندما دعوني للذهاب. تسامرنا معًا، كنت ألهو معهم في منطقة القبو بالعمارات، أجلس كثيرًا معهم فوق مصطبة متهدمة في الاستاد. أدخن مثلهم عندما يقدمون لي السجائر. لكني بالطبع لم أكن لأحضر لهم سجائر من علبة لوتسيا. لم تكن علاقتي بهم تستدعي ذلك. لم أشعر برغبة في أن أكون واحدة منهم. لم تكن لدينا أسرار مشتركة. لم أبحث عنهم يومًا، وأيضًا لم أرفض دعوتهم لي. كل ما في الأمر أنني كنت اشعر بالملل، وكانوا هم أول من التقيت. لو كان في استطاعتي أن أقضي أيامي كما أتصورها أنا، لجلست عند بيتر في المطبخ، ولأرسلت دوروتا تجالس الفتيان، وأتفرغ لمتابعة بيتر وهو يطهو الطعام، ثم أجلس بجواره أتناول طعام الغداء هذا. فيتمنى لي طعامًا شهيًا، وهو ينظر في عينيّ. كان يكفيني ذلك تمامًا. قالت لي دوروتا عندما أخبرتها عن رغبتي تلك: أنتِ مجنونة!

طعام من يد بيتر، وحوار معه، وطاولة عليها فراش نظيف، إنها أشياء طبيعية اعتادَت عليها. كان الصبية كثيرًا ما يقولون لي: أنت مجنونة! لكنهم في الوقت نفسه كانوا يُكنّون لي كل احترام. يبدو هذا لي اليوم واضحًا من خلال مسافة وضعوها بيني وبينهم. كنت في الواقع الوحيدة تقريبًا التي اهتموا لأمرها. لذلك كانوا يزعجونني كلما استطاعوا. كانوا يطاردونني في الحي، يأخذون أشيائي. لكنهم كانوا دائمًا يعودون، وينتظرونني أمام مدخل البيت، يتقاسمون معي شطائرهم، ويصنعون لي اسطوانات مضغوطة. كانوا يفعلون ذلك بكل تحفظ كي لا أعرف تفاصيل نواياهم. كانوا من ناحية أخرى يستغلون حقيقة أني غالبًا ما كان

لدي نقود. كانوا يحسدونني على حريتي. إذ كان باستطاعتي أن أبقى خارج البيت حتى بعد الساعة العاشرة. في الوقت الذي كانوا فيه ينظفون أحذيتهم أمام المدخل عند الساعة الثامنة، ويمضغون أورق الصنوبر كي لا تفوح من أفواههم رائحة السجائر والكحول. كانوا يغبطونني على أني أقضي أوقاتًا كثيرة في البيت بمفردي، أفعل ما يحلو لي. كانت لوتسيا تشتري لي ملابس جيدة إلى حد كبير، ودائمًا ما كانت الملابس مهمة. كنت أعيش حلمهم كل يوم. لكن أمرهم لم يعنيني. أغبياء! لم أجد لهم وصفًا أفضل من هذا وقتها.

قال لي أكبرهم:

تعالي معنا عند المصطبة، سأريكِ شيئًا!

همس لي كريستيان:

- اسمه بيتر، لكننا نناديه بيبان.

بعدها اتجه ناحية الاستاد من دون أن ينتظر رأيًا أو موافقة الآخرين. قلت له:

- أنا جوعانة!

لم أقل أكثر من ذلك، لم أخبرهم أني في طريقي إلى المتجر، لكنهم بالتأكيد شعروا برائحة النقود. هزّ رأسه يخاطب كريستيان البالغ سبعة أعوام، ذا العينين الكبيرتين الهائبتين، ويحمل حقيبة على ظهره، وقال:

- كريستيان بالتأكيد معه شيء. أليس كذلك يا كريستيان؟

كان كريستيان واحدًا من هؤلاء الصبية - كان في الصف الثاني

ـ الذين يدورون في فلك الكبار، مستعدين لخدمتهم، وللتعلم منهم. أضاف قائلًا:

ـ كريستيان دائمًا يحتفظ في حقيبته بوجبة طعام.

ثم ضحك. كانوا صبية أغبياء، يخشون من أن يعترفوا أمام الآخرين أنهم يحسدونه على وجبته المغلّفة برائحتها الفواحة، وإلا لركلوه بعيدًا عند أول منعطف. كان كل واحد منهم يفكر في ذلك الأمر، مستغرقًا فيه في كل مرة يجدونه مختبئًا خلف غرفة التدفئة، يتراجع أمامهم خلف مجموعة من الصبية. كانت رائحة الطعام تخترق أنوفهم، رائحة الخبز والكعك وشرائح الطعام اللذيذة، وقطع الخبز بالمسطردة، وخبز بالسلامي مدهون بالزبد، ومفروش بحبات السمسم.

كانت ذلك من نصيبي يومها. لم يكن واضحًا في البداية ما فعلته لأستحق عليه ذلك الطعام، ماذا خطط بيبان ليكون مقابلًا على ما فعله. ذهبنا نحو المصطبة. في ذيل المسيرة كنت أنا وكريستيان الذي يقفز فوق الأرض، لكنه لم يتأخر عن المسيرة كثيرًا. أخرج شطيرة ملفوفة بعناية من الحقيبة، ومعها عود من الحلوى، وضعته له أمه ليكون مفاجأة له. عود آخر خبأه لوقت الحاجة في جيب سرواله. اعترف لي بالأمر من دون أن يقصد، لكن عيدان الحلوى لم تكن تعنيني. كانت شريحة الخبز كافية.

تسللنا من فتحة في الجدار. ثم انطلقنا فوق رصيف موسوم بخطوط بيضاء مطموسة، ثم مررنا أسفل أحد الأبواب المائلة، العالقة من مفصل وحيد، واجتزنا أطنان من القمامة، ومقاعد متهتكة، وأحجار متكسرة، دائمًا ما تعثرت فيها قدم أحدنا وتألم منها. كنا نتذوق طعم الخروج عن المألوف، والشعور بالانتماء

والأمان وسط الجمع. جلسنا فوق مقعد؛ حيث نرى بوضوح جزءًا كبيرًا من حي ديميتروفكا، وملعب الحي. خطوط بيضاء تطل علينا من وسط الحشائش مثل رسالة مكتوبة بالحليب، موضوعة فوق شمعة. صورة واضحة المعالم، وسهلة القراءة. كانوا يخبئون أسفل المقعد كئوسًا اجتزوها من زجاجات بلاستيكية، وقطعة من ورق الألمونيوم، وزجاجة نبيذ محليّ الصنع مغطاة بقطعة قماش متسخة وضعوها في فتحة صرف المياه أسفل الدرج. دعوني للشراب فشربت من دون تردد. شربت جرعة منها دفعة واحدة من دون أن أسعل. أعرف أن تصرفي ذلك رفعني في أعينهم إلى مقام أعلى. لم يكن الشراب حادًا، كان طعمه حامضيًا وعتيقًا نوعًا ما. لم يكن بالتأكيد من نوع الشراب الذي يدعو لتذوقه مرة أخرى. كانت سكرة خفيفة ولطيفة استمرت لبعض الوقت. تناوبوا جميعهم الشراب من بعدي، حتى ذلك الصغير بلل لسانه بالشراب خوفًا من أن يسخر من الآخرون لو رفض الشراب متأففًا. كانوا يعرفون أنه مشروب سيئ، شأنه شان كل شيء يشربونه في ظروف مماثلة، ويعرفون أن عليهم أن يقاوموا رغبتهم في التقيؤ كي لا يفسدوا الأمر.

بعدها أخرج أحدهم سجائر من جيبه، وراح يعرض على الآخرين بتردد كبير.

ـ أليس لديك سجائر أخرى؟ ربما غدًا. لكن يجب أن نتدبر شيئًا آخر، Love!

قالها أحدهم. قالها على مهل وهو يؤكد كل حرف في الكلمة كي يعرف الجميع عمّا يتحدث. كي يقرأ كل منهم ما بين السطور. فالأمر وقتها كان جَللًا. كان الأمر يتعلق ببضع جرعات من الماريجوانا التي تنبت في الأدغال عند أحد فروع نهر الدانوب

الراكدة، أو في الخزانة تحت ضوء مصباح النيون.

واصلت تناول الوجبة. شطيرتان رقيقتان كالورق، بينهما حشو من البيض يتدلى على طرفيهما. كان كريستيان الصغير يتطلع بحزن إلى طعامه الذي اختفى إلى الأبد، تغلب شعوره بأنه ساعدني على خوفه من الجوع. ساعد فتاة من جماعته، فتاة محترمة، معروفًا عنها أنها تتسكع في أثناء الليل في أرجاء الحي، لا ترتدي حمالة صدر لعينة، صلبة مثل الحجر. بل يرى خلف قميصها حبتين تموجان وهي تمشي مثل „البودنج" الذي تصنعه له أمه. كان ينظر إليّ بإعجاب. يتفحصني بدءًا من حذائي وساقيّ الذي انتشرت عليهما الخدوش، وركبتي المضمومتين، وفانلتي، ويديّ الملوثتين من حشو البيض، يتفحص خدي المحدب، وشعري المعقود بإهمال برابطة شعر، ويقف عاليًا فوق قمة رأسي. من المؤكد أنه رأى أحدهم وهو يسحب الكيس البلاستيكي الذي وضعته بجواري، وراح يعبث به وسط صياح الآخرين الذين أدركوا السبب الذي جعل كريستيان يضحي بطعامه. انتبهت إلى صياحهم. كان كريستيان في وضع لافت للنظر، لكنه لم يستطع فعل أي شيء. لم يتمكن من الربط بين التحسن المباغت في مزاج الفتيان الكبار وبين الكيس البلاستيكي الذي سقط وما به من بقايا طعام. رأيت قلة الحيلة وقد كست وجهه الناعم. اعتقدت أنه حزين على طعامه. ولكي يتغلب على ذلك الارتباك بدأ هو الآخر يتصرف مثل الباقين. وقف على الطاولة، وراح يجاهد ليضحك معهم بتردد واضح.

وقتها بدأت أفكر فيما أفعله. لماذا سمحت لهؤلاء الأغبياء الذين يقفزون حولي مثل القرود، ويصرخون في أذني أن يستدرجوني إلى هنا. لماذا لا أقول لهم:

- انصرفوا بعيدًا واتركوني بمفردي!

أسير وحدي، هادئة وغارقة في أفكار شاذة، لكنها أفكار واضحة. ربما أشعر بالضجر والجوع، لكني راضية. ليس لدي سجائر، لكن سأعطيكم نقودًا على أي حال. لا تستحق هذه الجرعة كل هذا. لست في حاجة إلى هذا العبث. ربما يستحق لو أني أعجبت بأحدهم على الأقل. لكن ذلك لم يحدث. لا شيء. قلت لنفسي إن كريستيان الصغير قد يكون له يومًا جسد ممشوق جميل لو أن أمه اهتمت به قليلًا، لو أنها توقفت عن حشوه بالطعام. أما الآخرون فأمرهم واضح. سينالون شهادة مهنية، وينكحون زميلاتهم، ويقضون حياتهم في تناول الخمور. أو ربما سيرحلون إلى أيرلندا للبحث عن عمل، ويفعلون الشيء نفسه بعد عودتهم. على الأقل لن يعيشوا مع والديهم وأطفالهم في شقة واحدة، فالنقود التي سيحصلون عليها من أيرلندا ستكفي لشراء شقة صغيرة. لم أفكر وقتها في نفسي، ولا أين سأكون.

انتهت تلك الكوميديا على يد زعيمهم الكبير بيبان الذي انتفض من فوق الطاولة، وألقى بالسيجارة قبل أن يكملها - على الفور التقطهما أحدهم - ثم وقف خلفي، وقبل أن أنتبه إلى أن الأجواء قد تغيرت قليلًا، قبض على ثديّ بقوة بكلتا يديه.

صرخت فيه بفمي الممتلئ بالطعام:

- حيوان!

وتطاير في الهواء فتات الطعام، وقطع البيض. واصل بيبان ضحكاته المجنونة، وراح يقفز فوق الطاولات، لكنها كانت ضحكات مترددة من فم موارب، كأنه أدرك فجأة أنه تجاوز حدوده. فلم أكن دوروتا التي تحمرّ خجلًا، وتلزم الصمت، ولا تعرف سوى أن ترد بابتسامة غبية أو تبكي. من المؤكد أنه أيقن

أني لا أطيق مثل هذه السخافات، ولن أسمح له بها. ولكي يتجاوز فعلته راح يقفز بين الآخرين وسط ضحكاتهم الصاخبة، ثم أدخل إصبع الوسطي لإحدى يديه في دائرة صنعها من إبهام وسبابة يده الأخرى. استفزني المشهد، تمامًا كما حدث عندما مد أحد أصدقاء لوتسيا يده الكبيرة المُعرّقة على ثديَ وأنا أدفن نفسي وسط اللحاف، وأدعو أن تنشقّ الأرض وتبلعني في جوفها.

لم أصرخ في البيت وقتها، ولم أشكو. تحملت تلك الدقائق القليلة في صمت؛ لأن الأمر لم يتجاوز بضع دقائق، لا تتجاوز وقت النزول على الدرج من الطابق الثالث، وتدخين سيجارة في الهواء الطلق ثم الصعود، هكذا كان يفعل. كان يقول للوتسيا إنه ذاهب لإشعال سيجارة، وإنه يحب تدخين السجائر في الهواء الطلق. فيرتدي حذاءه، ويصفع الباب خلفه، ثم يتسلل على أطراف أصابعه إلى حجرتي. لم أكن أرغب في افتعال مشكلات، لم أرغب في إزعاج لوتسيا، لذلك التزمت الصمت. لم يكن ذلك يحدث كثيرًا. مرة أو مرتين في الشهر كلما واتته الفرصة، أو ربما فعلها أكثر من ذلك وأنا مستغرقة في النوم، لا أعرف. لم يفعل شيئًا آخر، كان فقط يمسك بثديّ أو ببطني أو أسفل بطني. لم يطلب مني شيئًا. كل ما كان يحتاجه هو أن أرقد في صمت، وأضع في فمه إصبع أو إصبعين. لم يكن ذلك يؤلمني، ولم تنتابني أية مشاعر وقتها. فقط أحيانًا كنت أنزعج من الحر، ومن الرائحة الكريهة أسفل اللحاف. كان الأمر يبدو أحيانًا مثير للضحك، وأحيانًا كنت أخاف. اعتدت الأمر بمرور الوقت. تعلمت أن أتجاهل ما يحدث، وأنفصل بجسدي عن العالم. أحيانًا كنت أعتقد أن ما يحدث أمر عادي؛ لأن أحدًا لم يخبرني يومًا أن الأمر ليس كذلك. لكن ذلك الفتي الأخرق أهانني كثيرًا، هكذا شعرت بالموقف. أهانني أمام الآخرين، في وضح النهار، في الشارع. أزعجني أني انسقت وراءه، أني سعيت وراء

وجبة كريستيان اللعينة.

رأيت في تلك اللحظة الصبية بوجوه شوهتها الضحكات، رأيت كريستيان المضطرب يقبض على عنق حقيبته. رأيت أشعة ضوء تتساقط عبر زجاجات تتطاير في الهواء، لكنني لم أسمع أية صوت، أو ضحكات أو طرق أحذية على المقاعد، أو صوت ارتطام الزجاجات البلاستيكية وهي تسقط على الأسفلت. لقد انفصلت عن العالم. وفجأة وكأن أحدهم قد ضغط على الزر، بدأت أسمع الأصوات، وامتلأت أذني بالضحكات، ضحكات عالية مصطنعة، وجافة، وسوداء مثل الفحم. ضحكات مفتعلة قادمة من حلوقهم في لحظة ضعف. انتفض جسدي، وألقيت الشطيرة قبل أن أكملها . بينما كريستيان يتابعها وهي تسقط، وتنتهي نهاية حزينة في فجوة بين الطوب المتكسر. ثم أمسكت بقطعة خشب اجتُزَّت من جسد الطاولة، ورفعتها بكل قوتي. أدهشني مدى القوة التي امتلكها لحظة الغضب. غرق بيبان في دمه بعد أن فتق مسمار معقوف شحمة أذنه.

نهض الصبي واستفاق، وبدأ يدرك ما حدث له. سقط عن وجهه قناع الثقة بالنفس، واتخذ شكله الطبيعي لطفل خائف يتلعثم، وأنا أقفز فوق المقاعد وعلى الدرج، وأهرول فوق الحشائش. اختفت الخطوط من جديد، وصار الاستاد الرياضيّ مجرد مرج عادي. ثم وصلت إلى الطريق الرئيسي عبر ممر ضيق بين العمارات. قفزت في حافلة تستعد للانطلاق، ونزلت منها بعد محطة واحدة. كانت دقات قلبي تصيح مثل جرس كبير وتعلو، حتى سمعت رنينها في منامي.

غبي، مجنون، متخلّف. رحت أردد في نفسي مختلف الشتائم التي أسمعها في بيتنا.

- نذل! حثالة! أبله! تافه! متخلف عقليًا، ابن زانية! أحمق!

تخيلته يجلس هناك وسط القمامة، وشعره غارق في دماءه، يجلس وحيدًا، حيث انفض أصدقاؤه من حوله بعد أن أصابهم الفزع. كنت أعرف أنه لم يَمُت، فعندما صوّبت نحو رأسه لم أحسب حسابًا لشحمة أذنه البارزة، ولم أكن أنوي قتله، أو أن أُحدِث له عاهة مستديمة. كان في استطاعتي أن أضربه مئة مرة، وأركله، ثم أضربه من جديد. مرة بعد مرة. لكنني لم أفعل. لا طائل من ذلك.

تأكدت وأنا أهرول فوق أرض الاستاد أنه يقف على قدميه. لم أشعر تجاهه بأي أسف. كان يجب أن أوسعه ضربًا. فكرت في أن أعود، وأقلبه على جانبه الآخر بلوح الخشب.

بثّ هدير المحرك في نفسي السكون، تمامًا مثل نهر وقف حائلًا بين ما حدث، وما سيحدث. تمنيت أن أغسل يدي ووجهي.

اكتشفت وأنا عند خزينة المتجر أنهم سرقوا كل ما لديّ من نقود، وأنا أقف وأحمل سلة مليئة بالمشتريات. كانت البائعة تعرفني؛ فأخذت رقائق البسكويت والزبد واللانشون من السلة، وتركتني أنصرف ومعي ثلاث قطع من الخبز. دسست اثنتين منها في فمي، وتركت الثالثة لوقت لاحق. تذكرت أن لديّ في الكوخ بعض الطعام المطبوخ أو علبة تونة محفوظة. شعرت برغبة في الذهاب إلى المدرسة حيث بطاقات التغذية. على الأقل سأتناول وجبة طبيعية مرة في اليوم.

لم تكن لوتسيا تأكل شيئًا تقريبًا. لم تشعر برغبة في الطعام، لم يكن ذلك الأمر يهمها كثيرًا. كان كل الطعام بالنسبة لها سيّان. سواء كان فشار، أو شرائح لحم. كانت تلقي الطعام في جوفها كأنه رمال تلقيها في خلاط. كانت نادرًا ما تطبخ، وإن طبخت تستغرق وقتًا طويلًا، ونادرًا ما تكمل طهي وجبة ما مرة واحدة. أحيانًا كانت تطهو نوعًا واحدًا من الطعام على عدة أيام. لم تكن تطيق انتظار الماء حتى يغلي. لم تكن تطيق انتظار البطاطس الساخنة كي تبرد. كانت دائمًا ما كانت تضطر إلى مغادرة البيت، وترك

الطعام من دون أن تنهى طهيه. لذلك كنا نأكل بشكل عشوائي. نأكل شرائح اللحم مع الخبز، المكرونة الأسباجتي مع الخيار المخلل. كنت آكل كل شيء حتى آخره، أكشط بقايا الطعام من وعاء منسي في الثلاجة. اعتدت تناول معجون الطماطم الرهيب، فهو رخيص. وسيلة قوية للحماية من كل طعام فاسد تقريبًا.

كانت لوتسيا تُكمل معدتها بالماء. كانت تشرب كثيرًا من الماء. لم تكن تشربه من الكأس، بل كانت ترتشفه مباشرة من الصنبور وهي ممسكة بشعرها خلف أذنها كي لا يتبلل. كانت دائمًا تطلب مني، وتقول:

- خذي شيئًا من الثلاجة! اطهي مكرونة إسباجتي، وضعي عليها شيئًا من الطعام المحفوظ، فأنت تجيدين الطبخ أفضل مني على أية حال! أو اذهبي إلى المتجر الليلي، واشتري لنفسك شطيرة! في إمكانك أن تفعلي! فأنت تحبين الشطائر!

لكن الشطائر الباردة المغلفة التي تطل من وسط غطاء بلاستيكي كانت تقف في حلقي؛ خصوصًا عندما لا أجد في المتجر سوى نوع واحد وحيد. كنت أكره المكرونة الإسباجتي، وشطائر الجبن الذي يبيعونها في أكشاك محطة القطارات والأرز نصف الجاهز المعبأ في أكياس.

رغم كل تلك الذكريات الحزينة من مطبخ بيتنا أحتفظ بعلاقة طيبة مع الشطائر الجاهزة التي تباع في محطات البنزين، وأيضًا المكرونة الإسباجتي. قال لي زوجي السابق ذات مرة إنه يكره العمل في محطة البنزين، ويتناولن بدلًا من وجبة إفطار طبيعية السيدات المتزوجات اللواتي يتوقفن كل صباح وهن ذاهبات إلى شطيرة باردة، وقهوة من جهاز المشروبات. كنت أفعل هذا أنا

أيضًا قبل أن أتزوج. ثم اقتنعت لاحقًا أن الشطائر والزواج لا يمكن أن يجتمعا.

ليت البائعة تركت لي رقائق البسكويت كي أحظى بفطور أفضل، كي أقطع ذكرى تلح عليّ ليد الرجل الملوثة بالدهون وأنساها بشيء حلو الطعم!

كان الطريق إلى منطقة الكروم والحدائق يتلوي بين البيوت ذات الطابق الواحد، والحدائق الصغيرة بمجازاة خط الترام. اجتزت ثلاثة معابر للمشاة مجهزة بإشارات مرور ضوئية، ومررت بمحطة القطارات عبر جسر حديدي. كان أمام محطة القطارات كشك لبيع الجرائد مغلف بالمجلات. كنت أمسك في يدي بقوة برغيف خبز، أتطلع إلى الأغلفة، وأنا أحلم بأني أتناول الرغيف في الكوخ الصغير مع بعض المربيّ التي من المؤكد أنها مخبأة في «كان» ما فوق أحد الأرفف. كانت أغلفة المجلات باهتة وملتوية. كل غلاف يعلو الآخر، وتطل منها عناوين تنتهي بجمل لا معنى لها. تنطلق من بين صفين من المجلات سهام من عيني البائعة التي كانت على قناعة بأني أخطط لسرقة شيء ما. هكذا اعتقدت السيدة وهي تزيح نافذة صغيرة تسمح لها بتمرير مجلة واحدة مطوية عبر فتحتها. نظرت في عينيها عبر ذلك الثقب الصغير؛ فرأيت فيها شيئًا ما يذكرني بإيرينا. شيئًا من المؤكد أني لا أحبه.

فضلت الانصراف، والدخول عبر درج حاد إلى دهليز محطة القطارات. دهليز طويل، مشوه من أرضيته وحتى سقفه برسوم جرافيتي. تتدلى فوق مدخله كاميرا مراقبة معطوبة، ومتهتكة الأسلاك. كان باب الحمام الذي أردت دخوله موصدًا. صعدت

إلى أعلى فوق بضع درجات حتى وصلت إلى رصيف المحطة، ثم جلست على أحد المقاعد.

تذكرت في تلك اللحظة الورقة الصغيرة التي رأيتها أسفل خبز جاف في حجرة لوتسيا فوق طاولة بجوار سريرها. كتبت عليها لوتسيا بخط يديها مواعيد انصراف القطارات. تعجبت، كيف أن قدامي تسبقان ذاكرتي، وتقتاداني بهوادة إلى محطة القطارات! أحيانًا تتصرف الأقدام من تلقاء نفسها، تسير فوق الأرصفة وفي الطرقات، تعبر فوق الحشاش، ولا يملك الإنسان إلا مراقبة آثارها. ولا يعرف ماذا يصنع معها، ولا كيف يتواصل معها.

فجأة رأيت وجه لوتسيا بصورة مشوشة، رأيته منعكسًا على نافذة قطار يتحرك. ربما كانت ذاهبة إلى مكان ما قريب، إلى مدينة يورو، أو إلى مدينة مودرا. ربما سأراها هناك وهي تغادر القطار أو تصعد إليه. أو أرى فقط وجهها خلف النافذة. لن يختلف الأمر كثيرًا. لست مضطرة إلى أن أتحدث معها، أريد فقط أن أعرف أين هي، وأنها بخير. إن كنت أنا بدأت يومي بشكل غير موفق، فبالتأكيد أنها نالت حظها هى الأخرى من سوء الحظ. تمنيت أن يكون الأمر كذلك كي لا ينقطع الاتصال بيننا.

تخيلت نفسي أجلس معها في القطار، ركبتي ملاصقة لركبتها، ونتحادث معًا. نجلس متجاورتين، متجهتين لقضاء عطلة معًا. في رحلة إلى مدينة تشيرني كامن، أو للسباحة في إحدى البحيرات - كان الجو ما زال باردًا، وما زالت هناك فرصة للسباحة. أسند رأسي إلى كتف لوتسيا، وشعري وشعرها يتشابكان. أضع في حجري قطعة حلوى لم أنتهِ من تناولها بعد، بينما لوتسيا تغفو وهي تهذي ببعض الكلمات بشكل متواصل. كلمتان أو ثلاث كلمات تتلوها وقفة. حلم قصير. كلمتان أو ثلاث كلمات، يتبعها صمت، ثم

شهيق. تختلط صلصلة عجلات القطار مع دندنة لوتسيا الرخيمة المترددة. شيء سحري في تلك الأصوات يدعو إلى الاسترخاء. كانت مثل نبوءة عما سيحدث في الأيام المقبلة.

استفقت على صوت قطارين لنقل البضائع يمرقان سريعًا من حولي، ويهدران بصوت عالٍ جعلني أضع يدي فوق أذني، وأغلق عينيّ. خلّفا وراءهما رائحة غريبة في الهواء فوق القضبان فحرّكت وجوه المسافرين الناعسين. جاءت ثلاثة قطارات ركاب عادية، وواحد سريع، ولم تنزل لوتسيا من أحدها. لم أرها على الرصيف ولا حتى عند بوفيه المحطة. كدت أنادي على إحدى السيدات في صالة الانتظار - كانت تبدو مثل لوتسيا من الخلف - تقدمت منها بكل سعادة، وأردت أن أخبئ عينيها بكفيّ، لكن الفتاة التفتت في الوقت المناسب.

أدهشتني السعادة التي شعرت بها عند رؤية جسم شخص أعرفه. ربما كان السبب هو ذلك الهواء، أو الأجواء المتشنجة في المحطة، وهدير القطارات، والحقائب المتراكمة في جميع أركان صالة الانتظار. ربما كنت في حاجة إلى أن أتخلص من آثار الشقة الكئيبة، أن أفكر فيها في أجواء مختلفة عن العادة - أنا مرهقة، لا تنسي، لا تصرخي بهذه الطريقة، لا تصرخي، لا تصرخي! حاولت أن أجد لها عذرًا، أقارن، وأبحث عن سبب، أو تفسير. كانت صورتها تبدو لي دائمًا مثل جسم كونيّ بعيد سيسقط يومًا، ويختفي خلف السحاب. ثم يظهر مجددًا، ويبسط نفوذه على حياتي. كان وجهها عالقًا فوق رأسي، وأنا لا أفعل سوى متابعة مَدّ وجذر يتناوبان. أنخفض وأرتفع معهما.

كنت أقارن بينها وبين بيتر الذي اعتبرته تجسيدًا للحب والأمان. كانت أمامه مجرد كومة متشابكة من الجوارب ملقاة على الأريكة.

لكن عندما أقارنها بوالد مايكا، أو أم كريستيان، أو بوالديّ التوءم، أو بأسرة أيٍّ من الأطفال في الحي لا أجد عليها لائمة. من المؤكد أن في حياتها نقاط مضيئة، ربما، عندما تكون مع أصدقائها، أو عندما تسجل مواعيد مغادرة القطارات، أو تجلس مع صديقاتها في المقهى. ربما في أثناء النهار وشعرها غارق في ضوء الشمس، أو ربما في أثناء الليل وأنا هائمة في الشوارع. فأنا لم أكن معها في أي من تلك المواقف. لم تأخذني معها يومًا كي لا أكون عقبة في طريقها. ربما كانت بذلك تحميني كما كانت تقول. وجودي في البيت وحدي هو أمان لي بالتأكيد!

عدت إلى الشارع، وتوجهت نحو كشك الجرائد. كان الكشك، علبة الصفيح، مغلقًا. أسدلت فوق نافذته الصغيرة شبكة، وورقة كتبت فيها الساحرة الشريرة أنها ستعود بعد قليل. رحت أتفحص الجانب الآخر للكشك. لم أرغب في الانصراف، لم يكن هنا ما يدعوني للعجلة. ربما أن لوتسيا جاءت بوسيلة مواصلات أخرى. وسيلة ما. حزنت لأنني لم أقرأ الأرقام على الورقة بصورة أفضل، ولم أحضرها معي. قررت أن أنصرف بعد أن تعود السيدة إلى الكشك، وتزيح الشبكة من على النافذة.

لم تعلمني لوتسيا كيف أغسل الملابس. لكنها علمتني لعبة مهمة. لعبة خاصة بالضعفاء:

- ياركا! عندما تفشلين في اتخاذ قرار، دعي الأمر للصدفة! هي من سيقرر نيابة عنكِ! اعثري على أي شيء يتحرك من النقطة ألف إلى النقطة باء، أي شيء يمكن إحصاؤه، شيء له بداية ونهاية. شيء قابل للتنبؤ به أو محتمل. ضعي حدودًا وهدفًا، نقطة البداية والنهاية. عندما لا تعرفين الوقت المطلوب لطهي الحساء، انتظري حتى يظهر ثلاثة غربان أمام النافذة. عندما لا تعرفين أين تذهبين، يمينًا أو يسارًا، انتظري حتى تسمعي نباح كلب قادم من الجهة الصحيحة. تخافين أن تنصرفي قبل الموعد بكثير وأنتِ تنتظرين شيئًا ما، وتتعجلين الأمر؟ انصرفي عندما يفرغ جارك الجالس فوق الأريكة من تدخين سيجارته، أو عندما يطوي صحيفته. لست مضطرة إلى أن تحملي على عاتقكِ دائمًا المسئولية عن كل كبيرة أو صغيرة. يمكنك فقط أن تسترخي، وتنظري! جميل ألا تفكري، جميل أن تلعبي. مفيد أن تستسلمي للصدفة، أن تسلمي نفسك للرياح، تتطايرين مثل ورقة في مهب الريح، وأن تتابعي كلبًا ضالًا.

لم تعد السيدة إلى كشك الجرائد. سمعت صوت بكاء متردد،

وضعيف، صرخة قصيرة في أثناء النوم، وصوت يسعى لتهدئته. امرأة أسفل الدرج تسعى حول عربة أطفال كبيرة لتوءم من جانب إلى جانب آخر. في أحد مهديّ العربة ينام طفل، لم أستطع تقدير عمره، ربما خمسة أو عشرة أشهر، في المهد الآخر المشابه للأول يبكي شقيقه. بكاؤه يمكن أن يوقظ الطفل الآخر، فراحت السيدة تفعل كل ما في وسعها كي لا يحدث ذلك. كانت امرأة قصيرة، ومستديرة الجسم، ترتدي فانلة قطنية فضفاضة، لكنها التصقت فوق جسدها فبرزت من خلفها طيات فخديها وخصرها. كانت سيدة عادية، تقليدية مثل يوم مُتْرَب وسط الأسبوع. عندما يصرف الإنسان نظره عنها ينسى على الفور وجهها، ولون شعرها، وعينيها. كانت حركاتها مرتبكة، تصطدم في عجلات العربة بمقدمة حذائها على الدوام رغمًا عنها، تنقل أشياءها، شخشيخة وحفاضات، من يد إلى أخرى. شيء ما في حركاتها يدعو للانزعاج، شيء ما دعاني إلى أن آخذ من يدها كل تلك الأشياء، وأدفعها جانبًا، ثم أحاول تهدئة الطفل الباكي. وقتها تخيلت أني أعرف ما يجب أن أفعله، كأن أرفع الطفل في يدي، رغم أن أحد لم يعلمني شيئًا كهذا على الإطلاق. إنه بالتأكيد أثقل من حمل لعبة مخملية. التفتت الأم الشابة حولها بعد أن هدأ الطفل وقد بدا عليها ضعف في ثقتها بنفسها، وخوف من أن يكون هناك من يقف قريبًا، وقد أزعجه البكاء. ابتسمت لي ابتسامة اعتذار. ابتسامة نراها على وجوه العجائز غير القادرين على مغادرة الحافلة، ويشعرون بالحرج عندما يمد لهم أحدهم يده للمساعدة. ابتسامة نراها على وجه أحدهم عندما يصدر ريحًا وسط الحشد، وعلى وجوه الأمهات اللواتي يصرخ أطفالهن رغم أنهن يعرفن جيدًا أن ما يحدث أمر طبيعيّ، وأن تلك الأصوات التي تخرج من أفواه أطفالهن طبيعية تمامًا. لكنهن غير قادرات على التخلص من شعورهن بالفشل. لذلك يقدمن الاعتذار، ويدسسن

الخبز في أفواه أطفالهن.

لم يكن هناك أحد فوق الرصيف أمام محطة القطارات. كان الميدان الصغير أيضًا خاليًا من المارة. فلم هناك ما يدعوها للخجل. هزّت السيدة العربة قليلًا، ثم تطلعت نحو مدخل المحطة بعد أن تأكدت أن الطفلين يتنفسان بانتظام لتجد أن عشرين سُلَّمة تتقدمه. فخبطت بيدها في الهواء بإشارة مليئة بخيبة الأمل واليأس. أرادت أن تصعد لتذهب إلى الرصيف، مباشرة نحو القطار الذي أعلنوا عن وصوله منذ لحظات. لم تكن قادرة على أن تحمل إلى أعلى عربة الأطفال الكبير مثل سفينة طائرة. كان يوجد في نهاية الممر المزيد من الدرج، يتبعها ممر ضيق لا يسمح بمرور عربات بمثل ذلك الحجم. أعلنوا في مكبر الصوت بصوت واضح على نحو مضحك عن قدوم القطار. تطلّعَت نحو الدرج بوجل، كأنها تقف أمام حائط حجري عامودي تعلوه كاتدرائية. حاولت الإنصات إلى صوت القادم من المكبر متجاهلة دندنة طفل يصحو نومه. توجهت نحو العربة.

- أنا سأراقبهما!

خاطبتها بطريقة تدعو للثقة لكن بنوع من الفتور. فلم أجد في نفسي أي تعاطف معها، ولم أكن أعني أن أخفف عنها الموقف. قلت لها أستحثها:

- هيا اذهبي!

شعرت وقتها بالتفوق. كان واضحًا أنها مهتمة باللحاق بذلك القطار. ترددت المرأة. حاولت أن تصلح الغطاء الذي رفسه الطفل بقدميه، وراحت تبحث عن حلمة صناعية بديلة في مهد مليء بأغطية بيضاء. انطلق صوت المكبر من جديد يستحث الناس

بصوت عالٍ كأنه يعرف أنها تنتظر لقاء مهمًا. راحت ترمقني مرة أخيرة، وتتطلع إلى الأطفال والمدينة، كأنها تستودع الأطفال، والعربة، وكل ما بها في حماية المصابيح، وكشك السجائر، وأشجار الكستناء القصيرة. ثم انطلقت فوق الدرج بهمة رغم الشحوم النابتة على جسدها.

انكفأت مرة أخرى على العربة وأنا أضع شعري المنحل خلف أذني - حركة ورثتها عن لوتسيا، كي لا يوخز وجه الطفل، ويثيره. بدأت أهتم أكثر بتلك الملاءات البيضاء؛ حيث يبدو الطفلان فيها كأنهما كعكتان كرز منفختان موضوعتان على مفرش.

تمنيت وقتها أن أكون في مكانهما، وما زلت أتمنى ذلك حتى اليوم، منتشية برائحة اللبن، محاطة بحب دافق من أمي، أستلقي في العربة بهدوء، لا ألقي بالًا لشيء، بريئة، أستمتع بحواس لم تكتمل بعد، تحميني قبل أن تنفتح على العالم. أتقلب في الفراش مثل القطة. أغوص بوجهي في الفراش، وأقضي كل طفولتي في كسل الأطفال الجميل. ثم أنتبه كطفل كبير، قادر على أن يرفض، ويدافع عن نفسه، ويقرر في أمر نفسه. كم تمنيت أن أستفيق في حالة رشد مغايرة لتلك التي عايشتها في الواقع. كم تمنيت أن أعيش حياة أخرى. أستيقظ في بيتنا الريفيّ، على ضوء الصباح الساطع، محاطة بأشياء تربطني بها حكايات من لحظات السعادة القصيرة. تقوم على حمايتي قصبات نباتات عالية، وصلبة، وسط حشائش لم تهذب على مدى أعوام طويلة. يحميني سياج من الأشجار، والأغصان القوية المنتصبة في كل اتجاه. فالخطر لا يأتي من الأرض فقط. إلى أن يحين الوقت فأهذبها، وأقصها بنفسي عندما أصبح قادرة على الدفاع بنفسي عن نفسي.

كنت أحسد الطفلين على ما هما عليه، لا يهتمان بشيء. كل ما

يفعلانه هو البكاء بأعلى صوت إن أرادا بلوغ شيء. من السهل أن تبكي بصوت عالٍ، ومن الصعب ألا تبكي. من الصعب تتجرَّع الحزن، والخوف، والوحدة، وغياب اليقين، في صمت، وبوجه متحجر، فقط لأن هذا لا يليق، لأن هذا يزعج الآخرين، لأن الوقت غير ملائم لشيء كهذا. الوقت والمزاج. إذا تذمر الرُّضّع تنتفض الأسرة كلها فورًا، يتولون موضوع الجوع، والبرد، والتعليم، والتسلية، والراحة. وقبل أن يبدؤوا في التفكير والكلام، سيؤكد الجميع أن البكاء أمر طبيعي، عادي، بل وضروري كي يفهموا ما يريده الصغار. سيقولون وهم يضحكون:

- ابكِ أيها الصغير، افتح رئتيك!

في الوقت نفسه يتمنون في أنفسهم ألا يستمر البكاء طويلًا كي لا ينتشر بكاؤهم الحار في أرجاء الشارع، ويعتقد الجيران أن الأبوين لا يسيطران على طفلهما. تتعكر الأجواء، وتشتد أعصاب الكبار مثل الوتر. ينتشر الصياح في كل ركن من أركان الشقة.

كنت أحسدهما على نظافتهما، على الملابس البيضاء المعقمة، على حوافها المطرزة بأشكال مشغولة، وأسماء العلامات التجارية. تخيلت أمهما وهي منكبة كل المساء بإبرة بين أصابعها النحيلة، تصنع أحرفًا صغيرة تعلوا سوار الملابس، تصنع متونًا لتكون لهما بمثابة ملاك حارس يحميهما، وتعلن للعالم أنها أم تضحي من أجل أطفالها. أتخيلها وهي تغسل الفانلات، تنظف شعرهما والنوم يداهمها، وهي تحيك الصور فوق جواربهم. ربما تكون جدتهما مَن حاك لهم الجوارب. جلست أيامًا في مكان ما عند النافذة، تصوب عينيها في الاتجاه الذي انصرفت منه ابنتها مع حفيديها. أعطتهما الكثير من الاهتمام، منحتهما جميع مهاراتها التي لم تجد سبيلًا لإظهارها. فوجدت أخيرًا شيئًا تدفع به التفكير

في الأمراض والأدوية والموت.

كنت أحسدهما على النوم، النوم الثقيل الهانئ، أحسدهما على أنهما ينامان أينما أرادوا ومتى شاءوا. فكل الناس تسعد عندما ينام الأطفال. ثم يتحركون بجوارهم على أطراف أصابعهم كي لا يوقظوهم، فعندهم مئات الأشياء يفعلونها في أثناء نومهم. كنت أحسدهما على أن كل فرد يغسل يديه قبل أن يلمسهما، ممنوع على أي شخص بالغ غارق في عرقه أن يمد يديه في عربتهما، ويعبث بهما وسط ملابسهم الفواحة، ويلوث فراشهما في أثناء نومهما بلعابه الأصفر.

كانا طفلين محبوبين بلا شروط. فما لا يفهمان الشروط. لم يقل لهما أحد إننا سنحبكما طالما كنتم مطيعين. هذا عبث، فهما لا يفهمان مثل هذا الكلام. وعندما يحين الوقت ويصيرا قادرين على الفهم، ستتساقط عليهما القيود كما تتساقط الأحجار من فوق التل.

كان لدى الطفلين كل ما يحتاجانه وقتها للحياة في حقيبة معلقة في العربة. حملت أمهما معها كل شيء لوقت الحاجة، مياهًا مغلية في حافظة مياه، ومسحوق حليب، وزجاجات بلاستيكية بمقياس للماء، وملابس بديلة، وحفاضات تستعمل لمرة واحدة، وأدوية في زجاجات مهيأة لاستعمال الأطفال، ونقاطًا للأنف لاستعمالها إن تساقط المخاط من أنفيهما في أثناء اليوم. كان كل شيء نظيفًا، مرصوصًا بصورة رائعة في حقيبة ناعمة نسيت المرأة أن تغلقها. ألقيت نظرة عليها وأنا أفكر إن كانت تستعد للسفر بالأطفال إلى مكان ما، أم أنها تجهيزات عادية لكل مرة يخرجون فيها. أدركت أني لا أحمل شيئًا معي غير مفاتيحي، وبعض النقود، لم يكن معي حتى مناديل ورقية صغيرة.

فجأة انطلق الناس من داخل محطة القطار. يحملون طرودًا وحقائب. أبعدت العربة عن الطريق قليلًا، ووضعتها في ظل كشك الجرائد كي لا يصطدم بها أحدهم فيوقظ الطفلين. تفحصت كل مسافر منهم جيدًا؛ فلم أعثر على المرأة بينهم. لم أتمكن من تذكّر وجهها على وجه الدقة رغم أنها انصرفت منذ عدة دقائق فقط. لكني قد أعرفها من فانلتها الفضفاضة. لم يلتفت أحدهم نحونا، لم يلتفت أحدهم إليّ، ولا إلى العربة الكبيرة. تقدم اثنان أو ثلاثة نحو الكشك، لكنهم انصرفوا بصمت عندما رأوا غطاء النافذة مسدل. خلا الرصيف من المارة بعد لحظات، واختفى الناس من فوق الدرج، ومن الدهليز الطويل. ولم يظهر للمرأة أيّ أثر.

تركت طفليها الصغيرين وحدهما. تركتهما أمام محطة القطارات القذرة؛ حيث يتسكع أشخاص غرباء، في ظل الكشك، في ظل صار يتضاءل ويختفي. راحت الشمس تطلق أشعتها الملتهبة على وجهي الصغيرين، فبدأ الطفلان يتذمران غضبًا. ألقى أحدهما الحلمة الصناعية من فمه بحركة عفوية خرقاء. وراح الآخر يمتص حلمته بقوة. أدرت العربة كي لا تصل أشعة الشمس إليهما، وأزحت الغطاء لأكشف أقدامهما الصغيرة البيضاء الممتلئة، تتخللها أخاديد غائرة كأن أحدهم أوثقها بحبل أسفل ركبتيهما. أطلق أحدهما صرخة بشكل مباغت. رحت أهزّ العربة بقوة، وأتحرك بها هنا وهناك حسب ما سمح لي ظل الكشك. لكن من دون جدوى، واصلا الصياح، وراحا يثبان. صعدت الدرج، ثم تجولت ببصري في الصالة فلم أجد أي أثر للمرأة.

أعلن صوت المكبر عن رحيل القطار. عدت إلى الطفلين فوجدتهما قد هدءا، يغنجان وكل منهما قد أحكم قبضتيه. ثارت الرياح، وانتشر الحفيف قادم من أوراق شجيرات قصيرة. وضعت

سبابتي في كفيّ الصغيرين، وضغطت عليهما بقوة.

غادر القطار المحطة ولم تأت المرأة. رقد الطفلان وهما يتطلعان إلى السماء. صفعت الرياح أسفل الدرج علبة بيرة من الصفيح فارغة، ودفعتها فوق الإسفلت لتحدث ضجة. وانطلقت موسيقى شاركت فيها الرياح، والعلبة الصفيح، وحدبات الرصيف. رحت أستمع لها. كان صوتًا لطيفًا، ذكرني بالحدائق؛ حيث تتردد فيها كثيرًا خشخشة مشابهة قادمة من بعض حدائق الجيران التي عُلِّقت علب الصفيح فوق أشجارها لإرهاب طيور الزرزور.

وقفت أسفل السلم أتطلع نحو صالة المحطة. مر وقت طويل من دون أن يخرج أحد من المحطة. كان أمرًا غريبًا. فقبل أن تظهر المرأة بعربتها كانت الناس تتدافع خارج الصالة بغض النظر عن وجود قطار على الرصيف من عدمه. دائمًا ما ظهر أحدهم وقد أخطأ في مواعيد سفر القطارات أو ليبتاع قهوة من الماكينة. أما الآن فالمحطة صارت خاوية. لو كان قد بقي فيها أحدهم فمن المؤكد أنه جالس على مقعد أو مستندًا إلى طاولة يشرب كأسًا من البيرة في المحطة. كأن الزمن قد عَلِق في الفراغ. من المؤكد أنني سمعت صوت العلبة يرتطم بحدبات الرصيف، وسمعت خشخشتها. كان صوتًا واضحًا تمامًا. سمعت صوت مكبر الصوت، وصفارة القطارات، وهدير عجلاتها، ودبيب المسافرين. حانت لحظة فارقة - جزء من الثانية، خطأ في البرنامج، جميع سيارات المدينة تنتظر إشارة حمراء عند التقاطع. هدوء وسط المدينة. لحظة صمت لسماع صوت العلبة.

اختفت المرأة. تخيلت أن مرت ساعة على الأقل منذ رحيلها. لم يكن لدي وسيلة للتأكد من ذلك. لم أكن أعرف حتى كم تكون الساعة، وكم كانت عندما جاء القطار. لم أسمع الإعلان عن قدومه. أدركت

أني أتعرض لموقف غير معتاد. بدأت أفكر في الأطفال. يمكنني أن أظل واقفة عند المحطة كيفما أشاء، لكن الطفلين سيجوعان بعد لحظات، وسيتبولان، أو يبدآن في التبرم. وسيصابان بضربة شمس لو تركتهما في لهيب الشمس. طفلان صغيران، ومُهمَلان، وخائفان، ويعانيان من ضربة شمس. كنت مضطرة إلى الاهتمام بهما بطريقة أو بأخرى، أنا ياركا التي تعرف جيدًا معنى أن تكون وحدك، تحمل في يدك كيسًا بلاستيكيًا مليئًا بالمشتريات، وحزمة مفاتيح في جيبك - ليس مفتاحًا واحدًا لشقة ما، لكن جميع المفاتيح الممكنة، مفتاح حجرة القمامة، والقبو، وصندوق البريد؛ لأن ياركا يجب أن تتدبُّر كل شيء. يجب أن تهتم حتى بهذين الطفلين. يجب أن تأخذهما إلى مكان ما، بعيدًا عن هدير القطارات، وصوت محركات السيارات، إلى مكان ينعمان فيه بالهدوء. ياركا يمكنها أن تتدبر كل شيء، وأن تهتم حتى بهذين الطفلين.

قررت الآتي:

- ما لم تعد تلك المرأة قبل أن تلمس تلك العُلبة قدميّ سآخذ الطفلين وأنصرف.

بعدها بثلاثة عشر عامًا؛ كنت في انتظار صديقة لي في المحطة نفسها، محطة فينوهرادي. تأخر القطار يومها. فجلست طويلًا عند الرصيف، أتطلع إلى أسقف مألوفة، وقدماي تدعواني للتمشية في ممر ضيق بين البيوت، أسير كما كنت أفعل وأنا في الثانية عشرة؛ حيث كنت أمشي معصوبة العيني من دون أن يرتطم جبيني بأحد الحوائط. رأيت على مدى بصري وسط ضباب الخريف أحد الكروم الصفراء، وبيوت جديدة ظهرت، وتناثرت مثل القمامة فوق الرصيف. عدا ذلك لم يتغير هناك الكثير. على الأقل هكذا بدا الأمر من بعيد.

جلست أقرض أظافري. كان درجة الحرارة مرتفعة على غير عادتها في شهر سبتمبر. بدت العمارات الشاهقة، وبرج شركة سلوف نافت بيضاء منتصبة عن بعد وسط ضباب الخريف المعتاد. بدا الأمر كأن المدينة صارت أكبر مما هي في الواقع بكثير.

عاودتني الذكريات.

لم يكن أمامي سوى آخر عشر دقائق قبل وصول القطار، لم أتمالك نفسي فمررت على قضبان القطار، ثم نزلت إلى الطريق عبر أحد التلال، وسعيت بين البيوت، ولم أتوقف إلا عند آخر موقف من

مواقف السيارات. لم يتغير شيء. فقط مرت ثلاثة عشر عامًا. ماذا تعني ثلاثة عشر عامًا؟ ماذا تعني ثلاثة عشر عامًا خاوية مقارنة بيوم واحد. ذكرى تدعوني بقوة إلى الهرولة، السعي بعينين مفتوحتين، ونسيان الخطط والواجبات، نسيان قدوم القطار ونسيان صديقتي، نسيان الزمن والالتزامات.

لم يتغير شيء. فجأة اتصلت بي دوروتا، ابنة بيتر. وعلى الفور عادت جميع الذكريات. اختارت محطة قطارات فينوهرادي مكانًا للّقاء، لم أفهم السبب. لماذا لم تأتِ بسيارتها، لماذا لم ينتظرني أبوها في محطة القطارات الرئيسية؟ لماذا تذكرتني؟

لم يتغير شيء. مرافئ السيارات تحولت إلى سلعة تجارية رائجة. لكن أحدًا لم يكن يهتم بموقف للسيارات في ضواحي المدينة، لذلك تداعت أسقفها مع الزمن، وراحت بواباتها تلاطم الرياح كما كانت الحال من قبل. اكتست البيوت بواجهات جديدة، زاد عددها ثلاثة أو أربعة بيوت، أحدها كان تحت الإنشاء. وضعوا في بعض أجزاء الطريق طبقة إسفلت جديدة. قطعوا شجرتي جوز عجوزين، ولم تنم بديلتهما الصغيرتان بعد.

تشابكت التصدعات على الأرض عند المرافئ الأخيرة. وظلت الفجوات بينها يملؤها الطين القادم من الكروم. كان ذلك يتكرر كل عام. سيول الأمطار تنزح الأرض من الكروم، والرياح تعيدها مرة أخرى. تحول المدق الواقع خلف المرافئ إلى طريق إسفلتي ارتفع فوق الأرض وتعرّج، يحيطه أحد الكروم من ناحية وقناة مسدودة من الناحية الأخرى. كان الماء ينساب منها بعد كل مطر غزير في بعض المناطق، ثم يتدفق عائدًا إلى مجرى القناة بعد خمسة أمتار أو عشرة مترًا. نمت أشجار الصفصاف حول القناة، وظهر الفطر الأسود فوقها. تفرع الطريق خلف آخر كرم إلى ثلاثة

أذرع رئيسية، وكل ذراع لها ثلاث أذرع أخرى ضيقة لا تسمح بمرور أكثر من سيارة واحدة. تفصل الطرق عن بعضها حدائق مختلفة، مستطيلة الشكل، يحدها من جهة الطريق سياج متشابك عالٍ، ويفصل إحداها عن الأخرى سياج من النباتات، والأخشاب القصيرة، وشجيرات التوت، واتفاق شفهي بين أصحابها.

كان لدى ميلاتيتش قطعة أرض في نهاية المدق، وبستان فصله عن باقي العالم بشجيرات خضراء كثيفة. يُقال إنه كان جنائنيًا من الطراز الأول، صبورًا، ومبدعًا، ومتعلمًا. أعتقد أنه وجد في بستانه مأوىً له من الرفيقة المديرة إيرينا. ركنًا هادئًا لا يلاحقه فيه أحد، ولا يُوجِهه، ولا يتتبعه. أصلح بيته الريفيّ الصغير المتداعي، وطلاه باللون الأزرق، ثم صنع مدقًا له بالأحجار. صار البستان مقفرًا بعد أن هاجر.

كانت الأوراق في الكروم تُصدر حفيفًا، وتُغري على مواصلة السير. كنت أعرف أن ثمار العنب المُتْرَبة، وحبات الكستناء الصالحة للطعام تنتظرني، وبداخلها ذكريات كامنة مثل الديدان. كانت دوروتا أيضًا تنتظرني. من المؤكد أنها غادرت القطار الذي وصل في تلك الأثناء. كان صوت صرير فرامل يصل إلى أذني بشكل لا يمكن تجاهله. لذلك استدرت، وهرولت عائدة وسط مواقف السيارات والبيوت، ثم صعدت التل. لم ألتفت خلفي ولو مرة واحدة. لم أتحول إلى عامود من الملح.

قبلتان خفيفتان على الخد ولمس خفيف للأكتاف بأصابع اليد. هذا ما يفعله الناس اليوم على الطريقة الفرنسية الأنيقة. أطفال حنت ظهورها ووضعت غطاء السترة على رءوسها، يتبادلون الضربات ويشدون أصابعهم. كل فرقة بطريقتها الخاصة، بحيث لا يتسلل غريب إلى شلة الأطفال، كي لا يرى أحدهم وجه الآخر.

عندما كنا صغارًا، ونقابل شخصًا نعرفه في الشارع لم نكن نعرف أين نضع أيدينا. سألتني بمجرد أن نزلت من القطار:

ـ ماذا تفعلين؟ كيف حالك؟ ماذا فعلت في السنوات الأخيرة؟

رغم الإجابات المُعدّة مسبقًا ـ لم أكن أتوقع أسئلة مختلفة من دوروتا ـ فقد سقطت في فجوة بين الواقع والتوقّع. تجنّبت الإجابة، وقلت لها:

ـ حسنًا، هناك الكثير من الأخبار، لا أعرف من أين أبدأ، وماذا عنكِ؟

سهل جدًا أن تتجنب الرد على الأسئلة. لكني بعد لحظات قلت لها رغمًا عني:

ـ الحقيقة أن ما حدث كله مجرد هراء.

شعرت بعدها بالخجل من نفسي، فأنا حتى لم أجهد نفسي كي لا أصيبها بالإحباط. قالت دوروتا:

ـ يحزنني سماع هذا الكلام!

ثم أضافت وهي تربت على كتفي:

ـ لكن لا تخافي يا ياركا، هناك أناس في حالة أسوأ من ذلك بكثير. الأطفال في إفريقيا على سبيل المثال.

شعرت وقتها بأني إنسانة معتوهة.

قالت بعدها وهي تتفحصني:

ـ كنت أتخيلكِ على نحو مختلف.

- قلت لها في نفسي:

- صحيح! وهل وجدتني أسوأ أم أفضل؟

ربما كان الأمر أسوأ مما تعتقدين. ثم رفعت صوتي قائلة:

- كيف؟ كنتِ تتوقعينني في صورة أسوأ، أليس كذلك؟

نقرت على كتفي من جديد بإشارة لم تكن تليق بها.

كانت الأحوال وقتها طيبة. كنت أجني الكثير من الأموال، وكانت لي صديقة في بيت الأزياء تحيك لي الملابس. كانت تستخدمني بدلا من عرائس المانيكان. كانت تقول إن لدي رقبة طويلة وجميلة، وبفضل رقبتي هذه كانت الملابس تبدو جميلة عليّ. توقفت عن ارتداء السراويل كثيرة الجيوب، بعد أول مقابلة عمل شعرت في أثنائها بالإهانة، وبدأت أرتدي الفساتين. كانت تُقوّي من ثقتي بنفسي التي تآكلت. لحسن الحظ لم أرث عن لوتسيا ارتداء السراويل الضيقة المثيرة بلون جلد النمر، وحبات الذهب الصناعية. من المؤكد أن الأمور كان يمكن أن تكون أسوأ من ذلك.

سألتها بعد أن جلسنا في السيارة:

- وأنتِ، كيف حالك؟

- أنا أيضًا بخير.

وهكذا تجاوزنا الجمل الإجبارية التي نرددها من دون أن نأخذها على محمل الجد. نسمعها من أذن، وتلقي بها إلى الخارج من الأذن الثانية. لكن ما أن انتهت تلك العبارات ساد الصمت. رحت أفكر إن كانت إحدانا ستختلق ذريعة ما، أم ستنتهي بنا الحال في شقتي بعد منتصف الليل، أو في أحد البارات في أحضان رجل ما.

لم يكن بالإمكان التنبؤ بما سيحدث في تلك اللحظة. لا يمكن أن أقول أنها لم تكن تعني لي شيئًا. فهي شقيقة بيتر، ولم أكن أتوقع أن أراها بالفعل.

انفلت من يدي ناقل السرعة؛ فانتفضت السيارة في تقاطع أمام القصر الرئاسي. سعلت دوروتا، فخرجت من فمها حبة نعناع:

- وماذا عن بيتر؟

خرجت الجملة من فمي دون أي مقدمات.

- بيتر؟ تقصدين والدي؟ إنه هنا.

- أين؟

- هنا في هذه المدينة. لقد عاد، ويعيش هنا منذ أربعة أعوام. ألم تلتقيا بعد؟

سادت فترة صمت طويلة، طويلة للغاية. شيء ما كان كامنًا في أعماقي على مدى أعوام، وبدأ يصحو ويخبط في رأسي. ضباب انتشر أمام عينيّ، قلت لنفسي إنه ربما يكون عادم سيارة. فأغلقت النافذة.

قالت دوروتا:

- غدًا سألقاه على العشاء. تعالي معي إن أردتي، سيسعد بلقائك بالتأكيد. تعال أرجوكِ!

قلت لنفسي وأنا أدفع العربة أمامي «إن الطفلين سيشعران براحة أكثر في الحديقة، أكثر من البقاء على الرصيف أمام محطة القطارات. الجو هناك أكثر هدوءًا. سيعتاد الإنسان بعد وقت على ضجيج المدينة المتواصل ولن ينتبه إليه. الحديقة كائن حي. كائن حي على جميع المستويات. حي بين أغصان الأشجار، وفي الحشائش، وفوق الأرض، وتحت الأرض، وتحت كسوة البيت الريفيّ، حي في وعاء ماء المطر، وأسفله، في الظلام الدامس.

لو تمكنت من جر العربة إلى أعلى فسيكون عليّ أن أفتح الأبواب لتهوية المكان، وطرد الذباب، وإشعال النار في الفرن المصنوع من حديد الزهر، ثم أغلي اللبن للطفلين. هكذا رحت أخطط. كثير من الأخشاب تراكمت عند جاري، ويكفيني أن أعبر السياج الفاصل بيننا، وأستعير من عنده بضعة ألواح. كان جاري يأتي إلى البستان مرة كل أسبوع، وباقي أيام الأسبوع يكون في العمل. لذلك لم يكن هناك ما يدعو للخوف. كان بقية الجيران أيضًا نادرًا ما يأتون إلى هنا. وحتى لو جاءوا، لم يكن أمرهم يعنيني في شيء، فهم لا يرونني بسبب السياج الحي الذي صنعته النباتات. فلن يتلصص أحد على الأطفال، ولن يوقظهم صوت ماكينة تهذيب الحشائش.

بعد أن يتناول الطفلان طعامهما سيكون عليّ أن أغير لهما الحفاضات، وأن ألهو معهما إلى أن يصيبهما الإعياء، ثم أساعدهما كي يناما. في أثناء ذلك سأهذب البستان كي أتحرك فيه بالعربة بسهولة، وأقطع للطفلين ثمار التوت. وفي المساء سأرى إن كنت سأبيت في الكوخ، أم سأذهب بالطفلين إلى الحيّ السكنيّ.

وضعت تلك الخطة للساعات القادمة. كانت لوتسيا قد تركت لي

نقودًا تكفي ليومين. لم أكن أتوقع عودتها. فهي على أية حال لا تحب الأطفال الصغار. فصراخهم يزعجها. كانت تقول إنه يجب إطعام الأطفال سريعًا إن وُجِدوا، ثم صرفهم بعيدًا كي لا تخلط حياتهم بحياة والديهم.

ارتطمت عجلات العربة المزدوجة بأحد الأحجار فانتفض الطفلان. أجهدهم تهدج العربة المستمر على الطريق الوعر، فاستسلما لنوم عميق. سقطت الحلمة الصناعية من فم أحدهما الموارب، وتصبب العرق من الطفل الثاني حتى صنع دائرة رطبة داكنة فوق الفراش تحت رأسه. نال مني الإرهاق أنا أيضًا. لم يشغلني وأنا أضع خطة لما سأفعله إلا رغيف الخبز الذي يتدلى في الكيس البلاستيكيّ.

عجزت عن دفع العربة في العشرين مترًا الأخيرة فوق التل حتى وأنا أمد ذراعيّ إلى الأمام وأحني رأسي. فرُحت أجرها خلفي. تارة وأنا أدير وجهي ناحيتها، وتارة أخرى وأنا أتطلع إلى البوابة البعيدة، الفجوة التي تقطع السياج الأخضر كي أستمد منها القوة. كنت أرى جزءًا كبيرة من المدينة من على الطريق؛ برج ديميتروفكا، والعمارات، ومداخن محطة تكرير البترول المشتعلة مثل عيدان الثقاب المنتصبة، وبرج التليفزيون، والمسبح، ومحطة القطارات. سمعت صوت قادم من مكبر الصوت، وصرير عجلات القطار عندما هبت رياح قادمة من المدينة. كان من السهل نسيان الناس عندما تهب الرياح في الاتجاه المعاكس، صوب المدينة.

كنت أفكر في القطارات الهادرة التي كانت لوتسيا تسجل مواعيد مغادرتها. القطارات التي بسببها بقى هذان الطفلان وحدهما أمام المحطة، قطارات تعج بالمسافرين، ضخمة، وقذرة، وصاخبة. يتردد صوتها ويتكرر طك طك طك، طك طك طك. أشعة

الشمس تتلألأ على القضبان، رائحة دخان السجائر، وعجلات لزجة من آثار كئوس الكوفولا المسكوبة، وموسيقى رتيبة تعلو جميع النغمات. ساعدتني تلك الصورة على التغلب على البضعة أمتار المتبقية في مكان وعر. أوقفت العربة أمام مدخل الحديقة، ثم جلست فوق الأرض. كان الطفلان مستسلمين لنوم عميق. وقطة نافقة في حفرة ضحلة تجاهلتها تمامًا، فلم ألتفت إليها.

نفضت الألم عن يدي بعد أن استرحت قليلًا، ثم دفعت بالعربة إلى داخل الحديقة. تركت العربة شريطًا من الحشائش المسحوقة من عند البوابة وحتى الكوخ. وضعت العربة في ظل الكوخ، ثم فتحت النافذتين الصغيرتين عن آخرهما، وكذلك الأبواب كي يتجدد الهواء في الداخل. تفحصت الطفلين عن قرب. انكفأت على وجهيهما أستمع إلى زفراتهما الرتيبة التي تشبه صوت ماكينات صغيرة. كان أصدقاء لوتسيا يصدرون زفرات هادرة تحت غطائي مثل سيارات النقل المكتظة بالبضائع. لكنهم كانوا أحيانًا ضعافًا، وتفوح منهم روائح طيبة، وهو أمر يصعب تصديقه.

طال نوم الأطفال بصورة تدعو للشك. لكن ما هي معلوماتي عن الأطفال؟ جميع معلوماتي هي ما رأيته في الشارع، أو عند صديقاتي، وشقيقاتهم، وأشقائهم الصغار. كانت معلومات بسيطة. مثل وضع الحليب في القارورة، وغلي الحلمات الصناعية، وتغيير الحفاضات، ومساعدة الأطفال على التقيؤ. كانت لدى الرغبة في التعلم شيئًا فشيئًا. تركت الطفلين نائمين كي يتسنى لي ترتيب الكوخ، والأسرّة، وتهوية الوسائد، وإشعال التدفئة.

أنهيت كل ما خططت له بكل دقة وإتقان. كأن رضا الأطفال يكمن في تسوية طيات الفراش. كنت أتردد عليهما كل دقيقة لأتأكد من أنهما يتنفسان بانتظام، أو من أنهما يتنفسان أصلًا.

شيء رائع أن يكون لدي في الكوخ طفلان صغيران. طفلان حقيقيان، يتنفسان، وأنا أمٌ لهما. كيف حدث هذا؟ بكل بساطة.

بدأت أُعجب بدور الأم يومًا بعد يوم. كنت أشعر بالإثارة، والقلق، والسعادة. كنت سعيدة لدرجة أني نسيت المدينة، وشعوري بالدونية كل صباح، ونسيت حتى لوتسيا. صببت كل اهتمامي في الطفلين. لم أكن أسمع أو أرى سوى الطفلين. كنت فخورة بنفسي رغم أني لم أنجح في أي شيء حتى الآن. كل ما فعلته حتى الآن هو أنني أتيت بهما إلى حديقة الكوخ في العربة. كنت أشعر بأني صرت كبيرة، ومسئولة. امرأة صالحة، ومتفانية مثل أم صالحة تحدثت عنها قصيدة ما ونحن في الصف الأول. تطلعت إلى وجهيهما المستديرين عن قرب، كانا وجهين جميلين رغم ما بهما من بثور وثنايا. أصبحا طفلاي. فأنا التي آوتهما. صرت فتاة بالغة. شعرت فجأة بأني فتاة بالغة، أصبحت مسئولة عن طفلين رائعين، وليس عن خنافس في علبة كبريت أو فئران في قفص. أصبحت مسئولة عن طفلين، وعليّ أن أحبهما، وأضحي من أجلهما. عليّ أن أفكر فيهما أولًا، ثم في نفسي ثانيًا. شعرت بأهميتي، وبالمهمة التي على عاتقي. لن أتسكع في الحي بعد الآن، لن أتجول فوق الحشائش، ووسط مبان تحت الإنشاء بلا هدف. وسأكف عن وضع أهداف تافهة، كنت أضعها فقط كي تمر الأيام سريعًا. ستكتسب كل خطوة أخطوها، وكل قرار أتخذه أهمية. لم أشك يومًا ما أني أنقذت الطفلين من رجل شرير كان يمكن أن يأخذهما من أمام المحطة، ويلقي بهما في مرفأ مهجور للسيارات، أو في أي مكان آخر لا يقل سوءًا.

كنت أعرف ماذا يعني أن تعيش في شقة واحدة مع أناس غرباء، في مدينة غريبة، لا تعرف فيها شيئًا. أن تعيش مع رجال لا عمل

لهم، مجرد لقاءات، وحوارات، ورحلات. يرتدون معاطف جلدية، وفانلات داكنة اللون، ويرسمون وشمًا على ظهورهم، وأيديهم، وأحيانًا على رقابهم. معنى أن تعيش مع سيدات لا يأكلن شيئًا، ويعتقدن أن الأطفال أيضًا ليسوا في حاجة إلى الطعام. أن تعيش في بيت ممنوع فيه أن ترفع الستائر، وتفتح النافذة. ثلاثة أيام وليلتين في ذلك المنزل، من دون مفتاح، من دون لوتسيا التي كانت دائمًا منشغلة بقضاء شيء ما، أو بالتردد على البارات، أو النوم القلق في أسرة الغرباء، وفوق وسائدهم، وأعطيتهم. أعرف ماذا يعني أن تعيش في بيت وأنت خائف متبرم، منزل لا شيء فيه يعمل، بل يتهاوى، ويتفسخ. لا تسمع في الليل سوى همس الحوائط.

كنت أعلم ما معنى أن تكون مهملًا عند إيرينا على مدى أسبوعين، من دون ملابس نظيفة، ومن دون سروايل داخلية بديلة. فقط. لأن لوتسيا أرادت أن تقضي أمرًا، ولا تعرف متى ستنهيه.

كان عمري وقتها سبعة أعوام. كنا نسكن في شقة صديقة لوتسيا بصورة مؤقتة، كانت تعمل جليسة أطفال في مدينة لندن. اتصلت بي لوتسيا هاتفيًا، وقالت لي وقتها باقتضاب:

ـ البسي بسرعة! واجلسي في تلك السيارة الزرقاء التي تقف أمام البيت. ستذهبين لزيارة جدتك إيرينا في حي ديميتروفكا. وسأحضر لآخذك في المساء!

ثم أغلقت الهاتف كي لا أُضيّع الوقت. ارتديت حذائي على عجلة، ثم هرولت فوق الدرج، فبالفعل كانت سيارة زرقاء تنتظرني أمام البيت، ومحركها يعمل. كانت تجلس في السيارة صديقة أخرى للوتسيا. كانت امرأة لطيفة. سألتني عن المدرسة، وعن الفتيان. كنت سعيدة بأن هناك من يهتم لأمري، ويلقي عليّ كل تلك الأسئلة التي أجبت عنها بكل الصدق والسعادة. أنزلتني أمام مدخل بيت إيرينا، ثم انصرفت سريعًا كي لا تضطر إلى التفاوض معي إن أنا تذمرت فجأة. كانت إيرينا تقيم في تلك الشقة القذرة التي أقمت فيها معها لبعض الوقت. كانت سيدة مريضة. وكانت جارتها تحمل لها طعام الغداء من مطعم مدرسة ابتدائية. فلم تكن تقوى حتى على الذهاب إلى المتجر بنفسها.

قالت إيرينا عندما ذهبت إلى هناك:

- لقد أرسلك الله لمعاونتي. كانت سعيدة بأن هناك من سيعاونها بدلًا من جارتها التي فاض بها الكيل. ادعت جارتها مرضًا ما حتى لا تضطر إلى التردد عليها. كانت إيرينا امرأة جاحدة، وبخيلة، وشريرة. كانت تحاول خداع جارتها لتسلبها بطاقات التغذية التي يحصل عليها المتقاعدون.

بدأت الثلوج تذوب تدريجيًا بين لوتسيا وإيرينا عندما ساءت حالة إيرينا الصحية، وشعرت بأنها قريبًا ستكون في حاجة إلى رفيق دائم ليرعاها. اتصلت بلوتسيا، وحاولت أن تستنهض في لوتسيا شعورًا بالرحمة لم تكن تعرفه. لكن لوتسيا عرفت على الفور كيف تستغل التحول الجسدي والنفسي الذي حدث لإيرينا.

مرّ اليوم الأول لي في ديميتروفكا هادئًا تمامًا. فقد قطعت إقامتي عند إيرينا بطء الأيام التي تمر وأنا أنتظر اليوم الأول في المدرسة. كنت واثقة تمامًا بأن لوتسيا سوف تأتي لتأخذني. وإلا لطلبت مني أن أضع ملابس للنوم، وفوطة في حقيبة بلاستيكية كبيرة. فهي لن ترسلني للبقاء هنا من دون أن أكون مستعدة. ما لم تنس! وكان ذلك يحدث كثيرًا. بدأت المشكلة في المساء عندما أردت أن أغسل أسناني، ولم أجد ما أغسلها به. عرضت عليّ إيرينا بكل سخاء فرشاة أسنانها الحادة، لها لون عظام الفيل. وهي فرشة لا يمكن أن أضعها بين أصابعي، فما بالك أن أدخلها في فمي! وهكذا، لم أنظف أسناني في الليلة الأولى، وفي الصباح غيّرت ريقي بقطعة خبز. في الليلة التالية حاولت تنظيف أسناني بأصابعي. وفي اليوم التالي غالطت إيرينا في عشرين كرون من قيمة المشتريات، واشتريت بها أرخص فرشاة أسنان وجدتها، لها لون واحد وحيد.

لم أكن أطيق رائحة فوط إيرينا، ولا الصابون العالقة به النفايات، ولا رائحة وسائدها. لم أكن أستسيغ طعم زبدها رغم أن له غلاف الزبد الموجود في ثلاجتنا نفسه. ليلة واحدة كانت كافية كي أكره شخير إيرينا، وأوامرها وطلباتها التي تصيح وهي تنطقها:

ـ أعطني كأس ماء! ياركا! أسدلي الستائر، من فضلك، أرجوكي! أغلقي التليفزيون! غطّي قدميّ، ليس بهذه الطريقة، بل على نحو آخر! ارفعي الغطاء عني! فقد صار الجو حارًا! هل أنتِ نائمة؟ ألم تنامي بعد! دلّكي لي هذا المكان! فيدي لا تصل إليه! لا تناديني باسم جدتي، فأنا لست جِدة لأَحد!

كنت مضطرة إلى النوم معها في غرفة واحدة، فوق ثلاث حشايا لأريكة واحدة، كانت تتحرك من تحتي كأنها كتل جليدية في نهر. لكنني لم أستطع فعل أي شيء. كانت إيرينا تدير الشقة بطريقة صارمة. النوم في غرفة النوم، والطبخ في المطبخ، وما عدا ذلك يكون في غرفة الاستقبال. لا سبيل إلى إجراء أي تغيير، لا مكان لعقد صفقات أخرى. زفير مختلط بصوت شخير، وأوقات أرق طويلة. فرك للساعد، وجلد جاف يتقشّر، وتتطاير قشوره في الهواء لتصل إلى أنفي. ألتقط أنفاسي، وأتحسس الأشياء في ضوء خافت وسط المذبح الصغير. ضوء خافت فوق رأسي قادم من وسط تمثال من الجص لمريم العذراء، وسلك كهربائي يحمل التيار إلى المصباح، ويمتد فوق السجادة بطول الغرفة، ثم يمر أسفل أريكة قابلة للطي، أنام عليها. أنا الفتاة المذعورة. سلك تزحف حوله أمراض إيرينا وأعوام من حدة طبع لا تنتهي.

-أغلقي هذا التلفزيون! صارت الساعة السابعة، وعليك أن تخلدي للنوم! في الصباح ستذهبين للشراء، ويجب أن تذهبي مبكرًا؛ لأن

الخبز عند الساعة الثامنة يكون قد تناوبت عليه الأيادي. لا تسقطي كسرات الطعام من يدك! أنا أنزعج من هذه الأشياء! أنت لا تهدئين أبدًا؟! أين أمك؟ مر أسبوع من دون أن تأتي أو تتصل هاتفيًا. ماذا فعلت كي يحدث لي ما يحدث؟ هكذا رباها أبوها. كان يُدعَى ميلاتيتش. ياركا! ضعي المرهم على ظهري، ودلكيه! أشعر بوخز فيه.

في البداية كنت أتحرك حول إيرينا بكل همة وكل خوف. كنت أخاف من أني لو لم أفعل ما هو مطلوب مني ستموت، ستلقى حتفها فجأة، ستسقط فوق الأرض، وترتطم برأسها على إطار الباب فيسيل دمها فوق أرضية الشقة، ثم ينسال من أسفل الباب ليصل إلى درجات السلم. عندها لن يكون في مقدوري أن أفعل أي شيء. فقط سأنتظر عودة لوتسيا التي تجني أموالًا من مكان ما. كانت إيرينا تغلق عينيها لتعبر عن استيائها من أيّ شيء، وتسدل رأسها، ثم تضع يدها فوق قلبها، وتتنفس بسرعة، فأنتفض لأحضر شيئًا ما، أو أفتحه، أو أغلقه. المشتريات، أدوات الطعام، البريد، أدوات الطعام:

- غطيني! انزعي عني الغطاء! ساعديني لأرتدي جواربي! أيتها الخادمة! أيتها المساعدة!

مرت خمسة أيام. لم أكن أتذوق فيها الطعام، كرهت أشيائي القذرة التي لم أتمكن من تغييرها أو غسلها. إيرينا لم تسمح بالغسيل إلا يوم السبت. استياء قاهر دفعني إلى أن أقرر الرحيل.

استسلمت إيرينا للنعاس قبل وجبة الغداء وهي ترتدي قميص النوم، وتضم شعرها بالمشابك، وبجوارها على طاولة السرير أقراط مرصوصة بشكل مهندم. عندها تسللت إلى خارج الشقة، وركبت

حافلة متوجهة إلى بيتنا. لم يكن يبعد سوى بضع محطات، لكن الخوف الشديد الذي اعتراني خلال العشر دقائق تلك فتّت عزيمتي وسعادتي من الهروب كأنه ماء مالح.

لأول مرة أجلس في الحافلة بمفردي ومن دون بطاقة سفر. كنت نادرًا ما أركب الحافلات. فلم يكن هناك داعٍ لذلك، ولم يكن هناك مكان أسافر إليه. كانت الحضانة، والمدرسةُ في الحي نفسه، وكذلك طبيب الأطفال، والحلاقة، ومتجر صيني لبيع الملابس، ومتجر للمأكولات، ومكتب بريد. لم تكن لوتسيا تأخذني إلى المنتزه، أو إلى حديقة الحيوانات، أو المسرح.

تخيلت أن جميع الركاب يرمقونني، وأنهم جميعًا متأكدون من أني لا أملك بطاقة سفر، وأني هربت وتركت إيرينا المريضة وحدها رغم أمراضها الحقيقية والزائفة. صار كل واحد منهم كأنه مفتش حافلات، حتى الصبي ذلك الصغير الغاضب الذي يدق بقدمه فوق المقعد؛ يمكنه أن يشير إليّ بإصبعه، ويقول:

إنها لا تملك بطاقة سفر! ياركا ليس لديها بطاقة سفر! ياركا هربت من البيت، أكيد أنها هربت! أمسكوها، وأعيدوها إلى جدتها مرة أخرى عقابًا لها على ما فعلت! ستُكفِّر عمّا فعلتها بأن تغسل ظهر جدتها بالصابون حتى منتصف اليوم، وبعد الظهيرة ستدهن لها قدميها التالفتين. سيتسمر ذلك لمدة أربعة أسابيع إلى أن تبدأ الدراسة.

بعد انتهت رحلة الحافلة المرعبة؛ انطلقت خارجها أعدو بكل قوتي، أهرب من الصبي والمفتش، من رجل يزفر في رقبتي، من سائق يرمقني في المرآة العاكسة بعينين ممتلئتين بالماء والغضب. أهرب من إيرينا التي أسمع دائمًا أسنانها تصلصل في

كأس الشراب. رحت أعدو هربًا عندما انفتحت أبوب الحافلة، وما زلت أفعل حتى الآن، رغم أن إيرينا ماتت منذ زمن بعيد. كنت أهرب من العقاب، ومن تأنيب الضمير. أهرب وأنا أقبض في يدي على مفتاح الشقة، وقطعة النقود المعدنية المثقوبة، وحلقات مطاطية ملونة.

في البيت وجدت صديقتين من أصدقاء لوتسيا، اثنتين من عشرات أصدقائها. إحداهما مُمددة فوق سرير لوتسيا، هامدة مثل شمعة مُطفأة، شاحبة اللون، وجهها متبلد، وعيناها جاحظتان. تلمعان، وتشيران إلى أنها ما زالت على قيد الحياة. كانت الأخرى تجلس في غرفتي على الأرض وسط كرات مصابيح مُحترقة، وتنظر عن قرب إلى كسرات متفحمة. أسدلت رأسها ناحية الأرض تمامًا حتى سقطت خصلات شعرها الأشقر المتسخ على السجادة.

اعتقدت من الوهلة الأولى أن لوتسيا قد عادت، وأن الصينية والكئوس قد سقطت على الأرض. لكن عندما رفعت المرأة رأسها رأيت عينين غريبتين تنظران في بلاهة طلبًا للغفران، وتَفَهُّم الأمر.

أسفت عليهما. كانتا امرأتين نحيفتين، كأنهما قادمتان من العالم الآخر. منغمستان في عالمهما، لا تريان، ولا تسمعان ما يدور في الشقة، ولا في البيت، ولا في الشارع. امرأتان عالقتان بين اليقظة والنوم، بين الحلم والحقيقة. امرأتان سلبتانا هدوءنا، وسرقتا الوقت الذي كان يجب أن تخصصه لوتسيا للاهتمام بي. ربما أني رأيتهما من قبل، وربما لا. كان جميع أصدقاء وصديقات متشابهين. يكفي أن ترى اثنين منهم. كانوا يأتون إلينا سكارى مرهقين فقط عندما يحتاجون إلى مكان للمبيت، أو لمجرد الراحة والسمر.

كانوا يتمددون في سريري، وفي المطبخ على الطاولة، وفي الحمام في حوض الاستحمام، وبين الغسالة، والحائط، وعلى الدَّرَج أمام باب الشقة، وفي دورة المياه، وبجوار سرير لوتسيا، وفي سريرها، أو في أحضان لوتسيا كالأشباح بطيئي الحركة كسولين، ومُلطّخين بالقذارة. كانوا يأتون إلينا للعلاج. كانت لوتسيا تستقبلهم بكل تعاطف وتفهّم، تقدم لهم الطعام، وتعيرهم أشياءها وأشيائي. كانت تهتم بهم أكثر من اهتمامها بي، وهو ما لم أكن أفهمه. لماذا عليّ دائمًا أن أطهو الطعام بنفسي، وأغسل الملابس، وأستعير أواني الطعام من دوروتا؟ لماذا عليّ أن أنتظر فوق سُلّم العمارة، في الوقت نفسه كان باب بيتنا مفتوحًا لهم دائمًا؟ لم أفهم ما هو الخير الذي كانت تجنيه من ورائهم. ما هي الصفقة التي عقدتها معهم. رغم أننا كنا في حالة ترحال دائم. كان دائمًا معنا، في مرة، وفي كل مكان كنا نتواجد فيه طوال الأسبوع اثنان أو ثلاثة منهم. كانوا يظهرون على الفور، من أول يوم مثل ذبابة الفاكهة.

كنت أعرف أنهم عما قريب سينهضون، وينفضون التراب عن أجسادهم، ثم يرتعشون، ويغسلون وجوههم. ربما سيرتبون المكان قليلًا، ربما سيتركون قطعة حلوى، أو هدية صغيرة على الطاولة، أو ربما سيسرقون شيئًا، ثم يصفعون الباب خلفهم. أو ربما لن يفعلوا شيئًا من ذلك. ربما أراهم عما قريب من جديد، أو ربما لن يعودوا على الإطلاق.

إنهم على العكس مني، أحضروا معهم إلى شقة غريبة كل ما يحتاجونه؛ ملابس وأدوات الزينة، ومجلات، وسجائر، وموسيقى، ومخدرات وطعام أيضًا. استطاعوا خلال يومين من ملء شقتنا عن آخرها بتفاصيل حياتهم، من الأرض وحتى السقف. الشيء الوحيد

الذي كان ينقصهم هي المصابيح، لذلك نزعوها من أماكنها.

تبدّلت حالة اللهفة والسعادة من تمكني من العودة إلى البيت، إلى أجواء اعتدت عليها، وتحولت إلى خيبة أمل، وخوف من أن أضطر لمشاركة امرأة قبيحة غرفتي، حتى هنا في شقتنا. امرأة لا تعرف كيف تنظف ظهرها بنفسها لأن يديها قصيرتان، امرأة أجنبية باردة.

قررت أن أختار البديل الأقل ضررًا. دُرت حول السيدة، وكسرات الزجاج من مسافة آمنة من دون أن أنبث بكلمة، سحبت ملابسي المفعمة بالدخان من فتحات خزانتي، ثم وضعت كل شيء في حقيبة، وشربت كأسًا من الماء، وخرجت إلى الدهليز. جلست فوق خزانة الأحذية هناك، وحنيت ظهري مثل القطة. ورحت أبكي لبضع ثوانٍ، لثوان قصيرة جدًا. كان بكاءً رمزيًا، ليس من القلب، بكاءً بسبب الإرهاق، وليس عن الحزن.

شعرت برغبة في النوم، والاختباء تحت الخزانة بين الأحذية. أردت أن أفكّك جسمي كأنني دمية خشبية ثم أستريح. أنتظر لوتسيا التي لم تفِ بوعدها، ها هي مرة أخرى لا تفي بوعدها. أحزنني أني استسلمت بتلك السرعة. فكرت في أن أعود إلى الشقة، وأهزّ تلك المرأة المستلقية في غرفتي، والتي لم أتبين وجهها جيدًا، ثم أطلب منها أن أتغادر الحجرة، وأن تنصرف، وتأخذ مصابيحها معها. ثم بعدها أجلس في انتظار لوتسيا التي ستعود قريبًا بالتأكيد. لكني في النهاية عدت إلى إيرينا قبل أن تستيقظ من نومها.

جاءت لوتسيا بعد أسبوعين وقبل يومين من بداية العام الدراسي. أحضرت لي حقيبة مدرسية جديدة، وحافظة أقلام من صفين، مليئة بأقلام الكتابة والتلوين. اشترت لي أيضًا ماسحات طيبة الرائحة، وملصقات، ومسطرة، وكراسات، وحلة رياضية، وخفًا. وضعت كل شيء في صندوق واحد كبير. كان كل شيء جديدًا، يصدر رائحة طيبة. على الفور قمت بتجربة المشتريات، أمشي في مطبخ إيرينا وأنا أرتدي الخف، وأحمل حقيبة المدرسة فوق ظهري، ثم أقف على يديّ وأنا أرتدي زيّ الرياضة. أرسم خطوطًا حول المسطرة، وأمحو رسمًا صنعته إيرينا، وأفعل الكثير من الأشياء التافهة التي شعرت معها بالإهانة، والارتباك. أفعل كل ذلك كي لا تكون هناك فرصة لتوجيه أسئلة لا طائل منها.

طفلان جميلان، تفوح منهما رائحة ذكية يرقدان على الدوام في العربة. لم يكن ذلك حلمًا. لم أخترع قصة كهذه. كانا هناك، نائمين يتقلبان ويفتحان قبضتيهما. سيكونان جوعانين عندما ينهضان من نومهما. إحدى صديقاتي كانت لديها شقيقة صغيرة، وكانت تقول إن الأطفال الصغار يشعرون بالجوع على الدوام. فهم يأكلون طالما كانوا مستيقظين، ويصرخون عندما لا تقدمين لهم الطعام. كان يجب أن أُعِدّ نفسي لتلك اللحظة. أتفحص الحقيبة، وأجهز كل ما أحتاجه لصنع الحليب من المسحوق. وجدت زجاجتين، وأربع حلمات بلاستيكية متشابهة تمامًا. لم أعرف الغرض من وجود كل ذلك العدد من الحلمات. عثرت على اللبن في جيب الحقيبة، ووجدت أيضًا مِقياسًا، لكنني لم أعثر على كتيب إرشادات أعرف منه طريقة التحضير. لم أكن أتوقع شيئًا كهذا.

استيقظ الطفلان. أحدهما على اليسار يرتدي ملابس زرقاء. ربما يكون ذكرًا. لم أتحقق من ذلك الأمر؛ لأن الطفلين كانا متشابهين تمامًا، ولم يكن لأحدهما فتحة في أذنه. لم يكن لدي وقت لأتحقق من جنسيهما. ولم يكن ذلك أمرًا مهمًا في تلك اللحظة. كنت في شوق إلى أن أحمل الطفل أخيرًا بين ذراعيّ، وأتحدث معه. في تلك اللحظة أدهشني أني لا أعرف اسم الطفل. كان موقفًا غبيًا. شعرت

على الفور بخيبة أمل. ها أنا أفشل في أول اختبار. كان يجب أن أسأل السيدة في البداية عن اسمي الطفلين. إنه أول سؤال يخطر على بال الإنسان. ما اسمك؟ وأنت؟ وهي؟ عندما نام الطفلان في العربة كانا كأنهما طفل واحد، جسد واحد، صوت واحد، غصنان لنبتة واحدة، توءم. تمامًا مثل جيراني في الحي، باتيو وماتيو. لم يتمكن أحد من أن يميزهما عن بعضيهما. كانا بدورهما يتبادلان اسميهما كي يصيبوا الناس بمزيد من الارتباك. إلى أن استيقظ أحدهم، فكان عليّ أن أفصله عن الآخر، وأجد لهما اسمين. لم يكن ممكنًا أن أظل أناديهما «يا أطفالي الصغار!".

تفحصت كل ما في الحقيبة والعربة؛ تفحصت الحفاضات، والأحذية، والجوارب، وسترات الصدر، والأكياس، وحتى الأدوية. وأخيرًا لمحت شريطًا لاصقًا أسفل قارورتي اللبن عليه اسمان: يعقوب وأديلا. لم أكن في حاجة إلى تلك المعلومة. لكنني من وقتها وأنا أشعر أن الاسمين قد فصلا الطفلين عن بعضهما، وأكملا الصورة بطريقة ما. تمامًا مثل الكعكة قبل أن نرش عليها السكر تكون نصف جاهزة، مجرد خامة مرصوصة في الصينية. تمامًا كما ينتهي اليوم بحكاية خرافية وقُبْلة. يعقوب وأديلا. اسمان جميلان.

أمسكت يعقوب من أسفل ذراعية، ورفعته بحرص. تصرفت بكل حرص لأني أخشي أن أؤذيه إن ضغطت بقوة على ذراعيه. كان رأسه الصغير يتأرجح بشدة، تملكني معه إحساس غريب. فلم أكن معتادة على حركات كتلك. كانت تنقصني الخبرة، وحسن التقدير. تخيلت أن شيئًا في رقبته من المؤكد سيفسد في أثناء تلك الحركة، ربما ستنكسر أو تنفصل عن رأسه. أدهشني أيضًا وزنه الذي دفعني إلى الخلف لأحافظ على توازن فقدته. أسندت الطفل على جسمي:

كان يطرف بعينيه، يحرك رأسه الصغير وقبضتيه بشكل متقطع إلى أن أمسك صدفة بثنية في فانلة ألبسها، وقبض عليها بقوة كأنها حبل إنقاذ. رحت أمشي وأنا أحمله في أرجاء البستان، أدفع بجسمي إلى الخلف لأحافظ على توازني، وأتأرجح به. انقبض جسمه في البداية، وبعد بضع خطوات صار أكثر استرخاء ومرونة. ضغطت بوجنتي على رأسه الصغير خوفًا من أية حركات أخرى غير مرغوبة، وأمسكت مؤخرة رأسه بأطراف أصابعي بطريقة تلقائية. شعرت هناك بنقطة بيضاوية الشكل صلعاء حولها خصلات من الشعر الفاتح. شعرت بأن الطفل ليس في حالة طبيعية، كان جسده متشنجًا، وظل عالقًا بأصابعه في الفانلة مثل قطة علقت بستارة في أحد الأفلام الكوميدية.

- يعقوب! لا تخف مني!

رحت أكرر له في هدوء، وأهمس له وأنا أدس فمي وسط شعره:

- من الآن سوف أقوم على رعايتك.

حاولت التحدث بطريقة هادئة وطبيعية للغاية قدر استطاعتي. كنت أعرف جيدًا أن الهدوء المفتعل لا يسفر عن أي نتيجة إيجابية. لم أرغب على الإطلاق في أن أفزعه، أو أكذب عليه. تحدثت معه وأنا أتلعثم كما يتلعثم الأطفال. جاء صوتي غريبًا، فنام بعدها. لم أكن معتادة التحدث بتلك الطريقة؛ إذ تجاوزت بكثير الوقت الذي كنت أضع فيه دمى البنات والأولاد في السرير لتنام. ساعدتني رائحة جسده. خدرت جسدي، وجعلتني أشعر بالهدوء. نسيت كل ما كان حولي. لم أشعر سوى برائحته ووزنه الثقيل. لو كان أخف من ذلك لحملته ومشيت به في البستان حتى صارت جميع الحشائش مسحوقة فوق الأرض، ولامتصصت كل الحرارة من جسده،

ولاستحثت دقات قلبه السريعة الأسرع من دقات الساعة عضلات جسدي المتوترة.

شعرت بشيء مميز وأنا أمشي في البستان، وأدس أنفي في رأسه. بشيء لم أكد أعرفه من قبل. شعرت بالهدوء والسكينة، وبالتوازن النفسي، والراحة. إنه شيء كنت أشعر به للحظات قصيرة وأنا بجوار بيتر. عندما كنا نجلس نحن الثلاثة فوق السجادة في غرفة دوروتا نلعب الورق. كانت زوجته طوال الوقت خارج المنزل، ونادرًا ما كنت أقابلها. كنت أفهم من تعليقات دوروتا نوعًا من التوتر في العلاقة. لذلك دائمًا كان يراودني شعور بأن في بيتهم شيئًا أفتقده. شيئًا كنت أفتقده في كل مكان أذهب إليه مع لوتسيا، عند أصدقائها ومعارفها غريبي الأطوار. لكنه كان حاضرًا عند بيتر ودوروتا. في الغرف، وبينهما عندما يتحدثان معًا، وحتى عندما كانا يتشاجران. نسيج مستتر، خيوط تربط بين ثلاثة أعضاء في بيت واحد، وبين الأشياء التي يلمسونها. كنت أشعر به في كل مكان هناك. كان جميلًا أن أغوص فيه. كان لطيفًا منهم أن سمحوا لي بذلك. إنها عينة توضيحية لعلاقات طبيعية وصحيّة تجاه البشر والأشياء.

ركبت ذات يوم سيارة بيتر. أخذنا وقتها إلى حلبة التزلج على الجليد. كان الحلبة قريبة جدًا من البيت، لكن بيتر أخبرنا أنه سوف يقلنا بالسيارة إلى هناك. أخذ جميع أطفال الحي الذين اتسعت لهم السيارة. جلست أنا في المقدمة. كنت وقتها أكبرهم سنًا، ووضعت يدي على ذراع نقل السرعة، فقد سمح لي بيتر بالجلوس في المقدمة والإمساك بذراع نقل السرعة. في حين جلس باقي الأطفال متلاصقين في الخلف يصرخون. لكنني لم أسمعهم، لم أشاركهم ألعابهم. كنت أترقب الوقت الذي سأنقل فيه ذراع السرعة. كنت ألعب مع بيتر لعبتنا الخاصة. كان عندما تصل السيارة إلى منعطف كبير يضع يده القوية فوق يدي. ثم يدفعها برفق، ويسحبها، ثم يضعها فوق عجلة القيادة. كان يعطيني تعليمات عندما يصبح الطريق خاليًا من السيارات حول ما على فعله كي أنقل السرعة بطريقة صحيحة. كان يثق بي، وكنت أجلس كأنني في حلم، منغمسة في خصوصية هادئة لنقل مشترك لسرعة السيارة. جهل رقيق، وهدوء حميم عن كثب.

ما زلت حتى اليوم من دون أن أدري أنهل من تلك الثقة التي برهن عليها يومًا ما. أشعر معها بالثقة في النفس. هذا بالتأكيد لا يعود إلى ثقة بنفسي تعمقت بفضل أسرتي وأنا طفلة. استطعت وأنا قريبة منه أن أتخلص من شتى مخاوفي الصغيرة التي كانت تتربص بي مثل ذبابة الفاكهة، تقف في الخفاء صامتة، ودائمًا عن قرب. كانت تلك المخاوف تظهر لي فجأة من دون سابق إنذار عندما أكون وحدي، ولا يوجد من أحكي له عنها. محاربة خوف معلوم سهلة للغاية، فهو يذبل مع كل كلمة تنطقها.

كثيرًا ما كنت أفزع من فكرة أن لوتسيا ستختفي، وأنها ستصاب

بمكروه، وستكون هى السبب في ذلك. كنت أخاف أن تتركني وحيدة. كنت أخاف من الوحدة والصبية المنتظرين خلف بوابات مرافئ السيارات. كنت أخاف أن يأتوا إلينا يومًا ما، ولن تكون لوتسيا بالبيت، فيندسون بجواري على السرير، ولن يكون في البيت من سيطرق على باب غرفتي، ويطردهم خارج الشقة، ويضربهم ثم يتركهم ينصرفون. كنت أخاف أن يكملوا ما كانت لوتسيا تحول بينهم وبينه طوال الوقت بإرادتها أو رغمًا عنها، وسيفعلونه معًا، أو واحدًا تلو الآخر.

كنت أخاف أن أعثر يومًا ما على لوتسيا ميتة، وأن أجدها أنا بنفسي، كما وجدت إيرينا. كانت إيرينا ترتدي قميص النوم وقد طُوِي حتى نصفها الأعلى. كانت قد لبسته على وجهه الداخلي ويغطي كل وجهها. يداها مغطاة بالقماش وملقاة فوق رأسها. جاءها الموت وهي ترتدي ملابسها بعد خروجها من الحمام وتستعد للنوم. حوض الاستحمام مليء بماء مُتّسخ بارد، جسدها مُلتفّ على نفسه في الحمام الصغير، وقدماها عالقتان عند الباب. كم مرة اضطررت إلى تنظيف ذلك الجسد، ووضع الملابس عليه، كم مرة دلكته، في وقت كان النفور والإصرار على رفض طعام الغداء يطغى على الشعور باحترام الشيخوخة وحب الأسرة. كانت فترة الأسبوعين في حياة مشتركة معها كافية لأن تبلغ كراهيتي لها ذروتها. كراهية لامرأة عجوز التي لم يذكرها أحد بكلمة طيبة طيلة حياتها. امرأة أفضل ألا آتي على ذكرها. لم يحبها أحد، لم يتردد عليها أحد بغرض إدخال السعادة على قلبها. لم يكن الدافع لزيارتها سوى المصلحة الشخصية أو الواجب تجاه امرأة عجوز؛ تجاه مديرة سابقة لمدرسة ابتدائية، تجاه أم، أو جدة، واجب تجاه جارة أو إحدى المعارف.

كنا نقوم على رعايتها لمدة تجاوزت العام، أنا ولوتسيا، خصوصًا أنا. السبب الوحيد الذي دفعنا لذلك هو أن نجد مكانًا نعيش فيه. لم يكن هناك سبب آخر غيره. فقط تلك الشقة اللعينة. كانت إيرينا تتبع قواعد صارمة، لا تحيد عنها. كانت تحب الحديث عن المبادئ والعادات، تحب وضع أدوات المائدة فوق فوط الطعام حتى وهي تتناول طعامًا عاديًا. كانت امرأة صارمة صاحبة مبادئ، حتى أنها تركت ابنتها الصغيرة الغبية تتنقل في شقق بالإيجار بصحبة طفلة صغيرة. تنازلت عندما صارت هى نفسها في حاجة إليها، وأرسلت لها بعض النقود طلبًا للغفران، وأفرغت لها حجرة في شقتها. نقود من أجل طفلتها الصغيرة التي لم تكن تطيقها لأنها كانت عديمة الفائدة. تلك الطفلة قامت على خدمتها حين صارت كبيرة وقادرة على ذلك، عندها استقبلتها بابتسامة عريضة، ودعتها لمقابلة في الحمام، ثم تتركها تغسل لها جسدها، وأماكن في جسمها لا تصل إليها يداها.

كنت أخاف من أشياء كثيرة، وما زلت أخاف. أخاف في أثناء الليل من أن أفتح باب الحمام كي لا أصطدم بركب متيبسة، أو بجسد لا وجه له، أو بكيس من البندق.

لم تبدُ على وجه الطفل أية علامة على الخوف. كان يتطلع إلى وجهي بعينين مفتوحتين، يتابع باهتمام كل خلجة من خلجاته، وكل طرفة عين. رحت أكرر، وأقول لنفسي:

ـ أنا لست أمك! أنا لست أمك الحقيقية. لكن لا أهمية لأمر كهذا الآن. أنت تعرف جيدًا أني لست أمك، أرى أن الأمر قد اختلط عليكَ. لكنك لست خائفًا مني، أليس كذلك؟ أنا حتى الآن لست سوى واحدة من السيدات التي اهتممن بك وبأختك من وقت لآخر. فأمك شعرت بالإرهاق، وأرادت أن تأخذ نصيبها من النوم. تحتاج أن تكون وحدها، أن تستقل القطار، وتسافر في رحلة. لن يستغرق هذا وقتًا طويلًا، ستعتادان البقاء بدونها أنتما أيضًا. ستنفصلان مثل المناطيد عن تلك المرأة التي تلد لأول مرة في حياتها، فتركتكم عند المحطة. انسوها! لا أعرف أين ذهبت، ولماذا. لا أعرف ماذا تفعل الآن، وحتى هذا الأمر لا يعنيني. كل ما يعنيني الآن أنتَ وشقيقتك. أترى! لقد توقفت عن الصياح، لم تعد تخاف مني. كل ما تحتاجه هو أن تتأرجح. أنا لم أكبر بعد، لكني أعرف كيف أهتم بنفسي. أعرف ما يضر الأطفال، أنا أيضًا ما زلت طفلة. وسوف أتصرف معكما بناء على هذا. لن أكون مثل أمك، لن أتظاهر بأني شخص مختلف، لن أخجل منكما. سأمنحكما كل ما في وسعي منحه.

حملت يعقوب إلى داخل الكوخ، وكانت أديلا ما زالت مستغرقة في النوم. كانت زفراتها الدافئة تخرج منتظمة من فمها الموارب. وضعت يعقوب في السرير، ثم لففته بالوسائد كي لا يتدحرج، فيقع على أرض الغرفة. ثم أشعلت المدفأة. لم يستغرق ذلك وقتًا طويلًا. استعملت كل كمية الخشب الموجودة بالكوخ. ثم ملأت الوعاء بالماء من الخارج، وتركته يغلي. جلست بجوار الطفل حتى يفور الماء وأنا أتابعه وهو يحاول أن يلتف لينام على بطنه. فساعدته. أحضرت له لُعَبي، وقدمتها له واحدة بعد الأخرى. ابتسم الطفل وهو يتهادى برأسه مثل الغراب، لكنه حافظ عليه منتصبة بكل شجاعة. دسست في يده طبقًا بلاستيكيًا صغيرًا، ثم خرجت ألقي نظرة على أديلا. حملتها إلى الداخل وهي ما زالت نائمة، ثم وضعتها في السرير كي لا يؤذيها شقيقها من دون أن يدري. أردت أن يكون الطفلين قريبين مني. حاولت أن أرى كلًا منهما سعيدًا. تذكرت باتيو وماتيو. تذكرتهما وهما يظهران متلازمين طوال الوقت. كنت أتصور أن التوءم يمكن أن يعيش من دون الآخر نصف حياة، ويتنفس بنصف رئة.

صببت الماء في القارورتين بعد أن صار باردًا، ثم أضفت إليه حفنة لبن بودرة إلى أن أصبح لونه باهتًا. ثم وضعت واحدة منهما في قدر الماء الساخن، وصببت من القارورة الأخرى بضع قطرات فوق ساعدي، تمامًا كما كانت تفعل باقي الأمهات. كان اللبن دافئًا، لكن الحقيقة هى أنني لم أكن أعرف على وجه الدقة إن كان ساخنًا أم دافئًا بالقدر الكافي. أريكني ذلك. فقد كنت واثقة من تلك الخطوة، وتمنيت أن يأتي اليوم، وأرفع كُمي مثل أي أم متمرسة، وأختبر درجة الحرارة.

شرب يعقوب اللبن دفعة واحدة، ولم يتبرم. كنت سعيدة من

أن تقديري لدرجة حرارة اللبن كان موفقًا. أخذته بين يديَ، ثم رحت أتجول به وسط الكوخ وهو منتصب القامة كي يتجشأ، وقبل أن تصحو أديلا من نومها تبكي. حصلت هي الأخرى على حصتها. شربته بكل إذعان إلى أن فرغت القارورة؛ فانطلقت في الصراخ. صراخ عالٍ يُوجِع القلب. يرتد من على الحوائط، ويخترق رأسي مثل مسمار دقه أحدهم بمطرقة ضخمة. انتظرت واثقة من أنها ستتوقف عن البكاء عاجلًا أم آجلًا. لكن. لكن الحقيقة كانت أسوأ مما توقعت بكثير. صُعِقت من كم الصياح الذي يخرج من فم صغير لا يزيد حجمه على فتحة مفتاح بالباب. لم تساعدني دمية أعطيتها لها، ولا الدوران بها في أرجاء الكوخ، ولا التمايل، ولا الغناء، ولا الألعاب. واصلت الطفلة البكاء حتى غشيها النوم. رفست بقدميها كي تفردها وأنا أضعها في الفراش. كانت جسمها متشنجًا، ويتحرك كأنه قوس.

بعدها بلحظات انطلق الطفل في الصراخ هو الآخر. وفجأة أصبح الكوخ كأنه ضاق علينا، وامتلأ بنا، وخلا من الهواء. أغلقت النوافذ والأبواب كي لا يسمع الصراخ أحد في الخارج، ثم وضعت كليهما متجاورين على السرير، وتمددت بجوارهما. قبضت على أسناني، وضغطت عليها بقوة. كاد الصراخ يمزّق أذني، لكنني تحمّلت. كنت أتوقع أن تلك الطريقة ستجعل الأطفال تهدأ. كان جسديهما ينتفضان بالكامل. لساناهما الصغيران يرتعشان في فميهما. كانت صوتاهما متشابهين، الفرق الوحيد هو أن أديلا كانت تصرخ بصوت أعلى. واصلت الصراخ العالي المتصل لمدة عشر دقائق. أغلقت معه عينيّ وأنا أحاول استشعار حِرارة جسمين صغيرين ينتفضان، لم أنتبه إلى الصراخ. رحت أحصّن نفسي، وبعد لحظات تضاءلت قوة الصراخ، صار كأنه لا يصدر من طفلين يرقدان هنا بجواري مباشرة، بل قادم من بعيد، من خلف ناقوس

زجاجي. فتحت عينيّ، ونظرت إلى المُنبّه الصغير. كانت الساعة تقارب الثانية عشرة، عقرب الثواني على بعد ثلاث ثوان من عقرب الدقائق. وما أن يلتقي كل منهما الآخر عند الثانية عشرة سيواصل الطفلان الصراخ، والعويل مثل صفارات الإنذار، ويجب أن أفعل شيئًا.

وهنا توقف يعقوب كأنه تلقى أمرًا بذلك. وبدأ يهتم بحبل يتدلى من سترتي. بعدها بدقيقتين أو ثلاث دقائق سعلت أديلا، وكادت تختنق من اللبن الذي جاء من معدتها عائدًا إلى فمها. انتفضت من فوق السرير، ورفعتها، ورحت أهزّها. لم يخطر ببالي أن أفعل شيئًا آخر في تلك اللحظة. تدفق من فمها تيار أبيض من لبن لم تهضمه، ثم سقط على الأرض، وارتطم بها كأنه خرقة مُبلّلة. حاولت أديلا التقاط أنفاسها، لكن اللبن الذي لم تتقيأه علق في حلقها، وتدلى من فمها، وكادت تختنق. أردت أن أحنى جسدها إلى الأمام كي يسقط اللبن من تلقاء نفسه. تذكرت هنا لوتسيا عندما حملتني، وحنت رأسي على الحوض عندما تدفق الدم من أنفي ذات مرة. كانت أديلا ثقيلة، ويداي تؤلماني من كثرة الأحمال، فتوقفتا عن خدمتي، وصارتا كأنهما لوحان من الخشب. عجزت عن رفعها في الهواء، فهززتها بين يدي إلى أن تساقط اللبن من على وجهها. هدأت الطفلة بعدها. بدت فزعة ومرهقة، مبللة بالعرق، واللبن، واللعاب. وضعتها على السرير، وأسندت رأسها بالوسادة. نظفت نفسي والطفلة بحِفاض نظيف. كان وجهها أحمر ملطخًا بالبقع، وعيناها منتفختين. تمددت بجوارها، ووضعت رأسي بجوار رأسها كي أتأكد من أنها تتنفس بانتظام ولم تختنق. كانت ما زالت تنتفض، لكن مع كل شهقة يتضاءل التشنج حتى فرغت من البكاء، وأرخت عضلاتها.

تمددنا متلاصقين مثل القطط، أنا وطفلان صغيران. انقلب يعقوب على بطنه، وراح يهمهم ويهزّ رأسه، ويخبط لعبة بلاستيكية في كفي المفتوح. استسلمت أديلا للنوم مرة أخرى. اكتسى وجهها وهي نائمة بلونه الوردي الحقيقي، فبدت رقيقة وجميلة. كنت سعيدة وأنا أتطلع إليها، أتابع إيقاع حركة فمها، وفصوص أذنيها الصغيرة. كان شعورًا رائعًا أن أستلقي بجوارهما هكذا، أنظف أصابع الطفل، وأداعبه بالاختباء وإظهار الدمية. شعرت بالراحة. فهدأت، ثم أغلقت عينيّ. حلّ بي إرهاق شديد. ودارت في رأسي قصاصات أفكار وذكريات، وكلمات قادمة من بعيد. تومض سريعًا بصورة عشوائية يصعب معها متابعة الأفكار واحدة تلو الأخرى. خطر على بالي بيتر، وكيف أنه يقوى على جميع الصعاب. تذكرت هدوءه الذي ينساب حوله مثل نهر في دلتاه، فيهزم كل تبرّم يظهر من حوله. تذكرت دوروتا وهي ترتدي ملابس توءم في حفل المدرسة، ترتدي حفاضًا كبيرًا منتفخًا، وتضع في فمها فمًا آخر من الحلوى. لا أعرف السبب، لكنني تذكرت كلمتين كانت إيرينا ترددهما أكثر من اسمي واسم أمي. كانت تضعهما في أي جملة عادية - المسيح الدجال، وكباريه. لا أعرف إنسانًا يستخدم هاتين الكلمتين في حديثه العادي.

تذكرت لوتسيا. وتذكرت ذلك المساء عندما انتابتها حالة غريبة، ورغبة في إجراء حوار طويل. كانت إيرينا ترقد في بيت الحزن، بيضاء اللون، خائفة، جسمها متيبس بصورة كاملة. الظلام يملأ الأجواء في الخارج، باستثناء ضوء قادم من نوافذ بيت مقابل ينتشر في غرفة مايا، وفي غرفة التوءم. ويرتطم سلك الغسيل بإطار النافذة، قادم من عند نافذة الجيران.

كانت لوتسيا تجاهد نفسها كي تبدو سعيدة وهادئة. صبت لي في الكأس بعض النبيذ فشربْته عن آخره. قالت إنه مجرد عصير. اشربي ولا تخافي، ستنعمين بعده بنوم هادئ. راحت تتحدث عن نفسها طوال الوقت، وأنا أشعر أنها تتحدث عن شخص بعيد، وتردد قصة مشوه بثرثرة السيدات.

لم تكن لوتسيا قد بلغت السابعة عشرة عندما ولدتني. رفعت ساقيها عاليًا فوق رأسها، ثم جلست الممرضة فوق بطنها منفرجة الساقين.

همست لوتسيا، وقالت:

- كان يجب أن تنتهي مني بسرعة.. حيث علت بجواري سيقان أربع نساء أخريات، كانت وقت انفجار سكاني.. كثير من الأطفال مثلك أنت.. كانت الأمهات ينتظرن دورهن كأنهن في طابور الجمعية. نمنا وقتها على أسِرّة إضافية. كان مشهدًا مهينًا إلى درجة كبيرة.. لم أشعر بإهانة مثلها في حياتي. كانوا يصرخون فيّ:

- يا إلهي! إنها فتاة غبية، لا تعرف دفع الطفل، إنها شابة غبية، فليضغط أحدكم عليها ليساعدها كي يخرج الطفل!

أرسلوني إلى البيت بعد يومين، فقد كانوا في حاجة إلى السرير. لم أقوَ على المشي، ولم يأتِ أحد ليساعدني. لم أكن أتوقع أن يأتي أحد! نقلني بعربة الإسعاف.. أردت أن أدعوه إلى فنجان قهوة على الأقل. كان رجلًا وسيمًا، وتفوح منه رائحة طيبة. أخيرًا ظهر من يتحدث معي بطريقة طبيعية بعد كل تلك المعاناة. لكن إيرينا طردته خارج الشقة، وقالت إنها لن تسمح بأن تحول شقتها إلى كباريه، أو مكان لتناول القهوة. يكفي أننا عدنا من ذلك المستشفى نحن الاثنان، أنا وأنتِ. هل يمكنكِ تخيل شيء كهذا؟.. كنت غبية.. لم أعلم بحملي إلا في الشهر الخامس، وكان الوقت قد فات على الإجهاض.. كان يجرون عمليات الإجهاض حتى الشهر الرابع.. لم تفلح حتى علاقات إيرينا التي كانت تعتمد عليها إلى أقصى درجة. كان لها أصدقاء بين الأطباء.. أصدقاء في كل مكان. حتى تلك الحيزبونات اللواتي يجرين عمليات الإجهاض على طاولة في المطبخ، ويستعملن مقصات مغلية رفضن إجراء العملية لي.. تركتني أقيم بالبيت.. رحمة منها حتى أضع طفلي، ويطيب جرحي، وأعثر على مأوى آخر. كانت تخبئني كي لا يعرف أحد بأمري. لم يكن مسموحًا لي بالخروج. وعندما أضطر إلى الذهاب إلى عيادة

الطبيب، كانت تُعلّق على كتفي معطفها الكبير كي لا يرى الناس بطني. كانت تجلس معي في سيارة التاكسي، وتراقبني كأنها من البوليس السري النازي، حتى لا أتمكن من الهرب، أو أظهر وسط الناس بلا داعٍ. بقيت في الغرفة لمدة ثلاثة أشهر. تولّت هي أمر المدرسة. كان يكفي مكالمة واحدة منها. بعد أسبوعين من الولادة أقمنا عند إحدى صديقاتي. كنتِ تنامين في عربة الأطفال، أو بجواري على الأرض في حقيبة نوم عسكرية. بعد شهر بدأت أطهو الطعام. أرضعكِ وأنا أدهن وعاء الطهي بالزبد. كنت أضعك في عربة الأطفال في ممر بجوار دورة المياه. ثم اختفي اللبن من ثديَ، ومنذ ذلك الوقت وصديقتي هي التي تهتم بكِ.. على الأقل لم أعد أشعر بأني بقرة حلوب. لماذا تنظرين إلي هكذا.. ماذا كان عليّ أن أفعل.. والدكِ؟ أتعتقدين أني أعرف من يكون؟ كان عددهم ستة أو سبعة. تلاميذ في المدرسة الفنية الهندسية. مارسوا معي الجنس في غرفة صغيرة بجوار صالة الألعاب الرياضية كانوا يخزنون فيها الكرات، وأغطية الأرض. كنا نغلق الباب من خلفنا بعد انتهاء التدريب المدني المشترك. نحرر اللمبات واحدة تلو الأخرى.. وسط الظلام.. لا أتذكر الكثير من تلك الأيام.. لا أذكر سوى صدى الصوت.. لم يكن الأمر سيئًا.. هناك بالتأكيد مواقف أكثر سوءًا من تلك.. كانت أيام مرح. لم أرغب في أن أشير إلى أيّ منهم بأصبع الاتهام. أيمكنِ أن تتخيلي موقفًا كهذا؟ أن يقفوا جميعًا أمامي كالمحكوم عليهم بالإعدام رميًا بالرصاص، ثم يحمل أحدهم التهمة.. والأدهى من ذلك أني سأكون مجبرة أن أتزوج منه. آخرتها! أتزوج من خرّاط! كيف لي أن أعرف من يكون؟ أنا بالأساس لا أتذكر شيئًا، فقد شربت قبلها نصف زجاجة خمر سرقوها من أحد رؤسائهم عندما كان يوزع عليهم أقنعة الغاز. أنا لا أتذكر سوى تلك الأصوات.. التي كانت تتردد هناك.. أتذكر هديرها، وصرير الأغطية الجلدية.. لن

أنسى ذلك على الإطلاق. لن أنسى صرير الأغطية الجلدية.

شربت لوتسيا من الزجاجة مباشرة، ثم ضمت شعرها خلف أذنيها. وجلست بعدها هادئة وقد عقدت يديها في حجرها. رحت أنا أسترق السمع إلى الخبطات المنتظمة التي تصدر من سلك الملابس المبلل. برق. برق.. برق. وكأنه بندول إيقاع.

سأحكي لكِ عما فعلته جدتك. عندما كنت في شهري الثامن أرسلتني للعملِ عند سيدة فيتنامية تعمل في السفارة لكي أكوي لها الملابس. كويت في اليوم الواحد نحو مئة قميص. وقفت بذلك البطن الكبير، وعلى ساقين متورمتين من الساعة الثامنة صباحًا وحتى السادسة مساءً أمام منضدة الكي. أكوي ملابس الغرباء كي أجني نقودًا لأدفعها مقابل لوازم الولادة، وإيجار المسكن الذي سننتقل إليه بعد أن نترك البيت. تحملت ذلك ثلاثة أسابيع، ثم حملوني بعدها إلى المستشفى.

قلت لها:

- ومن وقتها وأنت لا تكوي الملابس.

قالت لي:

- ومن وقتها وأنا لا أكوي الملابس.

برق، برق، برق.

صبت لي ماءً صافيًا في الكأس التي لم أفرغ منها بعد. كنت أشعر بالنعاس ومرهقة، وربما سكرانة. كانت لوتسيا مرهقة هى الأخرى كأنها انتهت من معركة كبيرة. معركة كبيرة مع إيرينا، وهي معركة ربحناها معًا على أية حال. لم تكن تجمعنا معًا

أحداث كثيرة.

- عندما عدت بكِ من عيادة التوليد وجدت في غرفتي مكتبة جديدة تُوضع في غرف الاستقبال مُغلّفة بقشرة خشبية مطلية على شكل لحاء شجرة البتولا.. ممتلئة عن آخرها بأشياء تافهة، وكئوس، وقطع زينة لامعة، كأنها هناك منذ الأزل.. أتعرفين كيف تبدو الأشياء كأنها في مكانها منذ الأزل؟.. مقعدان، وطاولة صغيرة، ومفرش كروشيه أبيض مُنشّى فوقها.. وفوق المفرش وعاء به حبات بندق. لم يكن هناك أثر للعبي، ولا لكتبي، ولا لأكوابي البلاستيكية، ولا لملصقاتي، ولا لكراسات المدرسة القديمة. تخلصت منها جميعًا.. قامت بطلاء الحوائط. كانت ما زالت رطبة عندما وصلنا إلى هناك.. سريري.. ملابسي.. ثيابك وحفاضاتك.. تخيلي يا ياركا! قامت بعمل ستارة ثقيلة. كانت ذات أهمية بالنسبة لها كي تناسب لون السجادة، ستارة جميلة، طويلة وعريضة.. علقتها في المطبخ.. وفي المقابل ألقت بأشيائنا خارج الشقة. وضعت سريري وملابسي في ثلاث حقائب. أخفتها خلف الستارة شأنها شأن المكنسة. كأنها قمامة كي تجبرنا على الرحيل في أقرب وقت ممكن. كي أعلم أنه لم يعد لي غرفة في الشقة، وأنني صرت عالة عليها.

الابنة الوحيدة لمديرة المدرسة الابتدائية أسلمت نفسها لمجموعة صنايعية. ابنتها الوحيدة التي لم تحصل على الثانوية بعد. ولم تتزوج. رغم أن كل من كانت في عمرها تزوجت. لم يكن مهمًا ممن تتزوج، المهم أن تتزوج. وإن لم تفعل كانوا ينعتونها بأنها ساقطة، أو مومس. وأنا لم أتزوج. كنت أنا تلك الفتاة الغبية، وبقيت كما أنا غبية.. أنت أيضًا ستكونين مثلي غبية، فليس هناك مَن ترثين عنه الذكاء. ياركا! أنا آسفة.. لكن ما العمل.. لا فائدة من

الأسف. اذهبي لتنامي كي تظهري غدًا في الجنازة بصورة جميلة.

وضعت لوتسيا يديها على الطاولة، وأسندت رأسها على يديها، ثم أغلقت عينيها.

قلت لها:

- لوتسيا! تعالِ لتنامي بجواري في السرير!

همست في هدوء بصوت لم أكد أسمعه:

- اتركيني في حالي!

تمددت على سريرها، وانتظرت. مَن سيأتي أسفل الغطاء قبل الآخر. هي أم النوم.

غلبني النعاس. واستيقظت على صوت ضربة من دمية بلاستيكية تطايرت من يد يعقوب رغمًا عنه. تمكن من أن ينقلب على ظهره وأنا نائمة.

كان الطفل في حالة حركة دائمة. لم يضع قدميه أو يديه فوق الغطاء ولو لثانية واحدة. يحرك رأسه كأنه مثبت على تِرس متحرك. تمكنت من لفت انتباهه لبضع دقائق بدمية في يدي، لكنه سرعان ما عبس بوجهه، وصرخ، وراح يرفس برجليه ويرفس، ويرفس. كانت حركاته متقطعة، وعفوية. لكنه أحيانًا تمكن من ضرب الدمية التي أمسكها في يدي. كانت أي ورقة صغيرة، أو مشبك غسيل، أو زخرفة على الوسادة كفيلة بأن ترضي حواسه التي تنمو. اعتقدت وقتها بأني على استعداد أن ألعب معه هكذا مدى الحياة، وأنه ليس هناك أسهل من رعاية طفل أو طفلين، أو حتى جميع أطفال العالم.

علقت في خُطّاف فوق السرير حبات تفاح غضة، وقصاصات أوراق مُلونة، وريش، وملعقة. وبعد نصف ساعة صار لدى يعقوب وسيلة للتسلية. كنت في حاجة إلى أن أذهب إلى الحمام. فخرجت من الكوخ، وتبولت وسط الحشائش.

جمعت في يدي بعض حبات التوت. كانت حلوة المذاق، وطرية. تركَت في كفيّ بقع بنفسجية. حبات التوت تحتوي على العديد من الفيتامينات. هكذا رحت أقول لنفسي. وبالتأكيد لن تؤذي الأطفال. فلا يمكن أن يظلا طوال الوقت لا يشربان سوى اللبن. وحتى اللبن لم يتبق منه الكثير، ويجب أن أقتصد في استعماله. دسست في فمي مرة واحدة حفنة من ثمرات التوت حتى عجزت عن تحريك لساني بين شجيرات التوت. ضحكت، فتطايرت حبة التوت وسط الحشائش.

غمرتني سعادة بالغة وأنا أضع حبات التوت في فمي. أغرقتني كأنها حساء بنفسجي يتدلى فوق ذقني ورقبتي وأنا أضحك. أضحك بصوت عالٍ، وقد حنيت رأسي إلى الخلف. وعَلِقت حبة كبيرة تحت لساني. رحت أتمرغ وسط الحشائش. كانت الشمس تسلط أشعتها إلى وجهي مباشرة، فأغلقت عينيّ. شعرت كأنني سبّاحة تحملها موجات من الحشائش. وليس أمامي سوى أن أتابع من وسط الموج دخانًا أزرق يتبخّر من سفينة بخارية. إنها سفينة قادمة من أحلامي. استلقى عليها شخصان صغيران هائمان. لم أر البحر في حياتي، لكني هكذا تصورت نفسي أتأرجح في سعادة عند البحر.

دسست باقي التوت في فمي، ثم نشّفت يدي في الحشائش. شعرت بأكمة صغيرة صلبة أسفل يدي اليمنى. استغرق الأمر وقتًا حتى تذكرت تلك البقعة الغريبة وسط سجادة متناغمة من الحشائش، وما تخبئه تلك الأكمة تحتها. إنها حكاية القط الميت الحزينة. بدت لي بعيدة وضبابية حتى كدت لا أصدق أنها حدثت بالأمس القريب. ربما كان جسد القط وهو في قبره الصغير ما زال محتفظًا بشكله كقط، ربما كان مُتربًا بعض الشيء، لكنه ما زال قطًا. يا إلهي!

كم كنت غبية عندما قررت أن أحفر له قبرًا في الحديقة. غضبت من نفسي كثيرًا. الآن سوف يُخيف الطفلين، ويُشتِّت أفكاري. كانت على استعداد أن أحفر القبر، وأنزعه منه، ثم ألقيه عند جاري من فوق السور طالما اضطررت إلى ذلك.

هممت واقفة وأنا منزعجة، ثم غسلت يديّ في برميل به ماء الأمطار، فقد شعرت بأني ملوثة بشيء يضر بالصحة. قطفت بضع حبات التوت وأنا في طريقي عائدة إلى الكوخ.

كنت جوعانة. تذكرت أن آخر رغيف خبز مازال مُغلّفًا في الكيس البلاستيكي. عثرت على كوب به مربى مشمش فوق الرّف. جلست عند حافة السرير الذي ينام عليه يعقوب. كانت الأشياء المعلقة في المشبك فوق السرير تدور أمام عينيه. بسط يعقوب يديه، وجال ببصره. نادرًا ما تمكن من التنسيق بين حركة يديه وعينيه بحيث يمسك بالملعقة التي تتمايل فوقه. غمست رغيف الخبز في المربى، ثم دسست إصبعي أيضًا في المربى، ووضعته في فم يعقوب. كانت لثته الخاوية من الأسنان قوية. وكان الطفل يمتلك قوة ضغط كبيرة في فكيه. دسست إصبعي في فمي، ورحت أتحسس به لثتي. كانت جميع التفاصيل الصغيرة لا تترك في نفسي أثرًا كبيرًا. لم يخطر ببالي على الإطلاق أن أتعمق في مثل تلك التفاصيل. لم يحدث من قبل، ولا حتى وأنا أعاني من ملل لا ينتهي، أو أقضي ساعات ترقبٍ عند النافذة، أو أنتظر على المحطة، أو أركب الحافلة بلا هدف، أو أُحصي أرصفة الحي. لم أكن أفكر فيها إلا في اللحظة التي أراها فيها.

كان كل شيء في الطفلين يجذبني. لم تكن لديّ فرصة أكون فيها قريبة من الناس مثل تلك الفرصة. ألمسهم من دون أن يعلقوا على ما أفعله. كان الطفلان مستلقيين بجواري. طفلان لا حيلة لهما. لا

يحتجَ أيٌ منهما على شيء أفعله. لم أكن مشكلة لهما. لم أكن غبية. لم يُقيّم أي منهما سلوكي. لم يقولا لي إني غبية، وكئيبة، ومتمردة. وأنا بدوري أضغط على فصوص آذانهما، أشتمّ رائحة شعرهما ـ مرات ومرات ـ أحملهما، أستطلع وزنيهما، وألاطفهما. كنت أشعر في القرب منهما بدفء رائع. كنت أشعر بالراحة، وبالثقة في النفس.

أخذت من الكوب آخر بقايا المربى، وأعطيتها ليعقوب ليلعقها. قبض وجهه، وأخرج لسانه المدبب، وراح يحاول الوصول إلى الكوب بكل عنف، وبكل ما يملك من قوة لم تتشكل بعد. سحقت بين أصابعي حبة توت كبيرة، وأعطيتها له ليتذوقها أيضًا. لكنه لفظها، رغم أنها كانت على ما أعتقد حلوة المذاق. لذلك دفعتها إلى فمه مرة أخرى، وأنا أقول له:

ـ ثمار التوت مليئة بالفيتامينات الضرورية لنمو صحيّ.

مرت ساعة ونصف الساعة على آخر مرة أطعمتهما فيها. كانت الساعة الواحدة ونصف الساعة. ومر أكثر من أربعٍ وعشرين ساعة على آخر مرة تناولت فيها وجبة كاملة. تناولت فيَ المساء زبادي، وعلى الإفطار رغيفين من الخبز، وفي الغداء رغيفًا واحدًا بالمربى مع حبات مع التوت. بدأت أشعر بألم في معدتي.

قلت لنفسي إن عليّ أن أحل مشكلة الطعام. ورحت أفكر في خطة ما. وهنا استيقظت أديلا فجأة وهي تصيح. انطلَقت في الصراخ بلا سبب، وبلا مقدمات، وبلا أي داعٍ. صراخ من القلب، يخترق رأسي. أفزعَت يعقوب أيضًا. لكنه لم يكنَ في حاجة إلى أكثر من أن أحمله إلى الخارج في العربة، أأرجحه فيها قليلًا، فعثر من جديد على حبل صغير راح يعبث به في هدوء.

كان الأمر أصعب مع أديلا. كانت تتلوى، وتعتدل وسط موجة قوية من التشنجات استجمعت فيها كل قواها التي حصلت عليها خلال حياتها التي لا تتجاوز بضعة أشهر. كانت تسعى إلى أن تنزلق من على صدري، وتدفعني وهي تضرب كي تقوم بأخطر حركات لم أكن مستعدة لها. لم يكن ممكنًا أن أضعها فوق السير، فربما تسقط ولن أتمكن من منعها. في النهاية تمكنت من أن أضع بطانية على الأرض. سويتها بقدمي، ثم وضعت عليها الطفلة وهي تتلوى. ظلت أديلا تصرخ بشدة، وأنا أهرول حولها، أحمل الدمى في يدي، ألاطفها، أرفعها من على الأرض، ثم أضعها مرة ثانية. وفجأة توقفت عن النشيج، والبكاء، والتنفس أيضًا. رحت أهزّها قدر استطاعتي كي تستفيق، وتلتقط أنفاسها.

لم تستفيق، فهرولت إلى الحديقة.. كأنني أنتظر أن أعثر وسط الحشائش أو فوق الشجرة دمية سحرية علّها تساعد الطفلة على أن تهدأ. أخذت نفسًا عميقًا أمام الكوخ. كان جسمي كله ينتفض. خطر لي أنها ربما تكون جوعانة من جديد. فهرولت إلى الداخل، وملأت القارورة الملوثة بماء بارد تقريبًا، كي أصنع لها حليبًا على وجه السرعة. كانت أديلا تتلوى من جانب إلى آخر حتى صار وجهها كله مبللًا قبل أن أضع فتحة القارورة في فمها. ومن جديد بدأت تسعل. قلت لنفسي بأنني لو وضعت القارورة في فمها وتجاهلت سعالها ربما تفهم أن اللبن يسيل في حلقومها وتبدأ في شربه بطريقة طبيعية.

لم يكن أمام أديلا إلا أن تبتلع تلك المياه البيضاء. دفعت حلمة الزجاجة بلسانها إلى الخارج بعد أن شربت نصفها، وراحت تسعل نفس السعال الغريب المتقطع. بدأ اللبن يتدفق من فتحتي أنفها. وواصلت السعال مرة أخرى. لكنها صارت مرهقة إلى درجة أنها

سمحت لي أن رفعها من على الأرض، وأحملها وأنا أدير وجهها ناحية الأرض. كانت الأرض متسخة من اللبن. ركلت البطانية المتجعدة، وألقيت بها في ركن الحجرة كي لا أتعثر فيها بقدمي. كانت الدمى مبعثرة في كل مكان، والمدفأة مُغبّرة بمسحوق أبيض. انطفأت النار في موقد المدفأة، وامتلأ الكوخ بالدخان.

هدأت أديلا. صارت مبللة وكان يجب أن أغير لها ملابسها. وضعتها على بطنها، وأحطتها باللعب. ثم أسرعت لأرى يعقوب. كان يرقد العربة وقد استدار على بطنه. كان عربة الأطفال كبيرة لحسن الحظ وعميقة، لا تسمح له بأن يسقط منها.

فكرت أنه قد يكون من الأفضل أن أضعهما مجتمعين أمام عيني كي لا أضطر إلى السعي هنا وهناك. بدأت أشعر بالإرهاق. فلم يكن سهلًا عليّ أن أرعى طفلين مرة واحدة. لكني ظننت أنه مجرد ارتباك يحدث في بداية الأمر، وسوف ينتهي بمجرد أن أطعمهما، وألبسهما ملابس جافة ونظيفة. بعدها سيحين وقت اللعب، والملاطفة.

لكن الحقيقة كانت خلاف ذلك. فبعد أن غيّرتُ لأديلا ملابسها بكل نجاح، ومن دون أدنى مشكلة؛ فإذا بيعقوب الذي ألبسته منذ ساعتين ملابس نظيفة صار مبللًا تمامًا. وما أن استبدلت له ملابسه حتى انفجرت أديلا في البكاء. لم تهدأ إلا بعد أن حملتها بين يدي. استلقى يعقوب الغاضب في العربة وحده وأنا أمشي في أرجاء الحديقة أحمل أديلا. تجولت فوق الحشائش الطويلة وأنا أفكر في أن أهذّب جزءًا صغيرًا من الحديقة عندما يتسنى لي الوقت كي لا أجهد نفسي عبثًا وحتى يصير تجوالي فيها بهما أكثر راحة.

كنت أنوي أن أضع الطفلين بعد الظهيرة في السرير كي يناما، وأحاول تهذيب الحشائش، ثم أبحث عن طعام أتناوله، وأغسل

الملابس، ثم أجلس لكي أستريح. بدأت أشعر بالإرهاق، وبحاجة إلى أن آخذ قسطًا من الراحة. كان بطني يؤلمني. لكني تناولت على الأقل حبات التوت رغمًا عني كي أملأ جزءًا من معدتي الخاوية. لم أقو على مواصلة حمل أديلا بين يديّ، فوضعتها في العربة، ثم سحبت العربة، وتجولت بهما في أرجاء الحديقة. لم تكن مهمة سهلة بسبب الحشائش العالية والأحجار. كانت عجلات العربة تتعثر في سيقان الحشائش، وصارت العربة ثقيلة وبطيئة الحركة.

نثر عجائز الحي الرماد فوق التل الوحيد الذي كنا نتزلج عليه في الشتاء الماضي. كومة التراب البائسة التي ترتفع عن الأرض مترًا ونصف المتر، والتي استطعنا بناءها بين العمارات في شهر ديسمبر من ثلج جمعناه من جميع أرجاء الحيّ. لكننا لم نستسلم. فوضعنا طبقة من الشمع أسفل الزلاجات كي لا تتطاير منها شرارات الاحتكاك، ثم رحنا نتزلج فوق التراب، وعلى الإسفلت مباشرة. كان العجائز يتطلعون إلى الهدوء قُبَيل أعياد الميلاد، أما نحن فكنا نسعى إلى الاستمتاع بتزلج جيد. كنا على استعداد دائم لمواصلة الكفاح. سقطت الثلوج من جديد، وكونت طبقة منتظمة في جميع أرجاء مدينة براتسلافا، وفوق الهضاب، وفي الكروم. تركنا التل الأسود القابع وسط أرض الحي المستوية، وانتقلنا إلى الكروم.

نام الطفلان أخيرًا بعد تهدّج عنيف في العربة. وضعتهما في ظل الكوخ. صارت الساعة الثالثة والنصف، وأصبح الجو باردًا، وانتشرت السحب. كان الوقت يمر بسرعة من دون أن أدرى. اشتد بي الجوع حتى إني لم أقو على التفكير في شيء غيره. لم أعثر في الكوخ على شيء يمكن أكله سوى علبة معجون طماطم. كانت حبات التفاح فجّة. وتساقطت حبات العنب قبل أن تنضج. وبدأت

معدتي تنزعج من أكل التوت. خطر ببالي شيء واحد. أن أبحث في كوخ جيراننا عن طعام. كان يجب أن أتخذ قرار سريعًا قبل أن يستيقظ الطفلان من جديد. لم أكن أتوقع أن يناما كما كنت أتخيل، مثل أي توءم يناما معًا. يناما لوقت طويل وبهدوء مثل جميع التوائم.

عبرت السور، ثم ألقيت حجرًا على النافذة فكسرتها. تسللت منها إلى داخل الكوخ، ورحت أتفحص جميع أرجائه. عثرت في إحدى الخزانات على أربع وعشرين علبة سمك محفوظ، ونحو خمسين علبة شاي من جورجيا. كانت المأكولات كما بدت من شكلها تعود إلى تاريخ قديم. قادمة من بلد لا أعرفه، كما ظهر ذلك من الكتابة الموجودة عليها. وجدت قطعة من لحم مقدد حامضيّ الطعم يصدر رائحة مميزة، مُغلّفة في ورق أبيض، ومُعلّقة خلف الباب. فأخذتها مع عبوة صغيرة من الباستا. ألقيت أيضًا بعض ألواح الخشب خلف السور، صندوقًا فارغًا من الورق المقوىّ، ودلوًا نظيفًا. وضعت الخشب في الصندوق، وتركت الدلو في الخارج.

طهوت الباستا بمعجون طماطم بينما أديلا ترقبني بعد أن استفاقت من نومها. كنت مضطرة إلى أن آخذها إلى داخل الكوخ كي لا تُوقظ يعقوب. شعرت بالتوتر. كانت أديلا تموء مثل قطة جوعانة. انطفأت النار في المدفأة من جديد فجأة، وامتلأ الكوخ بالدخان اللاذع. وكأن الباستا تعصى على أن تدخل جوفي.

صارت الحديقة كأنها ضاقت فجأة. شعرت بحاجة إلى أن أتمشى قليلًا كي أطفئ اللهب الذي شبّ في رأسي. فبعد شهرين من نظام يوميّ خامل أجد نفسي فجأة مُجبرة على العمل بكل طاقتي، أتحمل الكثير من الأعباء. لكني لم أجرؤ على أن أترك الطفلين وحدهما. راحت أديلا تصرخ بكل طاقتها من دون سبب واضح.

لم أتحمل، فانطلقت كالمجنونة على الطريق، نزلت فوق التل تجاه محطة القطارات. وبعد مئة متر استعدت قواي من جديد، وانتبهت، ثم انطلقت عائدة إلى طفليّ.

شعرت بالخجل من نفسي. لقد فشلت. فشلت من اليوم الأول لأني لم أتحمل سماع بكاء طفل. سماع بكاء عاديّ. لأول مرة أشك بالفعل في قدرتي على رعاية الطفلين. بكاء عادي جدًا، لا أكثر ولا أقل. لم يحدث أمر جلل.. كيف فعْلت ذلك؟ هل أصبحت مثل دوروتا الحمقاء؟ أو مثل لوتسيا؟ لا يمكن أن أدفن رأسي في الرمال عند أول مشكلة، وأختبئ حتى تنتهي الحرب. إنها طريقة لوتسيا في الحياة. تهرب من المشكلات وترفع يدها عنها.

أقسمت بحياة هذين الطفلين أني لن أكون جبانة بعد اليوم.

تذكرت يوم وجدت إيرنا في الحمّام. وقفت يومها مثل التمثال عند عتبة باب الحمّام أتطلع إلى جسد امرأة عجوز ملأته التجاعيد. ومن دون أن أدري دفعت قدمي أسفل الباب كي لا ينفتح عن آخره تحت ضغط قدميها المقوستين، فأرى الحقيقة كاملة. سمعت بعدها طرقًا في رأسي، كأن قطبي مغناطيس وجدا الاتجاه الصحيح، فبدأت أفكر بروية وتدبر في الخطوة التالية.

كانت إيرينا ميتة وعارية. لم يكن ذلك مشهدًا يبعث على البهجة. أسوأ ما في الأمر أني لم أر وجهها. لم تكن جدتي إيرينا التي أعرفها. كانت مجرد جسد بلا رأس مستندًا إلى غسالة الملابس.

غطيته بملاءة بيضاء، وهو ما جعل رجال الإسعاف الذين اتصلت بهم على الفور يثنون عليّ. في البداية اتصلت برجال المطافئ. لم يكن في الإمكان اعتبار تصرف كهذا على أنه فشل نظرًا لحداثة سني، وللموقف الذي وُضِعت فيه. لم ألمس شيئًا، وهو ما أثنى عليّ بسببه رجال الشرطة الذين اتصل بهم رجال المطافئ. فصلت الكهرباء عن الشقة. لا أعرف حتى اليوم السبب الذي دفعني لأن أفعل ذلك. قلت لرجال الشرطة إني سأذهب عند جارتنا، وأنتظر أمي عندها. لم يتحقق أحدهم مما قلته. لم يرسلوا لي أي دعم نفسي. وقفت أنتظر في منطقة الميزانين، وأتظاهر بإجراء حوار مع

جارتنا. ثم عدت بعدها إلى الشقة، وأخذت من أسفل حشية السرير الذي تنام عليه إيرينا مئة كرون، ثم ذهبت لشراء زجاجة كوفولا، ورقائق بطاطس مقلية. انتظرت لوتسيا على درج السلم؛ فلم أكن مستعدة لانتظارها بالشقة وحدي تحت أي ظرف.

كان النزول من فوق التل سعيًا مفيدًا جدًا لي. اختفى الهلع الذي كنت أشعر به، وصار الصراخ مقبولًا. رحت أعد اللبن لأديلا المتمردة بكل همة، ثم حملت جميع الأواني المتسخة إلى الخارج. تركتها في الدلو بجوار صنبور الماء على أمل أن أنظفها قبل أن أحتاج إليها. ألقيت نظرة على يعقوب وأنا ذاهبة إلى الحديقة.

كان الأمر مثل ركوب عجلة ضخمة تدور على سلاسل. تلتقط حواس الإنسان من عليها نفس الأشياء، وبنفس الترتيب، وعلى فترات قصيرة متتابعة. هي رحلة تصيب الإنسان بالملل والإرهاق. السرعة تبدد كل سعادة. كنت أشعر بسعادة غامرة وأنا أتطلع إلى وجه يعقوب وهو نائم. أنظر إلى على فمه الموارب، وصدره وهو يعلو بسرعة بينما أمسك بالقارورة في فم أديلا. بعدما فرغَت من شرب اللبن، حملتها وهي منتصبة القامة، وتجولت بها في الحديقة كي يستقر اللبن في معدتها، ولا يعود إلى المكان الذي دخل منه. بعد جولتين من السعال أدركت أن معدة أديلا مثل وعاء بلا غطاء، لا يستقر فيه سائل. الحل الوحيد هو أن أحملها بين يدي.

كنت عندما أحمل أديلا يبقى يعقوب وحده. كان بفضل معدته التي تعمل بصورة جيدة يتمتع بحركة نشطة. كان طفلًا قويًا في استطاعته أن ينقلب على بطنه، ثم يستسلم للنوم. كان عليّ أن أنتبه كي لا يتدحرج من فوق السرير، وتنقلب بهما العربة. كنت مضطرة إلى أن أضع عينيّ في وسط رأسي، وأفعل عدة أشياء في وقت واحد. لم تكن هناك فرصة أن أجلس بلا عمل، وأستمتع بأمومتي

المبكرة. عند الساعة السادسة وضعت في القارورة آخر جرعة من الحليب. الدور الآن على يعقوب، أخذ حصته. لم تكن المياه الملونة تكفيه تمامًا. فبدأ يتذمر، ويتبرم من الجوع، لم تنفع معه الحلمة الصناعية. كان ذلك أمرًا مزعجًا للغاية. كان حتى تلك اللحظة طفلي المفضل الذي يهدي من روعي بدفئه وودّه.

تركت الطفلين في الكوخ. لففت خصر يعقوب بأحد الأربطة، وأوثقته في جانب السرير كي لا يسقط. وعلى الجانب الآخر وضعت أديلا بين البطانية والدمى. أطفأت الفحم المشتعل في المدفأة ثم أغلقت النافذة، وغطيت عربة الأطفال بلوح من الصفيح المتعرج كي لا يراها أحد. ثم أغلقت بوابة الكوخ، وأوصدتها بالمفتاح. بعدها توجهت إلى داخل مستوطنه الحدائق. أتوقف عند كل سور أقابله، وأتساءل: ما مدى احتمال أن أجد عند مُلّاك أحد البيوت حليبًا طويل الأجل. إنها نهاية شهر أغسطس، موسم جني العنب. كانت منطقة الأكواخ خاوية تقريبًا، لا أسمع فيها صوتًا. لم أر عن بعد سوى دخان من نار مشتعلة. يبدو أن أحدهم يحرق أولى الأوراق المتساقطة، أو أن بعض المشردين يطهون لحمًا على النار. لم أعرف إن كان من الأفضل أن أحاول تحطيم نوافذ أحد الأكواخ المغلقة التي أعرف أن أصحابها المتقاعدين يترددون عليها بصورة منتظمة. أم أسرق كوخًا مفتوحًا يجمع أصحابه فيه العنب.

في البداية فكرت في كوخ امرأة عجوز كانت تزيل العشب الضار. كانت حركة يديها بطيئتين ومتشنجتين مثل العرائس المتحركة. لم أفكر طويلًا. قفزت وأنا أحني ظهري بين شجيرات الجُلجُل النابتة حتى وصلت إلى الكوخ. كان بابه مفتوحًا على مصراعيه، ويدعوني إليه في جولة بداخله. تفحصت خزائن المطبخ المبعثر، وصناديق البصل، والأكياس البلاستيكية، والدلو. لم أعثر على أي

أثر لحليب. لم أجد أي شيء صالحًا للطعام.

قلت لنفسي بخيبة أمل:

ـ يبدو أن العجائز يعيشون على الهواء والذكريات مثل إيرينا.
وأخذت مئتي كرون من باب الاحتياط من حقيبة النقود الملقاة فوق طاولة صغيرة. ترددت للحظات. وبقفزة تشبه قفزات الهنود عدت إلى الطريق مرة أخرى من وراء ظهر السيدة. أسرعت الخطى وأنا أشعر بأن دهرًا من الزمان مرّ، ولم أحصل على شيء سوى نقود لن يأكلها الطفلان.

حطّمت نافذة صغيرة في كوخ أنيق حديث الطلاء يقع على حافة مستعمرة الكروم. عثرت فيه على توابل، ودقيق، وبعض الفاكهة المطبوخة، وولاعة، وثلاث زجاجات بيرة. لم آخذ سوى الولاعة والدقيق. أزحت كسرات الزجاج بقدمي من الشرفة، وتركتها وسط نباتات ذابلة.

واصلت السير على طريق بين الكروم حتى وصلت إلى كوخ نائي مهجور، يقف مثل شبه جزيرة تشرف على باقي الكروم. يتصاعد من شبه الجزيرة خيط دخان رفيع. درت حول سور الحديقة إلى أن عثرت على فجوة فيه. نمَت خلف سور الحديقة وبين أشجار البندق وشجيرات العنب الشيطانية نباتات السرخس وعيدان الذرة. نبتت في تلك المنطقة بالفعل على غير العادة. كان المرور بين عيدان الذرة الصلبة سهلًا، إلى أن وصلت إلى منتصف البستان. تركت الدقيق المعبأ في كيس من الورق وسط الحشائش كي أتحرك بسهولة بيدين فارغتين. يقف في وسط الجزيرة البرية بيت صغير مصنوع من رقائق الصفيح وألواح الخشب. يوجد بجوار البيت مبنى يشبه غرفة تجفيف عَلقت فيه حِزمات الحشائش. وأمام

غرفة التجفيف توجد منضدة قديمة للكتابة نُزعت منها الأدراج. وخلف الطاولة يجلس فتيان في سن العشرين تقريبًا. كانا يرتبان أحزمة النباتات المجففة، أو يجزانها، أو ربما يسحقانها، أو شيئًا ما يفعلانه بها. كانا يدخنان في صمت ويسويان الأوراق المتساقطة في أيديهم بكل تركيز. رحت أراقبهم للحظات. لكن ما يفعلانه لم يلفت انتباهي بقدر ما كانت تفعله السيدة العجوز. لم يكونا وسيمين على أية حال. بثور، وملابس داكنة قذرة. ربما كانت لوتسيا لتفعل معهم شيئًا. تنزع عنهما ملابسهما، وتنقعهما في حوض الاستحمام كما تضع حبات الخيار الحامض في الخل، وتتعاطف معهما كما يشاءان، ثم تتركهما ينامان في سريرها.

عثرت على ما يقرب من نصف لتر من الحليب في علبة مفتوحة، ومأكولات أخرى عثرت عليها في علبة كانت ملقاة وسط الحشائش بين الكوخ وغرفة التجفيف. كان الزحف نحو غرفة التجفيف والتقاط الحليب لا يقل صعوبة عن الذهاب إلى السوبر ماركت، والانصراف من دون دفع قيمة المشتريات. لكن الجوع وبعض الخبرة كانا كافيين للتغلب على الأمر. وحقيقة أنهم حتى لو أمسكوا بي لا يمكن أن يكون ما سيفعلانه بي أسوأ من التوبيخ الذي ألقاه في المدرسة. بالتأكيد أن شابين مخدرين مثلهما لن يستطيعا الوصول إلى الطريق عبر عيدان الذرة، ولن يتمكنا من المرور برأسيهما من فتحة السور. سأهرب قبل أن ينهضا من مكانهما. وسأخطف منهما قطعتي البسكويت، وأخبئهما تحت القميص.

هرولت فوق الطريق، وعدت إلى الكوخ. نزل الظلام بعد أن أنهيت المهمة بنجاح، وانتشرت طبقة متصلة من السحب الداكنة. حل الظلام على الكروم، وصار الهواء باردًا. لم أجنِ من كل ذلك سوى

مزاج سيئ. اقتراب الليل لا ينبئ بأي خير. لم أقرر بعد إن كنت سأبقى مع الأطفال في الكوخ، أم سنذهب معًا إلى الحيّ. أحيانًا كانت الكهرباء في الكوخ تُقْطَع، وتُغمر الأرض بالماء بعد كل عاصفة كبيرة. لكن كان واضحًا أن العاصفة لن تهب وقتها، بل ربما نزل مطر خفيف متواصل.

أبطأت من خطواتي بعد أن شعرت بوخز في جنبي. نظرت إلى المدينة من خلاف فتحة بين الشجيرات. تذكرت لوتسيا. ماذا تفعل الآن، وبما تشعر. كانت بعيدة. حلم قادم من بعيد. سفينة قتالية ترسو في أعماق الذاكرة، وتنتظر الأوامر. شعرت بأني لم أرها منذ سنوات. وبصعوبة حاولت أتذكر فيما تحدثنا آخر مرة التقينا فيها. الطفلان دفعا بها إلى طريق آخر.

جميع اهتماماتي صارت على الهامش بفضل الطفلين. كان من الصعب تركيز أفكاري على شيء محدد عندما سمعت من عند بوابة الحديقة صوت عويل الأطفال المكتوم يناديني. انطلقت، وفجأة تبخرت من رأسي جميع الأفكار العقيمة.

عدت بعد ساعة. انتشر الظلام في كل مكان خلال تلك الساعة في البيت الصغير. كان عليّ أن أشعل النور كي أصل إلى الطفلين. كان يعقوب يهتز على حافة السرير، ويصرخ. رأسه يترنح في الهواء مثل رأس عود فجل أحمر موضوع على حافة الطاولة. كان الرباط منفلتًا، ومتشابكًا بين ركبتيه. بحثت عن أديلا وسط الوسائد، والدُمى. كانت غارقة في العرق، لكنها في حالة جيدة. تنفست الصعداء. لم أتوقع كل تلك الحيوية في الأطفال. عانقت كلًا منهما، وأمطرتهما بالقبلات، ثم حملتهما في أحضاني واحدًا تلو الآخر. همست لها في أذنيهما، وحكيت لهما عن رحلة الطعام التي قمت بها. بدّلت لهما ملابسهما. ثم جلست ألاطفهما.

لم تكن لدي أي مشكلة في حملهما، ورفعهما، وتغيير ملابسهما. لم أشعر أنهما ثقيلان أو ضعيفان. جلسنا نلعب في السرير لمدة نصف ساعة. أكلت خلالها قطعتي الخبز، وشربت بعض الحليب. انتشر الظلام في الخارج تمامًا. وضعت من باب الحيطة بطانية فوق النافذة كي لا يرانا أحد، ويعرف أن هناك ضوءًا قادمًا من داخل الكوخ. بعد أن تأكدت من أن الطفلين هادئان، ذهبت إلى الخارج لبضع دقائق، وجلست وسط الحشائش.

كانت الحشائش مبللة من المطر الخفيف البارد. كان الجو باردًا هو الآخر. انتهى الصيف بالتأكيد. فدائمًا ما ينتهي الصيف في بداية شهر سبتمبر بغض النظر عن درجة حرارة الهواء. كانت أشجار التفاح تزمجر، وتصارع بجعجعتها المتواصلة من أجل أن أنتبه إليها. السماء مفعمة بضوء المدينة. لم تكن سوداء ولا زرقاء، بل باهتة اللون كأنها الخواء. لم يكن النظر إليها مبهجًا على الإطلاق. كنت دائمًا أعتقد أن السماء ليس بها سوى عشرين أو ثلاثين نجمة في العادة. وكل الناس في العالم، في نصفي الكرة الأرضية يرون تلك القهوة الباهتة التي تمثل السماء في الليل. لم أرَ ظلامًا حقيقيًا حتى بلغت الثالثة عشرة من عمري، عندما انتقلت لأول مرة مع لوتسيا خارج المدينة. حتى ذلك الوقت لم أرَ جمالًا ولا عمقًا بهذه الدرجة.

قضيت شهري الإجازة أتسكع في أرجاء الحي. في بعض الأيام لم أرفع قدمًا من مكانه، فقط كنت أجلس على الأريكة وأتابع التلفزيون.. وعندما افتتحوا أول متجر للأطعمة قضيت ساعات أتنقل بين الأرفف فوق الزلاجات. وصرت مرهقة للغاية.

أحيانًا كنت أشعر بالاعتلال من الجوع والإرهاق. وعندما أغمض عينيّ أشعر بدوار في رأسي. رغم ذلك كنت سعيدة. فالأطفال

لديهم ما يحتاجونه. حصلت على الحليب، وبعض النقود. صارت خطواتي أكثر ثقة مما كانت عليه في البداية. استطعت أن أعول على حدسي، وزادت ثقتي بنفسي. صرت صبورة وهادئة. لم أشك لحظة بأني أفعل الصواب. لم يكن من المفترض أن أسرق، لكن عندما يتعلق الأمر بالجوع تصبح قضية الذنب هامشية. هكذا كنت أقول لنفسي. وهكذا يتحدثون في الكتب. هل يُعاقب الفلاح الفقير الذي يسرق الخبز من أجل إطعام أطفاله؟ على أية حال لم يرني أحدهم يومًا وأنا أسرق. لكن كل الناس يسرقون. كانت لوتسيا تقول إن كل ما يفعله الآخرون هو أنهم يسرقون. والحياة تسير. أسفت لحال السيدة العجوز، فلم يكن عليّ أن أسرقها، لكني لم أندم على ما أخذته من الفتيان. فهما يعرفان جيدًا كيف يحصلان على الأموال.

غسلت الأواني المتسخة، والزجاجات. وتمكنت من تنظيف الطفلين بفوط مبللة، ودهان جسميهما بالمراهم قبل أن يبدءوا في البكاء جوعًا. رفعت الدمى من فوق السرير، وتركت الحليب المُعلّب يغلي. نامت أديلا فوق ذراعي وأنا أحملها وأطوف بها في الكوخ. ثم أرجحت يعقوب على ركبتي. ضبطت المُنبّه على الساعة العاشرة، ثم تقدمت من الطفلين النائمين، وغطيتهما بالبطانية. ورحت أحمد الله على أننا بصحة جيدة، وقضينا يومًا جميلًا. بعدها بدقيقة استسلمت لنوم عميق.

استيقظت قبل العاشرة على صوت جلبة في الخارج. أغلقت المنبه ثم خرجت. رأيت ذيل قطة بيضاء وسط الحشائش بالقرب من سور الحديقة. كانت السماء تمطر. عدت إلى الداخل، ثم دفعت بطاولة صغيرة، وعلب من الورق المقوّى نحو السرير تحسبًا لأن يسقط الطفلان. كان الطفلان يغطان في نوم عميق بلا حراك أو تبرم. كان غريبًا أن أراهما هكذا من دون حركة. ألقيا بأيديهما فوق البطانية، أصابعهما الصغيرة تبدو كأنها أوراق نابتة. لم يكن لدي وقت لمتابعتهما أكثر من ذلك. كنت مضطرة إلى أن أصل إلى سوبر ماركت مفتوح طوال الأربع والعشرين ساعة لشراء حليب، وحفاضات، وبعض الطعام لي. أردت أن ألحق بآخر حافلة وأنا عائدة إلى هنا قبل أن يستيقظا.

أخذت النقود، وأغلقت الباب، ثم انطلقت من على التل وبين مواقف السيارات، ثم أخذت طريقًا مُختصرًا عبر خطوط القطارات حتى وصلت إلى محطة الحافلات. لحقت بالحافلة في آخر لحظة. لم ألحظ في تلك الهرولة وجود رجال شرطة حول المحطة. لم يكن لدي نقود معدنية، لم يكن معي سوى مِئة كرون أخذتها من تلك السيدة. فجلست في الحافلة من دون تذكرة.

سقطت على المقعد وأنا أشعر بالراحة، اتكأت بجبيني على النافذة الباردة ورحت أنظر إلى قطرات المطر تسيل في خطوط متعرجة فوق الزجاج، وتتساقط. عندما التقطت أنفاسي وبدأت أشعر بالإعياء وبالأجواء من حولي رأيت كريستيان الصغير. ذلك الفتى الذي يسكن في العمارة المقابلة. كان يجلس وهو يرتدي ملابس بيضاء بالكامل فوق المقعد الأول خلف السائق. عرفت على الفور أن في الأمر شيئًا غير طبيعي. فلم يكن مسموحًا له يومًا ما

ركوب المواصلات العامة بمفرده، أو البقاء خارج البيت بعد هبوط الظلام. كان يثق بالناس سريعًا، وبالتالي لم يكن حريصًا. كان الجميع يعرف عنه ذلك. كانت أمه تدافع عنه باستماتة عند حدوث أي مشكلة، حتى إنه لم يجد فرصة لأن يتعلم الدفاع عن نفسه، وأن يقول لا. لم يجد فرصة أن يقرر بسرعة ومن دون مساعدة من أحد. أن يحرق أصابعه. لذلك كان كريستيان مثل بُرعم نائم وملفوف في غلاف قوي مُحكم الإغلاق. لم يشعر بالجوع يومًا أو بالعطش. لم يرَ الظلام الحالك. لم يشاهد أفلام العنف في التلفزيون. لم يدق عصًا في جسد كلب ميت. كان كل ما يخيفه قادم فقط من داخله. فقط من خياله الخاص.

كان كريستيان شاحبًا، ومنزويًا على نفسه كأنه يريد أن يصغُر ويتحول إلى نقطة أسفل المقعد. يتخذ طريقه بفرده، لا يراه فيه أحد. جلست خلفه في هدوء على مقعد مزدوج خالٍ، ورحت أرقبه للحظات.

- كريستيان!

ناديته بصوت منخفض وهادئ للغاية قدر استطاعتي. انتفض، وراح يتمتم ويتلعثم من دون أن ينطق كلمة واحدة. وضعت يدي فوق كتفه، وقلت له:

- كريستيان! إنه أنا، ياركا، لا تخف مني! إنه أنا!

تضاءل كريستيان أكثر فأكثر، تقوقع على نفسه، ودس رأسه بين كتفيه. سحبته من الفانلة، وأجلسته بجواري على المقعد.

همست له، وقلت:

- انتبه وتصرف بطريقة طبيعية! وإلا سيقبضون عليك.

انتصب كريستيان على الفور. اعتقد أنه بذلك أكد ما كنت أظنه. إنه يمر بتجربة الهروب من البيت لأول مرة في حياته.

- أين تذهب؟

- لا أعرف.

- كف عن الأنين يا كريستيان، وإلا سيشكون فيك!

امتقع لونه أكثر وهو يحاول أن يتوقف عن البكاء، ويدفع في نفسه الخوف مما اقترفه. كنت أعرف الأطفال الهاربين. كانوا يحاولون ألا يراهم أحد، إلى درجة أنهم يلفتون أنظار كل من حولهم.

خاطبته همسًا قائلة:

- تعال معي! وسنجد طريقة لمعالجة الأمر.

ثم أمسكته من يده. قاومني لكن بشكل رمزيّ، فقد كان صبيًا. رغم أنه أصغر مني سنًا وخائف لدرجة الذعر، فقد أضاء مصباح في رأسه يقول له:

- ممنوع اللمس! لا تلمس فتاة مهما كانت الظروف، ما زال الوقت مبكرًا على هذا، لا تفعل!

التزم كلانا الصمت طوال الطريق. لكنني شعرت بأن كريستيان قد بدأ يسترخي بالتدريج، ويتخلص من الخوف والشك القابعين في داخله. من الآن لم يعد وحيدًا.

الأطفال صغيرة، تعيش قريبة من الأرض. لذلك يظلون يحتفظون بأشياء كثيرة طيبة من هذه الأرض. الأطفال ترى كل شيء كبيرًا، وكل شيء هامًا. لم يسمعوا بعد عن الفضاء، لا يمكنهم أن يقارنوا بين أنفسهم وبين الكون الفسيح. أرواحهم طاهرة ورقيقة وهشة مثل ورق مصنوع من الحرير. لا يمكن لأحد أن يُكبّلهم أو يضغط عليهم بشدة. وإلا سينكمشون. لا يمكن لأحد أن يفرض عليهم الحقيقة كما يراها هو، ولا أحلامه ولا خسارته. وإلا تمزقوا، وتبعثرت جميع الخطايا مرة واحدة.

بعض الأطفال تبدو مثل طرود أعياد الميلاد. يضعون في رؤوسهم الصغيرة الكبيرة كل ما عاشوه وسمعوه، لكنهم وبصورة احتفالية يتركون الآخرين يفضون غلاف الطرد بحرص، وينظرون إلى ما داخله. فقط يلقون نظرة على ما بداخله.

يحملون في جوانبهم الخوف والخجل، الكثير من المخاوف المختلفة التي لا نعرف عنها شيئًا. لا نستطيع تصور مدى عمقها. لقد نسيناها، تخلصنا منها. وصرنا نراها مبتذلة. نسخر منها.

-يا جبان! يا عيّل!

لم أسأله لماذا هرب. توقعت أن يخبرني بنفسه عندما يشعر

بمزيد من الأمان. نزلنا أمام السوبر ماركت الذي يعمل ليل نهار. كان به الكثير من الناس. كان سهلًا أن تختفي بينهم، ولا ينتبه إليك أحد. حاولت أن أكون على طبيعتي وحاسمة كي لا يشعر كريستيان بأني خائفة، وكي لا أضع على عاتقه مزيدًا من الأعباء. شعرت أني شخص مهم. كنت أتمنى أن يكون لديَ طفلٌ آخر، لم أكن في حاجة إلى انتظار علامة ما، أو اتخاذ قرار غير ذلك.

تابعني كريستيان مثل كلب يرافق صاحبه. كان مذعورًا من كل من لا يعرفه، من الشوارع التي لم يرها في حياته، من الظلام الذي لم يكن معتادًا عليه، من الأضواء التي كانت تُبهر عينيه، كم البضائع الكثيرة في متجر لم يره في حياته. فوالداه لم يزعجاه بأشياء كهذه. كان الإرهاق باديًا عليه، فهو يخلد للنوم في الساعة الثامنة كل يوم، في تمام الساعة الثامنة من أجل أن يحافظ جسمه البالغ من العمر ثماني سنوات على توازنه. كان هلعًا من قراره المتطرف، ومن المستقبل المجهول. كان يسير بجواري مثل كلب صغير. هادئ، يدمدم بكل إذعان. أمسك بمعطفي ونحن نقف في طابور لأخذ سلة مشتريات كي لا أتوه منه. كنت له طاقة النور الوحيدة في ذلك المبنى المرعب.

كان يجب أن ننصرف بسرعة كي نلحق بالحافلة. كان كريستيان في عالم آخر، ولم يكن في يدي سوى اقتياده وسط الأرفف ووضع المشتريات في السلة.

عثرت في قسم الأطفال على الحليب. كانت هناك أنواع كثيرة منه، أصناف لا تعد ولا تحصى. كانت المشكلة أني لم أتمكن من شراء الكثير مقابل المئة كرون التي كانت معي. فوضعت كيس حفاضات في حقيبة فارغة يحملها كريستيان على ظهره، أخذت من أحد الصناديق كيس حليب مجففًا وخبأته أسفل معطفي. ثم

وضعت في السلة مأكولات تكفيني أنا وكريستيان. لم يعترض كريستيان، ولم يعلق بكلمة واحدة. كان ينفذ ما آمره به بكل إذعان.

قلت له:

- عندما نصل إلى الخزينة عليك أن تنفجر في البكاء. أتسمعني يا كريستيان؟ اصرخ بصوت عالٍ وإلا أمسكوا بنا. وسأشرح لك كل شيء لاحقًا. المهم الآن أن تحدث ضجيجًا عاليًا. تحجج بأي شيء. أن بطنك يؤلمك، أو أنك تريد أن تذهب إلى الحمام، أو ما شابه. لكن يُفضل أن تقول إنك تريد الذهاب إلى الحمّام. لو فعلت ما أطلبه منك لن يحدث لك شيء، وستتناول عشاءً طيبًا. من المؤكد أنك لم تأكل شيئًا منذ وقت الغذاء. منذ متى وأنت خارج البيت؟

أجابني بصوت لا أكاد أسمعه:

- لا أعرف. ربما من الساعة الثانية. ثم بدأ ذقنه يرتجف.

ليس الآن يا كريستيان، عندما يحين الوقت سأخبرك، وعندها ستبدأ، مفهوم؟ هل فهمت؟ أما الآن عليك أن تسير خلفي. ابتسِم! واحرص على ألا تسقط شيئًا من على الأرفف.

كان الطابور طويلًا أمام الخزينة، لكن الأجواء هادئة. الناس يقفون ويعبثون في محافظهم. وعندما لم يتبق أمامنا سوى امرأة واحدة، دُست على قدم كريستيان، فبدأ يبكي بحذر، ثم سرعان ما انفجر في البكاء. دسست في فمه رغمًا عنه قطعة خبز بعد أن صرنا خارج المتجر كي يتوقف عن البكاء.

كانت الساعة الحادية عشرة عندما جلسنا في الحافلة. في منتصف الثانية عشرة ونحن نسير وسط مواقف السيارات، بدأ كريستيان يتراجع عن النوم معي في الكوخ بعيدًا عن المدينة. لم

أخبره بأمر الطفلين بعد، وأخفيت عنه الأمر على سبيل المفاجأة.

قلت له:

- وإلى أين ستذهب يا كريستيان؟ ماذا تظن أن يفعل بكَ والدك عندما تعود إلى البيت الآن؟ لا يمكنك أن تعود الآن إلى هناك. كنت أريد أن أقنعه بالذهاب معي. فقد بدأت أحسب الأمور التي يمكن أن يساعدني فيها ذلك الصبي المسكين. ورغم أنه كان يتعثر ويتخبط في كل صخرة في الطريق إلا أن لديه يدين وقدمين. عما قليل سيهدأ بعد أن يُفرغ ما في داخله ويأكل شيئًا. بعدها سيصبح قادرًا على التفتيش في الأكواخ ليعثر على الطعام، سيكون في مقدوره مراقبة الطفلين والتجول بالعربة حول الحديقة. على أي حال ليس أمامه خيار آخر. فليل المدينة المبللة بالمطر قد يلتهمه خلال ساعة واحدة.

رحت أجر كريستيان خلفي خلال المسافة القليلة المتبقية، كأنني أجر قِطارًا صغيرًا بحبل. المدينة من خلفنا تستعد للنوم، والعتمة أمامنا. المدينة تبدو باهتة، تعوم وسط ضباب يلتهمه ضوء المصابيح. كان المشهد من بعيد يبدو رائعًا، وفاتنًا. كأنه مصنوع من سن الفيل أو الأبنوس. لكنه لم يكن كذلك. كان مجرد طين، وقمامة، وآثار أقدام، وخيالات بيوت، وشبكات من الطرق، وخطوط السك الحديد.

أثار منظر المدينة الرعب في نفس كريستيان. كان مشهد الظلام القابع خلفها ويتكئ على جبينها أكثر رعبًا.

قلت له:

- لا تخف يا صغيري! لم يتبق أمامنا سوى بضعة أمتار ونصبح

في البيت. ما هو ذلك البيت؟ سترى؟

صدر صرير من بوابة الحديقة المندسة بين أغصان شجيرات السور، وعلق غصن بارز بقدم الصبي. صرخ كريستيان بصوت مكتوم، ثم تعلق في يدي. كانت أصابعه باردة وخشنة مثل السور الحديدي أمام مدرستنا. تنفست الصعداء عندما أدركت أن الطفلين لا يبكيان.

دلفنا إلى الداخل. ألقيت السترة فوق المصباح كي لا يكون الضوء قويًا. ثم أجلست كريستيان على الطاولة. لم يلاحظ الطفلين وهما نائمان ملتحفان بالأغطية. أعطاني انطباعًا بأنه لا يدرك شيئًا مما حوله، فقط يجلس وينتظر أن يظهر له العفريت الذي يخيفون به الأطفال في الفصل.

قلت له بودّ: كُلْ يا كريستيان! ثم ناولته الخبز وعجينة الشيكولاتة. كان منظره يثير الشفقة. صبي صغير يجلس القرفصاء، غارق في معطف كبير ذي أكمام تغطي أصابع ممتلئة بالخدوش. إنه صبي من أسرة صالحة. حرموه من مصادقة نصف أطفال الحي، ومن بينهم أنا، والصبية الذين كان يقفز خلفهم مرحًا مثل أرنب يعمل بالبطارية. إنه صبي اقترف ذنبًا ما. لاطفته فوق رأسه، فارتد قليلًا. سعل فضربته على ظهره ضربة جعلته ينحني.

بدأ يعقوب يهمهم من سريره، وينظر. همست له:

- اششش! ثم أزلت الغطاء عن سِرّي الكبير، يا لها من سعادة!

حان الوقت لكي أكشف عنه أمام كريستيان.

قلت:

- إنهما نائمان، طفلان جميلان، أليس كذلك؟ أليسا جميلين؟ هذا اسمه يعقوب، وهذه اسمها أديلا. عليك أن تتحدث بصوت منخفض كي لا توقظهما، حسنًا؟ يجب أن يكملا نومهما، ثم بعدها سنعلب معهما! أما الآن دعنا نخرج، ماشي يا كريستيان؟

أخذت بطارية، وسجادة صغيرة، وشطيرة خبز رقيقة تعلوها طبقة مقدارها سنتيمتر من عجينة الشيكولاتة، ثم دفعت كريستيان إلى الخارج. جلسنا عند عتبة الباب في وضع القرفصاء. كان المطر يهطل، وقطراته تتساقط على سقف الكوخ المصنوع من ألواح معدنية مُمَوّجة. ساعدتنا على أن نتنفس بإيقاع واحد. ساعدتنا على أن يتفهم كل منا الآخر. لم ينبث كريستيان بكلمة واحدة منذ أن أغلقت بوابة الكوخ. لم يطرح أية أسئلة، لم يُبْد اعتراضًا على أي شيء. كان يتلقّى ما يحدث. لكنه لم يعد ينتفض، أخرج يده من الكُمّ، وأسند رأسه على إطار الباب وهو يمضغ علكة في فمه بكل استسلام.

سألني:

- لمن يكونان هذان الطفلان؟

أجبته:

- إنهما أولادي!

- أولادك، كيف؟

- نعم أولادي. أولادي وخلاص. أخبرني ماذا حدث؟ ماذا فعلت؟

تجشأ بصوت عالٍ. سرقت نقودًا من أبي. ألف كرون. هم أجبروني على ذلك. مَن؟ الصبية.. أجهش كريستيان بالبكاء. أي

صبية؟ صبية الاستاد. قالوا إن لم أحضر النقود سيخبروا أهلي بأني ضربت بيبان بلوح خشبي. وأمي منعتني أن أضرب أحدًا. دائمًا تحذرني من ذلك.. انفرط فجأة عقد لسانه.. دائمًا تحذرني من أن أتشاجر مع أحد، وألا أكون مثل الآخرين. وأن عليّ أكون طفلًا صالحًا، ومطيعًا، ولا أتسبب لهم في مشكلات. أنا في الواقع لا يمكنني أن أؤذي أحدًا، أنا من نفسي، أتعرفين. كان عددهم كبير، ووقفوا جميعًا فوقي بما فيهم بيبان. كان وجهه ملخًا بالدماء، وحتى معطفه ويديه. قالوا إن عليّ أن أحضر لهم نقودًا في الساعة الثالثة على المحطة. ألف كرون، وإلا سيذهبون إلى أهلي ويخبرونهم بكل شيء. ثم مسح دموعه في قميصي.

وكما بدأ فجأة، صمت فجأة. كان قميصه ملوثًا ببقعه بنية داكنة. ربما كانت من الشيكولاتة.

كانت قطرات المطر تتساقط بانتظام فوق الحشائش، وعلى الأحجار، وسقف الكوخ، وعلى أقدامنا التي لم نجد لها مكانًا تتوارى فيه أسفل السقف. لم يقطع صوت كريستيان ولا صمته إيقاع تساقط المطر المنتظم. دس كريستيان في فمه لقمة خبز، وراح يلوكها طويلًا في فمه وهو يغلق عينيه. انتابني شعور بأن الأفكار التي تدور في رأسه بدأت تنتشر في الهواء، وتسقط مثل التراب إلى داخل رأسي. لم يكن مضطرًا إلى مواصلة الحديث. لكنه لم ينتظر كثيرًا. راح يواصل حديثه بعد أن ابتلع الطعام. سرق نقودًا من أبيه. إنه لم يأخذ من قبل قرشًا قد يعثر عليه في فتحة بين ألواح خشب الأرضية. تلك المرة أخذ ألف كرون بنفسجية اللون. من دون إذن. ذهب إلى محطة القطار، لكنه في اللحظة الأخيرة ارتعب، فاستقل أول حافلة لتحمله بعيدً عن أهله وعن الصبية الكبار. استقل الحافلة، وراح يتنقل من حافلة إلى أخرى، يهيم في المدينة،

ثم يستقل حافلة أخرى من جديد، إلى أن جاء إلى هنا وعثرت عليه. لم يكن لديه شيء في حقيبة الظهر التي يحملها معه، لا يرتدي سوى معطف، وورقة نقود واحدة وحيدة. يبدو أن أمه كانت تحتفظ بها لتشتري له بها حافظة أقلام جديدة، وطاقمًا رياضيًا جديدًا.. لكنه أخذها.. أخذها من الخزانة، من صندوق يضع فيه أبوه أصابع السيجار التي لم يكمل تدخينها.

ضحكت.. انفجرت في الضحك حتى اهتزّ جسمي. أنا من أجبره على أن يسرق الحفاضات في المتجر، وهو يحمل في حقيبته ورقة بألف كرون! في الصباح كان طفل أمه المدلل، وفي المساء سرق مرتين. كان بإمكاننا أن نشتري دجاجة مشوية على الفحم، وكولا، وشيبسي. وأن نشتري لعبًا للطفلين، وأي نوع من الحليب نريده، علبة أو ثلاث علب. لم أتمالك نفسي من الضحك، واصلت الضحك. انفجر كريستيان في البكاء. صحت فيه:

- كريستيان! كف عن البكاء! يالك من حمار! لماذا لم تخبرني بهذا الأمر من قبل كي لا تضطر إلى أن تسرق من جديد؟ أنت أيها الحمار الصغير!

ثم ضممته إلى صدري، وقلت له:

- لا تخف. لن يعثر عليك أحد هنا. لا أحد يأتي إلى هناك وقت المطر. متى سيتوقف المطر؟ سنرى. تعال، هيا بنا نخلد للنوم!

سألني بعدها كريستيان الساذج وهو يقف فوق السرير، وقال:

- هل هم بالفعل أولادك؟

أجبته:

- نعم؛ إنهم أولادي.

أجاب متعذرًا:

- لم أكن أعرف. إنهما يستيقظان، ماذا عليّ أن أفعل؟

أثّر فيّ حاله. هارب صغير توقف عن الاهتمام بنفسه عندما رأى الطفلين، وعرض عليّ المساعدة بصوت هادئ. توقف عن النحيب، ثم خلع معطفه، وعلقه على المقعد، ثم مرر يده على وجنتي أديلا. لمسها بحذر كأنه يلمس سيارة صغيرة في واجهة عرض أحد المتاجر. قال:

- إنها باردة.

أجبته:

- سأشعل المدفأة إذن.

قال:

- أنا سأتولى التدفئة، وأنت تلاعبينها.

سألته مستنكرة:

- أتعرف كيف تشعل النار؟

- نعم. كنت في الكشافة لمدة شهر. هناك سقطت من فوق إحدى الصخور. فمنعتني أمي من الذهاب بعدها...

- حسنًا، حسنًا!

لم أدعه يكمل حديثه.

- الخشب موجود هنا، والشعلة هنا، وهناك ستجد الجرائد. عيدان الكبريت ستجدها فوق الرف. أو اسمع! خذ هذه الولاعة. أتعرف كيف تشعل الولاعة؟

أجابني على استحياء:

- لا أعرف. إنه أمر بسيط يا كريستيان. ربما أن الرماد سيشتعل من دون الحاجة إليها. جرّب أن تدس الورقة أولًا. أعطيته التعليمات، ثم انصرفت عنه.

كان جسم الطفلة باردًا ومبللًا. كذلك كانت الحفاضة المفعمة بالبول باردة هي الأخرى، وكذلك الخف والملاءة. رحت أبحث عن أي شيء ألبسها إياه فلم أجد. كان كل ما لديهما في الحقيبة قد صار مبللًا ومطروحًا أسفل السرير. صنعت لأديلا حليبًا كي أعوضها عجزي عن تغيير ملابسها. كان صندوق الحليب فوق رف المتجر خاويًا، فلم أعرف الكمية المناسبة لخلط اللبن. كان لديّ الكثير من مسحوق الحليب، فصنعت حليبًا ثقيلًا تدفق بصعوبة من فتحة القارورة. غطيتها بالبطانية بعد أن شربت، ثم ناولتها لكريستيان ليحملها حتى تتجشأ. مددت فوق المدفأة رباطًا، وعلّقت عليه الملابس المبللة بالبول وكل الأشياء الأخرى التي غسلها كريستيان. كانت قطرات الماء تسيل من الملابس. فلم يكن عند كريستيان القوة الكافية ليعصرها بالقدر الكافي، فاضطررت إلى أنزلها. وحملتها إلى الخارج كي أعصرها من جديد بينما كريستيان يدور في الغرفة الصغيرة بكل شجاعة. حنى ظهره إلى الخلف مثل القوس وهو يحمل الطفلة فوق يديه كأنها زند من الخشب. رغبة واحدة سيطرت على حركاته، وهي ألا تسقط الطفلة من بين يديه على الأرض. تلقى دوره كأب بديل بسرعة كبيرة، ومن دون أي تذمر. حمّلته بمزيد من الأعمال كي لا يكون لديه وقت

ليفكر في نفسه أو في مخاوفه.

استيقظ يعقوب عند منتصف الواحدة. حفاضات، وحليب، وأرجحة، ثم نوم. سقط كريستيان من الإعياء في الساعة الواحدة، ثم غلبه النعاس فوق المقعد وعلى لسانه كلمة لم يكملها. ألقيت المعطف على كتفي، وخرجت تحت المطر. فكّرت أن أدفع عربة الأطفال إلى داخل البيت، وأضع فيها الطفلين كي نجد مكانًا ننام فيه. كانت العربة ممتلئة بالماء. فقد وضعت فوقها لوح الصفيح المموج بطريقة خرقاء جعلت الماء يتدفق منها إلى حوض العربة كأنها قناة لنقل المياه. أفرغت الخشب ومواد الإشعال من العلبة الخشبية الكبيرة، وحشوتها ببطانية كبيرة. ألبست أديلا آخر ثوب جاف، ثم وضعتها بجوار يعقوب في العلبة. استلقى كريستيان بجواري على السرير بعد تردد طال كثيرًا.

كان الجو في الغرفة خانقًا وحارًا؛ حيث ظلت ألسنة اللهب تتصاعد في المدفأة.

استغرق الأمر وقتًا طويلًا وأنا أحكي لبيتر عن كل ما حدث في الحديقة. عشنا معًا لأكثر من عام.

توقفنا خارج القرية في نهاية شهر مايو ونحن عائدان من إحدى حفلات الزفات. تركنا السيارة على جانب الطريق، على بُعد بضعة أمتار من آخر بيت في القرية. كنت أشعر بالتعب من سفر طويل، وأحتاج إلى أن أتنفس الهواء في الخارج قليلًا. أحضر بيتر من السيارة زجاجة ماء وبطانية. كانت السحب منتشرة في السماء، ويوشك المطر أن يسقط. تمشينا قليلًا بمجازاة أحد الأسوار الخشبية إلى أن رأينا شجرة تفاح تقف وحيدة على حافة أحد المروج. لم نرغب في الابتعاد أكثر من ذلك. وقف بيتر طويلًا يتخير مكانًا فوق أرض خضراء كبيرة ليضع فيه البطانية. كانت الحشائش العالية وزهور الجرس منتشرة في كل مكان، والمطر قادم من بعيد ويوشك أن يسقط. كنا نسمع طنين الكهرباء التي تنبض بين أعمدة الضغط العالي. كان الجو باردًا، فراح بيتر يغطيني من وقت لآخر كي لا أشعر بالبرد أو أصاب به. كانت دائمًا يعتقد أنني أشعر بالبرد.

استلقينا ملتفين في غطاء واحد ثقيل، نتنفس من أنف لأنف. ثم تحرك والتصق بي من الخلف، ودسّ أنفه في شعري. استلقينا مثل ملعقتين في خزانة المطبخ. أشعر بزفراته في مؤخرة عنقي.

اعتقدت للحظات بأني ما زالت في العشرين من عمري، وأن مَنْ خلفي ليس بيتر، لكنه كريستيان الصغير. شعرت بنفس الدفء، والسكينة، والألفة. انطلقت في الحديث من دون مقدمات. حكيت له كل شيء عن الطفلين، وعن الحديقة، وعن كريستيان.

تحدثت معه في البداية عن السفن. عن المراكب الخشبية الصغيرة التي تبدو كأنها مراكب ملونة مصنوعة من الورق، وكأنها أشياء من فيلم رسوم متحركة يمكن أن يحدث فيه أي شيء. إنها سفن حادة الشكل، مصنوعة من ألواح خشبية خشنة، الفتحات بين ألواحها الخشبية ملوثة بمادة لاصقة. جميع تعرجاتها مغطاة بطبقة زرقاء وبيضاء لامعة. تبدو هشة وغير مستقرة، لكنها لطيفة. أحيانًا تكون بها مقصورة يمكن الاختباء فيها. وأحيانًا تبدو مجرد أصداف خاوية من دون مجاديف أو حبال. أتهادى فوق سطح ماء ثابت لا يتحرك. ماء هادئ وخالٍ من تيارات الهواء. وعندما أستيقظ أجد جسدي مبللًا. أشعر بالإرهاَق، ويداي تؤلماني كأنني كنت أسبح طوال الليل، أو أجدف. أجد شعري متلبدًا، ويحتاج إلى أن أغسله بالشامبو. أستيقظ على خيبة أمل وانزعاج، أشعر أني أهدرت طاقة كبيرة بلا طائل. نعم، فلم أبلغ أي مَرْسى. حتى تيارات الماء لم أشعر بها، الرياح تدور وهي حبيسة أحد الأحواض البعيدة عن الماء.

تحدثت بهدوء كأنني أقرأ له من كتاب. لم أكن أعرف إن كان بيتر يسمعني أم أنه مستغرق في النوم. لم يكن يتحرك، كان يتنفس بانتظام. شعُرت مع كل كلمة أنطقها بخفة تزداد شيئًا فشيئًا.

شعرت بأني أنساب مثل النهر في دلتاه، وأن تلك المياه المضطربة التي جذبتني نحو الأرض تمتصها التربة أخيرًا، تتدفق إلى البحر، وتختلط مع مياهه الأخرى التي تسعى إلى أن تبدد الماضي.

لم أتحدث من قبل بكل تلك الانسيابية، وبكل تلك التفاصيل. لم أجد يومًا أحدًا غيره يرغب في الاستماع إليَّ. أحيانًا كنت أعتقد أن صوتي قادم من فم لا يتحرك، من فم مغلق. يأتي من تلقاء نفسه من دون مساعدة من عقلي أو لساني أو شفتيّ. يسيل من دون مقاومة مثل الدم الذي ينساب من جرح، لا تمنعني ضعف حيلتي من المواصلة. صار صوتًا غير صوتي. لم يقاطعني بيتر، ولم يسألني. وجدت نفسي أضع يديه في يدي. تمامًا كما أمسكت بيد كريستيان الصغيرة الباردة. لم يقاومني بيتر.

كريستيان أيضًا لم يقاومني. استسلم للنوم. حتى جسمه مستسلمًا، واستلقى بظهره على الحائط. راح يجاهد نفسه كي ينام، يعبث بالفراش، ويهمهم إلى أن دسّ أصابعه في شعري من دون أن يقصد. هكذا كان ينام في بيته وهو يمسك شعر أمه في كفه. غشية نوم ثقيل خلال ثانيتين بعد أن وضع شعري بين أصابعه. حتى إن شفتيه سقطتا، وتدلى اللعاب من فمه الموارب. فككت أصابعه من وسط شعري، ثم وضعت يده بين راحتي. كانت باردة وخشنة، باردة مثلما كانت هناك في الخارج أمام بوابة الكوخ، عندما عَلِق بغصن ناتئ هناك، فدفعه ثم تعلق بي وهو خائف. كانت الخدوش منتشرة فوق أصابعه، خصوصًا على أصابع كفه الأيمن. كنت أشعر بتلك الخدوش الصغيرة قبل أن أراها. قرض أظافره حتى الجلد، وصارت شائكة، يمكن أن تبري عليها قلم رصاص. لم يكن شعورًا لطيفًا أن ألمس يدين مثلهما. لكن شيئًا ما دفعني لأن أدفئه، وألاطفه، وأظهر له تضامني معه. مسكين كريستيان.

كان صبيًا وسيمًا. عليه أن يكون صالحًا، ومهذبًا تحت أي ظرف. أعطي خدّك الآخر! قابل السيئة بالحسنة! دائمًا... لا تضرب أحدًا! فلن تجد من هو أضعف منك. ستنال عقابك في كل مرة. افرد ظهرك كي لا تبدو كالعجائز. لا تسبب لنا في خزي! ستكون ولدًا صالحًا. آه يا كريستيان!

هكذا غلبني النعاس وأنا أزفر هواءً دافئًا في يدي كريستيان. على حافة سرير صغير، وقد ثنى ركبتيه ودسهما في بطني. ومن ورائي في الصندوق الورقيّ ينام الطفلان.

راودني حلم من أحلام اليقظة. مرة أخرى مركب وسط المسبح. وبدلًا من الأوراق المتساقطة على سطح الماء تتساقط قطرات المطر، لكنها قطرات كبيرة، حتى إنها تصنع فقاعات عند ارتطامها بالماء. المسبح مثل وعاء كبير، به ماء يغلي ويفُور. أقف في منتصف المسبح، لا أكاد ألمس قاعه بأطراف أصابعي، وأحني رأسي إلى الخلف كلما أردت أن أتنفس من أنفي.

قطرات الماء تتساقط في عيني. تاك، تاك، تاك

ترتطم بجسدي. تاك، تاك، تاك

وتسقط في الماء. تاك، تاك، تاك

ثم ترتد من على سقف من الصفيح فوق كبائن تغيير الملابس، وفوق أربعة مراكب أخرى تتهادى من بعيد. أسمع خبطات من تحت سطح الماء. تاك، تاك، تاك. وفي رقبتي رباط به مفتاح الحديقة.

المسبح ضخم، والسفن بعيدة، وصغيرة مثل قشور حبات الجوز. يقف بيتر في واحدة منها، وفي سفينة أخرى تقف لوتسيا، وفي الثالثة تجلس إيرينا، أما الرابعة فتبدو فارغة. بيتر يقف منتصبًا،

منفرد الساقين مثل عامود الجسر، ويدعونني بصوت عال بألا أخاف، وأن أنهض من فوق القاع، وأسبح نحوه. ترددت. خبطات لا تكل، وقطرات تضرب في كل اتجاه، تزعجني، وتصم أذني. لا تسمح لي أن أركز على أبسط الحركات التي يحتاجها الإنسان كي ينفصل عن الأرض، ويترك نفسه للماء وللأمواج تحمله.

رفعت قدمي أخيرًا، ومددت ذراعيّ، وأخذت نفسًا عميقًا قبل أن أقوم بأول حركة. وهنا نهضت لوتسيا الجاثمة فوق السفينة، وصاحت تناديني باسمي. تنادي بإلحاح، وبصوت عالٍ:

- ياركا!

ثم تمد إليّ يدها. يداها ضعيفتان. ترتعشان تحت ضغط قطرات المطر. تكرر، وتقول:

- ياركا! تعالِ إليّ!

ثم تهمس:

- أنقذيني!

وهنا تنهض إيرينا، وتنعق وهي تستلقي فوق سطح سفينة ثالثة، تتكئ برأسها على مقعد، وترمي إحدى يديها على حافة السفينة. ألياف رقبتها تنتصب مثل الوتر، وتنادي بصوت متهدج:

- ياركا! تعالي ادعكي لي ظهري من دون أن تبلليه.

ثم تسقط برقبتها إلى الخلف فوق مقعد صلب.

وهنا يأتي من السفينة الرابعة بكاء ثلاثة أطفال. طفلان وليدان بلا أسنان يصرخان، وكريستيان يحبس نشيجه. يستلقون جميعًا

في قاع المركب، ويختبئون أسفل المقاعد.

أبحث عن السفينة الخامسة التي رأيتها بالفعل خاوية. سفينة جاءت من أجلي خصيصًا. سفينة بها كابينة مجهزة بباب مُحصّن، يُفتح بمفتاح بوابة الحديقة. لكن السفينة الخامسة لم تظهر في ذلك الحلم.

صاح الجميع:

اسبحي! تعالِ إليّ، اسبحي، اغسلي لي شعري! ساعديني! اسبحي! هدّئي من روعي! لاطفيني! اسمعيني! اسمعي! اهتمي بنا! فقد صرتِ كبيرة!

تاك، تاك، تاك، تاك، تاك، تاك. المراكب تكبُر، وتقترب. لوتسيا تقف وإيرينا جالسة. أراها ترتدي زيًا سخيفًا للسباحة. تاك، تاك، تاك. كريستيان يحاول أن يحافظ على توازنه، ويرفع عقدتين وهو يصرخ. بيتر يقفز في الماء، ويسبح نحوي، لكنه لا يقترب.

أغلق عينيّ وأغطس في الماء. أرخي يديّ وأنا أدفعها في الماء، أرخي ساقيّ، ثم افتح فمي، وأترك الماء يتسلل إلى جسمي.

استسلمت بعدها لنوم عميق، خالٍ من الأحلام إلى أن أيقظني صوت بكاء كريستيان. جلس عند أحدَ أركان السرير، يمسح دموعه في أكمامه، ويجذبني من قدمي. مرت لحظات حتى انتبهت إلى أن الطفلين يصرخان، وأن الكوخ يعج بصراخ مُريع. في البداية لم أسمع سوى نشيج كريستيان المخنوق. كان في حالة هلع. فقد توازنه، كأنه صار لا يعرف أين يكون، وماذا يفعل هناك. كان عاجزًا على النهوض من السرير لإسكات الطفلين. فقط جلس يئن

فوق السرير، ويردد وهو يجذبني من قدمي:

- ياركا! اصحي! اصحي!

رفسته بقدمي بكل عزمي كي يتوقف. كان الجو باردًا داخل الغرفة، وانطفأت النيران من زمن بعيد. كانت الساعة الرابعة والنصف صباحًا.

كان يعقوب أكثر هدوءًا. يبدو أن ما أيقظه هو بكاء أديلا. فناولته لكريستيان ليهتم به. وحملت أديلا بين يدي. مشيت بها في الغرفة، أهزّها وأغني لها. تبولت على نفسها وتبرّزت. وصار كل شيء مبللًا من جديد، الحفاضات، والملابس، والفانلة التي أرتديها. خلعت عنها ملابسها، ثم ألبستها ملابس أخرى في حالة إنكار كامل للنفس، أمد يدي إلى الأمام كي أبعد مصدر الرائحة عن أنفي قدر الإمكان. لم أتمكن من إشعال الموقد بسرعة، فأعطيتها حليبًا باردًا لتشربه. قاومتني في البداية، تقيأت وغمغمت، وبعد لحظات سحبت اللبن كأنها أرض جافة.

تمكن كريستيان من وضع الطفل على السرير. جلس في أحد أركانه، ووضعه في حجره وراح يأرجحه إلى أن ناما معًا. أصلحت جسمه في وضع التمدد، ووضعت يعقوب بجواره. وبقيت أنا أحمل أديلا وأطوف بها. كان رأسي يؤلمني من شدة الإرهاق. لكن لم يكن أمامي اختيار آخر إلا الطواف في الغرفة. ثلاث خطوات نحو المدفأة، وثلاث خطوات ناحية السرير، ثم أعاود الكرَّة من جديد. كانت أديلا تتلوى وتصرخ كلما توقفت. فكّرت أني سأصاب بالجنون.

داهمني النوم وأنا أمشي في الغرفة. انغلقت عيناي فارتطمت بالأثاث، وكادت الطفلة تنفلت من بين يدي مرتين أو ثلاث مرات.

كنت أحسد الولدين على نومها الهادئ. انكب كريستيان على نفسه، وتقوقع. فردت عليهما الغطاء، ثم وضعت أديلا في الصندوق بعد أن هدأت نوعًا ما. جلست بعدها على الكرسي، ووضعت رأسي على الطاولة فغشيني النوم.

وعادت الكرَّة مرة أخرى في نحو السادسة. كانت الغرفة غارقة في ضوء أصفر، ولمع كل ما بها وتلألأ: الكؤوس، وأدوات الطعام، وكأس معجون الشيكولاتة، والزجاجات. كان ضوءً حادًا، وظهرت كل العيوب على لوح زجاج النافذة، فقاعات داخل الزجاج، لطخات، وآثار أصابع، وخيوط عنكبوت. لولا تلك الأشعة الساحرة التي سطعت في يوم جميل من أيام شهر أغسطس لهربت على الفور، ولتركت الأطفال الثلاثة لقدرهم.

تذكرت وأنا أنظر من النافذة عندما استيقظت ذات يوم في الصباح في غرفة لا أعرفها، وفي مدينة لا أعرفها. كان عمري وقتها عشرة أعوام.

كانت بالغرفة نافذة ضيقة ومستطيلة يصعب فتحها. كانت قريبة من الأرض تمامًا، حتى إن الحشائش نبتت على إفريزها الخارجي. انتبهت ورأيت غرفة تفيض بنفس اللون. تتأرجح ظلال النباتات على الحوائط. صار الأثاث والملابس الملقاة على المقاعد، وأدوات الموسيقى المستندة إلى الحائط، كل شيء صارورديًا ولامعًا. كل شيء يسبح في ضباب أسطوريّ. كان يومًا جميلًا من أيام حياتي. ففي مساء ذلك اليوم كنت أنام في سريري، غاضبة من لوتسيا ومن أصدقائها المزعجين الذين حولوا شقتنا على مدى عدة أيام إلى صالة بروفات. أغلقت عينيّ من جديد بكل هدوء، واستسلمت للنوم. كان آخر ما رأيته بعينيّ المواربتين آلتين موسيقيتين متألقتين على الحائط، وشمسين، وحافظتي نقود ذهبيتين.

استيقظت بعد نحو الساعة. وجدت نفسي في غرفة ملابس عادية توجد في قبو أحد المراكز الثقافية. كانت غرفة الملابس مكتظة بأناس يغيرون ملابسهم بعد حفل موسيقيّ، وتفوح منهم

رائحة العرق. يشربون ما تبقى من زجاجات الخمر، ويحزمون آلات موسيقية. لوتسيا تهرول وسطهم وهي مخمورة. كنت أشعر بالإرهاق الشديد بسبب نومي في صندوق آلة الكونترباس الموسيقية. وتحول الحلم الوردي إلى واقع كريه.

ساعدتني الذكريات والشمس على أن أصرف انتباهي عن الطفلين، وعن صراخهما. وبعد دقائق غطتهما السحب.

عشنا ساعتين مؤلمتين. لا أعرف كيف شعر كريستيان عندما وجد نفسه بعد أربع ساعات من النوم في كوخ غارق في ذلك اللون الغريب. اعتقدت أنه أشعل على الفور جهازه، وراح ينفذ الأوامر مثل الإنسان الآلي. كان ممتقع اللون، وظهرت أسفل عينيه دوائر داكنة، ووقف في أثناء أوقات الاستراحة بين الأوامر المختلفة متصلبًا في أحد الأركان، يمرر أصابعه على حائط المدفأة الصُلب، وينتظر أن يظهر له العفريت. لم أكن في حاجة إلى طفل آخر. كنت في حاجة إلى من يساعدني. كان من الضروري أن ينتبه بسرعة ويبدأ في تدبر الأمر. أرسلته إلى الخارج ليستنشق الهواء الطلق، ويتمشى في الحديقة ليتبول، ويغسل يديه بماء بارد، ربما يساعده ذلك في شيء. يمكنه أن يتسلق الشجرة لو أراد.

اكتسى وجه يعقوب في أثناء الليل بلون أحمر غريب. لاحظته عندما دخل ضوء النهار إلى الغرفة. ظهرت بثور صغيرة حول فمه. وانتشرت البقع على وجنتيه، واحمرّت عينيه. لم أرَ في حياتي شيئًا كهذا من قبل.

أشعلت المدفأة بينما نفّذ كريستيان كل ما أمرته به بالحرف الواحد. جرى فوق الحشائش المبللة وهو يرتدي قلنسوة من الصوف، تبول واغتسل. حاول أن ينظف أسنانه بأصابعه. من

المؤكد أن أمه لا تسمح له بالخروج إلى الشارع قبل أن ينظف أسنانه. تسلق الشجرة، سقط من عليها وخدش بطة ساقه، فتساقط منه الدم. عاد إلى الكوخ وهو مبللًا ومخدَّرًا، ومصفرّ الوجه أكثر مما كان.

صرخت فيه:

ـ أنت فظيع يا كريستيان، لا تظن أني سوف أرعاك أنت أيضًا!

كان عليك أن تبقى في البيت بجوار أمك! انفجر كريستيان في البكاء ومعه أديلا أيضًا. كان يعقوب يحاول أن ينقلب على بطنه في العلبة، لما فشل راح يهتز متبرمًا.

وقف كريستيان يبكي، حنى ركبتيه قليلًا، وعلقت يداه على حركة لم يُنهيها. فرج أصابعه مثل أداة جمع العشب، وتلوثت ساقه بالدم. لم يستلق على السرير، ولم يدس وجهه في الوسادة بأناقة وعلى نحو مؤثر كما تفعل النساء البالغات. راح يبكي ويبكي حتى كاد يختنق من البكاء. اقتضب وجهه وانتفض كل جسده، وراح يلوح بأصابعه المنفرجة في الهواء ليبحث عن شيء يمكنه الإمساك به. بدأت أعصابي تتوتر بسببه. ليتني أرسلته إلى حيث عثرت عليه بالأمس، وأضعه في الحافلة. اللعنة!

لم أتمكن وقتها من تقدير مدى خوفه، ورعبه الشديد مني، ومن أمه، ومن الطفلين اللذين يصرخان، ومن الحديقة. لم أتمكن من مشاطرته مشاعره. كنت في غاية الإرهاق، وفي حاجة إلى أن أهتم بالطفلين.

أردت أن ألاعبهما، وأحملهما إلى الحديقة، أتطلع إليهما، أستمتع بالنظر إليهما، أخلع حذائي وأدوس على الحشائش المبتلة، أتناول الخبز مع عجينة الشيكولاتة، آكل حبات التوت. طلبت من

كريستيان أن يحكي لي المزيد من التفاصيل حول هروبه، عن أهله الذين كنت دائمًا أظنهم أناسًا غريبي الأطوار. كل ما أردته بعض الثرثرة، وأن أنتظر الصوت القادم إلى الحديقة من محطة القطارات، وأملي ناظري بالطفلين وهما نائمان. لا يوجد ما هو أجمل من النظر إلى الأطفال وهي نائمة. مشهد يبعث الطمأنينة في النفس. مشهد صدريهما وهما يعلوان، والعلبة التي تحمي قلبين خاليين من الخوف والوحدة. علبة مغطاة بفانلة عليها أحرف من بعض كلمات.

لم أرغب في سماع نحيب كريستيان، ولا توجيهه في كل حركة يقوم بها. لم أرغب في الدوران في الكوخ، أنفض عن أديلا ما تتقيؤه. لم أتخيل الأمر على ذلك النحو. سألت نفسي:

ـ كيف يمكن أن يتبدل كل شيء هكذا. أين الخطأ الذي ارتكبته ليجعل الطفلين متبرمين إلى هذه الدرجة. وفرت لهما الطعام، وسرقت بسببهما. كنت أغير لهما ملابسهما، ألاطفهما، وأسامرهما. أنقذت كريستيان من ليل المدينة. تركته ينام في سريري. خبأته من والديه. أين الخطأ؟

أمسكت كريستيان من كتفيه، وهززته وأنا أصيح:

ـ كفى يا كريستيان! لا تبكي هنا.

أردت أن أكون صارمة. حاولت ألا يرى اليأس الذي أشعر به.

ـ كفى أيها الغبي الصغير!

قلت له مرة أخرى، وأنا أمسكه من ذراعه. كان جسده باردًا بطريقة بشعة. فكّرت في أن أهزّه بقوة، ثم أطرده إلى خارج الكوخ كي أنعم ببعض الهدوء. لكني بدلًا من ذلك أخذته بين أحضاني،

ودسست أنفي في شعره المبلل، واعتبرته طفلي الثالث. حدث تحول ما. كأنني قفزت عبر عنق ضيق إلى زجاجة يملؤها الظلام.

انفجرت في البكاء، ثم همست له قائلة:

ـ مسكين يا كريستيان الصغير! مسكين أيها الصبيّ! أنت صبي صالح.. كل شيء سيكون على ما يرام، كل شيء سيكون على ما يرام.. كنت أوجه الكلام لنفسي وليس له، وأتابع عبر شعر كريستيان الأشعث وجه الطفل في الصندوق وقد اكتسى باللون الأحمر. انتفض كريستيان، واضطربت أسنانه. لم يقنعه ما صنعته كي يسترخي، ويعرف أن الموقف الذي نحن فيه لم يتجاوز حدود المعقول بعد.

لكن وجه الطفل الأحمر لم يكن يشي بذلك. وجه الأبرش الأحمر يشتعل كأنه راية إنذار تشير إلى نقطة حرجة في الأفق. مكان تنفجر خلفه اليابسة. تتكسر وتهوي. سمعت حسيس المحطات التي تنتفض، وصوت الأحجار الصغيرة وهي تتساقط، وتتساقط. سمعت رجع صدى لانهيار قادم من بعيد. مجرد رجع صدى يختفي قبل أن تلتقطه الأذن. أغلقت عينيّ وأنا على قناعة بأن وجهي سيختفي طالما توقفت عن النظر.

كانت قصبات الحشائش تلمع خلف النافذة، وتتهادى وسط الرياح. تخيلت أن الحشائش تحفّ، وقطرات المطر تتلاطم في الهواء عندما تمر قطة ما في الحديقة. انهمر المطر من جديد، وتساقط على السقف المعدني بقوة مختلفة. كان ذلك حفيفًا من أثر تلك الضربات. لم تكن أي إشارات تحذير، ولا انهيار. مجرد حشائش وأمطار. لا أكثر ولا أقل.

قلت لكريستيان:

ـ كل شيء على ما يرام يا كريستيان! كل شيء على ما يرام. انقلبت الزجاجة والظلام، ووجدت نفسي مرة أخرى في ضوء النهار. الآن اخلع ملابسك! وارتدي قميصي! ستجد أسفل السرير كيسًا بلاستيكيًا به بعض الأشياء القديمة. ابحث هناك عن شيء تلبسه! لا يهم ما ستلبسه، فلن يراك أحد هنا. بسرعة قبل أن تصاب بالبرد! انهض!

أشعلت المولد البديل: غيرت ملابس كل من الطفلين بسرعة وبمهارة. استطعت أن ألفت انتباه أديلا بكأس بلاستيكيّ أخذته من محطة القطارات، كان يستعمل للقهوة. لاعبت يعقوب بثمرة تفاح متجعدة معلقة في الرباط. أطعمت الطفلين مرة أخرى. ومن جديد حملت أديلا، ودرت بها في الغرفة إلى أن تجشأت. أوقعت بعض اللبن المجفف على الأرض، فمسحته. أطفأت المدفأة إذ أصبح الجو في الغرفة خانقًا. تناول كل منا شريحتين من الخبز مع عجينة الشيكولاتة، وطبق صغير من التوت.

كانت حبات التوت مجرد ذريعة كي أخرج من الكوخ لبضع دقائق، أستنشق فيها الهواء. كانت الحشائش تصدر حفيفًا بالفعل، تمامًا كما تخيلتها. التصقت سيقانها ببعضها، وانثنت تحت وطأة قطرات المطر. كان الماء يتساقط من حبات التوت، وثمرات التفاح تسقط من فوق الشجرة. سمعت صوت سيارة إسعاف من بعيد. وإحدى مداخن شركة تكرير البترول ما زالت مشتعلة. كانت المدينة تعج بالحياة، لكن بإيقاع مختلف عن إيقاع الحديقة. لا أحد هناك يعلم شيئًا عن الأطفال الأربعة المختبئين خلف سور من النباتات.

لم يعلم بأمرنا أحد. وذلك ما أعجبني. بدأت تعجبني أكثر لعبة حياة الأسرة.

وضعت حبات التوت في تي شيرت مُطبّق، ثم جلست أسفل الشجرة فوق حجر كبير مهمل. لم يكن هناك بالأمس، وها هو اليوم يقبع هنا، في مكان جفّت فيه التربة تقريبًا، أسفل قمة شجرة التفاح، ويستعدّ ليصبح تاجًا. دبّ هدوء في نفسي من جديد، وصل إلى درجة السعادة.

الشيء الوحيد الذي أقلقني، وكدّر حياة أسرتنا كان وجه الطفل. لونه والتورم في وجهه الذي لم يكن ينبئ بأي خير. لكن ما طمأنني أن الطفل لم يكن يبكي. تمامًا كما كان حاله في اليوم السابق. ويبدا أنه لا يعاني من أي شيء. إذن طالما لا يتألم؛ فالأمور ستكون على ما يرام. ذلك الاحمرار سيختفي حتمًا من تلقاء نفسه، كما ظهر من تلقاء نفسه من دون سبب يُذكر.

لم أعلم شيئًا عن الارتداد، ولا عن الحساسية، ولا عن صدمة الحساسية المفرطة التي تحدث بعد استخدام مواد تسبب الحساسية. أنا شخصيًا كنت في صحة جيدة. كنت عندما أصاب بنزلة أبرد أعالجها بالمشي. لم أرقد في المستشفى إلا عندما أرادت لوتسيا أن تضعني هناك لتقضي أمرًا ملحًا. فمن أجل أن تجد من يرعاني ادّعت أني أعاني من ألم شديد بالرأس، ويغشي عليّ من وقت لآخر. حصلت على إجازة من المدرسة، واستطاعت هي أن تسافر لإنهاء عمل ما. لم يكن الوضع في المستشفى سيئًا. طعام ساخن، وممرات طويلة زلقة. كانت لوتسيا تحمل معها من رحلاتها الكثير من الهدايا، لذلك لم أنزعج كثيرًا مما حدث. عندما رفضت طبيبة الأطفال التي أتردد عليها أن ترسلني لإجراء فحوصات تخصصية لأنها تعرف أن صحتي على ما يرام، بحثت لوتسيا عن طبيبة غيرها، ومارست تلك الألاعيب معها من جديد.

لم أكن أعرف أن الأطفال الرضع ضِعاف إلى هذه الدرجة. إنهم

مثل ماكينات ساعات اليد، حيث التروس المسننة تتصل ببعضها بكل دقة. يكفي أن ينكسر سنّ واحد منها، أو عجلة صغيرة تصدأ حتى تصبح الساعة كلها عديمة القيمة. عطل بسيط وبعده تبدأ الساعة في التصدّع والتلكؤ، فيتندّى الزجاج، وتقف عقاربها. إن الأطفال ماكينات صغيرة غير مكتملة، يخل توازنها حبة فول سوداني واحدة، أو جرعة لبن بقريّ.

شيء لا يصدق!

ماذا سأفعل لو أن يعقوب أفرط في البكاء، ونزف دمًا، أو سعل؟ يجب سأحمله إلى المستشفى، وأتركه بكل أشيائه في غرفة الانتظار.

ماذا سأفعل لو أنه لم يستيقظ في الصباح؟ لو أن لون وجهه الأحمر يعني أنه قد مات؟ ماذا عساي أن أفعل؟ هل سأفعل ما فعلته مع القط الأسود؟

وماذا سيكون حال التوءم عندها؟ إنهما متلازمان، قلباهما ينبضان بإيقاع واحد.

رحت أنظر من النافذة إلى ما يفعله كريستيان. لقد دبت فيه الحياة. استيقظ وبدأ يتصرف كأنه تناول ثمرة توت غريبة. بدأ كريستيان يلعب دور الأب. أراد أن يفعل كل شيء بمفرده. أراد أن يغير حفاضات الطفلين وملابسهما. أراد أن يحملهما ويطعمهما. أراد أن يشعل المدفأة التي لم نكن في حاجة إليها في تلك اللحظة. أراد أن يقطع الخشب الذي لم يعد لدينا. كان يسهب في الحديث، ويعلق على كل شيء. يلاطف الطفلين باستمرار على أيديهم ورأسيهما. يضمهما ويلاعبهما. كان يتحدث معهما على طريقة الكبار. يا صغنونة، يا صغنونة! يتلعثم معهما في الكلام،

ويستخدم كل كلمات التدليل تقريبًا، يُلوّن الكلمات ويرققها كي يفهمه الطفلان على نحو أفضل. لكن أحدًا منهما لم يكن يفهم منه شيئًا. اهتم أكثر بيعقوب. ربما لأنه ذكر، وربما بسبب اللون الذي اكتسى به وجهه.

أنظار الناس تلتفت إلى كل ما هو شاذ. والأطفال تفعل ذلك بكل صراحة. الأطفال تنتبه، وتحدق بعينيها في أحد أطراف الجسم الغائبة، أو في شريط من خلال فتحة ما، أو في وجه قميء. وجد كريستيان متعته في ذلك. راح يتطلع إلى الطفل من قريب، يضع أنفه على أنفه، يلمسه برقة. كان يجفف له فمه بالخرقة إن تدلى منه اللعاب. كان مشهدًا مؤثرًا. خوفه ورعونته ظهرا على وجهه. محاولته أن يرعى الأطفال ولا يلقي بالًا لمشكلاته الخاصة.

كان رقيقًا ومتيقظًا، يشغل نفسه على الدوام بترتيب الأشياء أو إصلاحها، كثنيات البطانية، والمصباح، والألعاب. كان مثل مربية مُدربة على نحو جيد. تتسم حركاته بتكلف واضح يقلد فيها الكبار. إنه طفل فهم مبكرًا أن الانطباع الخارجي مهم، فراحت طبيعته وتلقائيته تتوارى. لم يكن صعبًا عليّ أن أتخيله وهو في بيته. في غرفة الصالون - صالون به طاولة للطعام مستديرة تكفي لثمانية أفراد، في شقة بإحدى العمارات، لم يصدقه أحد أن لديهم صالونًا، وأنهم يستخدمونه - أتخيله وهو يجلس وهو يضع يديه في حجره أمام أمه، وينتظر تعليماتها. وعندما تصدر الأوامر يضع كريستيان ساعده على الطاولة، ويتناول ملعقة بيده، يمسح فمه بالمنديل، ويجمع فتات الطعام في يده. أتخيله يسوّي لعبه في البيت قبل النوم. وعندما يعود من المدرسة يغير ملابسه، ويرتدي سروالًا وتي شيرت. إنه يتمضمض منذ صغره بماء لتنظيف الأسنان. وعندما تأمره أمه بأن يغلق عينيه لينام، يغلقها وينام.

كانت أم كريستيان تبدو كسيدة كاملة، تهتم بنفسها. تبدو دائمًا متناغمة، وتلفت الأنظار إليها، ولا تتحرش بأحد. كانت امرأة بمعنى الكلمة إلى درجة تدفع الإنسان إلى الجنون. لم يكن الناس يشعرون في وجودها بأنهم كبار على غير طبيعتهم، وأنهم حمقى مزعجون. لم يكن صعبًا أن أتخيل أم كريستيان وهي تأخذه لجلسة مع طبيب الأطفال النفسي. يمشي بجوارها صامتًا ومتوترًا، يحاول ألا يلفت الأنظار إليه. لا يتكلم بصوت عالٍ، ولا يصنع لنفسه ظلًا. يحاول أن يكون ولدًا صالحًا، وهادئًا. لم يخيب ظن أمه. لم يكن صداعًا في رأسها مثل جميع الأطفال. كانت أمه توزع الابتسامات على الناس وهي تمشي كي لا يعرف أحد إلى أين يتجهان. لم تتردد على الطبيب النفسي في مدرستنا، لكنها كانت تسافر إلى مدينة «مودرا». رغم ذلك كان الجميع يعرف ماذا تفعل. كانت أم كريستيان تستطلع رأي الأطباء النفسيين عند كل حادثة يتعرض لها ابنها، عند أي وخز، أو مشاجرة عاديّة، أو اقتتال بين الأطفال. تأتي إلى المدرسة بعد كل ملحوظة تُوجّه لابنها لتتحقق من جميع التفاصيل. كان الأطفال يسخرون منه، ويطلقون عليه: كريستيان المجنون، كريستيان المريض نفسيًا. كريستيان المنحرف. كريستيان التافه.

فجأة قال لي كريستيان عندما استلقينا نحن الأربعة على السرير لنلعب:

- أمي ستُطلّق الآن بالتأكيد.

أخيرًا بدأنا نشعر بالسعادة. صنع المطر الذي ينقر فوق سطح الغرفة حاجزًا بين ما يحدث الكوخ وما يدور هناك في المدينة.

- لماذا ستُطلّق؟

- لأنها أخبرتي أني لو لم أكن ولدًا صالحًا، فسيهجرنا أبي،

وعندها يجب أن تنفصل عنه. سيهرب بسببي.

- لماذا بسببك؟

- لأنني لم أعد ولدًا صالحًا. لقد سرقت، وكذبت.

- إنه أمر عادي، ولست الأول ولن تكون آخر من يفعل. كم أنت حمار! أتعرف كم مرة سرقت من المتجر؟ وماذا حدث لي؟ لا شيء. أنت طفل صغير، وسيسامحونك على ما فعلت. سيسعدون عندما يرونك معهم في البيت.

- لا، لا، إنهما سيُطلّقان، وسيضعانني في الملجأ. قالت لي أمي هذا.

- متى قالت لك هذا؟

- لقد كررت هذا الكلام أكثر من مرة. عندما لا أطيعهما فسيضطرون إلى وضعي في الملجأ، وسأتربى هناك.

- دعك من هذا الأمر يا كريستيان! ضعْ يعقوب على بطنه، ألا تراه يمد جسمه! سأذهب لإعداد الحليب، فالطفلان سيجوعان بعد قليل. الساعة قاربت العاشرة.

سيضعونني في الملجأ بالتأكيد.

قالها كريستيان بكل ثقة في أنه يعرف الحقيقة، ثم أدار يعقوب على بطنه، وقال لي مستنكرًا:

- لا تقولي لي إنهما لن يفعلا.

كانت والدة كريستيان مختلفة تمامًا عن لوتسيا. وضعت على العكس منها تمامًا خطة محكمة لحياة كريستيان ومستقبله. كانت

تحسب كل خطوة تقوم بها، حريصة على المواقيت، ولم تترك شيئًا للصدفة. كانت تراقبه في كل خطوة يخطوها. تهتم بكل شيء في حياته. أقنعته برقة بأنه عطشان أو مرهق، ويجب أن يشرب أو ينام. حددت له مواعيد متى وأين يجلس، حدد له كتابه المفضل، واختارت له الملابس كي يظهر بصورة لائقة. كانت تطهو له طعامًا صحيًا. وكان يحصل على كعكة فقط على سبيل المكافأة. يحصل فقط على نصفها كي لا تفسد أسنانه. كانت تطهو له الكعك من دقيق غير معالج كيميائيًا كي لا تنتشر السموم في جسده. لم تكن تثق فيما يقوله. لم تكن واثقة من أنه نبيه بالقدر الكافي لكي يقرر بنفسه فيما سيفعله ومتى سيفعله. كانت تخاف عليه، تخاف من أنه لن يستطيع العيش من دون رقابة منها. إنها ما زالت تضعه في السرير رغم أنه تلميذ في المدرسة، تراقبه في أثناء الليل لتتأكد من أنه يتنفس، تقيس له الحرارة. لم يكن يخلد للنوم وحده، بل ويده مندسة في شعرها. كان طفلها الوحيد، ولم تتمكن من إنجاب أطفال غيره، لأن أباه رفض إنجاب المزيد. فالأطفال تكلف الكثير، وتسبب الإزعاج، وتعرقل الوالدين.

لم أفكر يومًا في حاله بعد أن اختفى كريستيان. لم يتحدث كريستيان عن أمه بكلمة واحدة. ولا عن أبيه.

وجدنا أنفسنا نحن الأربعة في عالم موازٍ. تقبلنا المهام الجديدة، وأسسنا أسرة. كانت واجباتنا كثيرة. انصب كل اهتمامنا على الطفلين. حاول كريستيان بكل حماس أن يكون أبًا وليس طفلًا ثالثًا. ودعّمته في محاولاته رغم أنه كان سخيفًا وأرعن. في بعض الأحيان كنت أود أن أضربه ضربًا مبرحًا، وأطرده ليهيم في الأدغال.

لم يكن مسموحًا له في البيت أن يفعل شيئًا محفوفًا بالمخاطر،

كأن يستخدم سكينًا، أو مقصًا حاميًا، أو يتصفح الانترنت، أو يتسلق الأشجار، أو يركب الدراجة من دون خوذة. كل ما كان في الكوخ تقريبًا لم يخل من المخاطر. بدءًا من التشغيل المتهور للكهرباء، وانتهاءً بإفرازات الجسم في الكئوس. كانت الشفرات الحادة، والأطراف المدببة تحاصر كريستيان في كل مكان. وسنحت له فرص أخرى. لم يلاحقه أحد، ولم يوجهه. كنت أحرص على ألا يرتكب حماقات كي لا يحرق الكوخ، أو يعبث مع الطفلين. باستثناء ذلك كان حرًا تمامًا فيما يفعله. كان في مقدوره أن يتركنا، أو يبقى معنا. كان يمكنه أن يعود إلى بيته، لكنه لم يهتم بشيء كهذا. فهناك تنتظره عصابة من الصبية، وأُمّ محبطة، وأب يتأهب لكي يطلّق زوجته، ومدرسات ستعطيه درجة متدنية نتيجة تصرفاته، وعشرات الأطفال المتوحشة التي تتربص بسلوكه المتردد. كان آمنًا في الكوخ، لديه ما يأكله، وما يروح به عن نفسه.

إضافة إلى الطفلين! كان يرعاهما ويحملهما. ينظر إلى أديلا.. هي تلبس الحفاضات. لم يرض شيئًا كهذا في حياته من قبل.

كان كريستيان يثق بي. فلك يكن أمامه خيار آخر.

أحيانًا كنت أفكر إن كان كريستيان يعي أن ما يحدث في الحديقة ليس لعبة، ولا برنامجًا في معسكر للأطفال. وأنه لم يكن حلمًا يتبخر بعد أن يستيقظ، ويظل ذكرى مشوشة.

في الصباح وضعت له أمه شطائر الخبز في حقيبة الظهر، ودهنتها بعينة من البيض. دست له عيدان الحلوى، ثم تفضلت عليه بأن تركته يخرج لمدة ساعتين . سمحت له أن يمشي في طريق لا يمكننا أن تراقبه فيه من خلف النافذة. سمحت له أن يستمتع قدر استطاعته بآخر أسبوع من الإجازة. وفي المساء،

وبدلًا من أن تضعه في سريره الساعة الثامنة بعد تناول العشاء لينام في غرفة جيدة التهوية، يضطر إلى أن يغسل ملابس الأطفال الملوثة بالبراز في الظلام، وتحت المطر وحده، ولا يضره أنه سرق والديه والمتجر.

سمعت عن أخ وأخت غير شقيقين وقعا في غرام بعضهما، وقررا أن يتزوجا. كانت البنت في السابعة من عمرها، والولد في العاشرة. أخذا معهما شقيقتهما البالغة من العمر خمسة أعوام كشاهدة. وفي صباح أول يوم من العام الجديد وقبل أن يستيقظ والداهما استقلا الحافلة، وتوجها إلى محطة القطارات. هناك قررا أن يركبا القطار، ويتوجها إلى المطار. وضعا الطعام وملابس البحر، والعوامات في الحقائب. كانا يتوجهان إلى أفريقيا. فالطقس هناك حار وجميل.

سمعت عن صديقين هربا من الحضانة، وتجولا في أرجاء المدينة على دراجة بثلاث عجلات مسروقة لمدة ثلاث كيلومترات، وعثروا عليهما في السوبر ماركت، في قسم ألعاب الأطفال.

قرأت عن طفلين في الثانية عشرة من مدينة توسكانيا الإيطالية رفض والداهما العلاقة بينهما. وصل الطفلان إلى مدينة فينيسيا من أموال وفروها من مصروف الجيب. تجولا يدًا بيد في شوارع المدينة الحجرية. توقفا عند الجسور. وعندما حلّ الليل ذهبا إلى لوكاندة صغيرة ولطيفة وسألا عن غرفة لهما. تفهم موظف الاستقبال موقفهما. استدعى شرطة المدينة، فجاءوا وأخذوهما في نزهة في الجندول على السفينة، وشاهدوا المدينة كلها. ثم أخذوهما إلى البلدية، ووضعوهما في إحدى الكنائس. نام الطفلان

هناك في غرفتين منفصلتين. وفي اليوم التالي أعدوا لهما غرفة تطل على فناء يعود إلى القرن الخامس عشر، وطاولة، وقدموا لهما على الغداء ثلاثة أصناف من الطعام. ثم جاء والداهما، وانتهت بذلك أوقات الرومانسية.

لا أعرف طفلًا لم يخطط للهروب ولو مرة واحدة في حياته. أعرف أطفالًا يهربون بشكل منتظم، مرتين أو ثلاث مرات في الشهر. ودائمًا يعودون في اللحظات الأخيرة. كان هروبهم مجرد تمرّد، كأن يتسكعوا في الغابة في أثناء تمشية مع الكلب، أو يركبوا الحافلة الخطأ عند عودتهم من المدرسة. يحصلون من بعدها على عقاب لمدة يومين. أعرف أطفالًا تخطوا الحدود. وأعرف أطفالا تاهوا ولم يعودوا. الطفل الذي لا يفكر في الهرب يبدو غريبًا إلى حد ما. من المؤكد أن هروب كريستيان كان سينجح لو أنه لم يقابلني.

عاودتني تلك الصورة بعد مرور أعوام عليها. جلست مع بيتر في السيارة. وقع كل منا في غرم الآخر. راحت السيارة تندفع فوق هضبة منخفضة، في طريق بين الأراضي الزراعية. يتطاير التراب في كل مكان، وتدافع الأحجار بين العجلات. التزم الصمت وأنا أيضًا. لم يراودني أي شعور بالذنب بأني تسببت في مشكلة عن غير قصد. والآن يجاهرني بيتر بها بصمته هذا. بأني امرأة غبية، لا تجيد قراءة الخرائط. كلانا أخطأنا، أحدنا قرر أن نسير في اتجاه مختلف. ربما أن الرياح تهب من هنا، ربما جاء رنين جرس من بعيد. من عساه أن يتذكر، من عساه أن يلاحظ جميع الإشارات التي تظهر أمامنا.

أغلقنا نوافذ السيارة كي لا يسقط التراب على لوحة القيادة. الشجيرات تخدش طلاء العربة، المحرك ينبح مثل الكلب، لكن المروج والحدود من خلف مواقع تدريب الدبابات هادئة. فجأة

أدار بيتر عجلة القيادة، ومرّ بالسيارة عبر مرج بكر. توقف قرب غابة، ومن خلفنا خطان سكة حديد مختبئان وسط الحشائش.

جلسنا على الأرض، واستندنا إلى عجلات السيارة الساخنة نتطلع إلى المروج. خلع حذاءه بعد لحظات، ثم تمدد مستندًا على جانبه، ووضع رأسه فوق فخدي، وطوّق قدميّ بيديه. كان شعره أشيب من الجانبين، وترهل الجلد على رقبته.

أغمضت عينيّ فرأيت وجه كريستيان، وتفاحة تتهادى فوق رأسي الطفلين، رأيت يديهما والملاعق الملقاة فوق المدفأة الباردة.

فتحت عينيّ فرأيت بيتر، شعرت بثقله وحرارة جسمه فوقي. أشياء، وروائح، وأصوات. لحظة. كان لقاء لا يمكن أن أخطط لأفضل منه. آلية تُحرّك الصمت، من تلقاء نفسها. كنت في أفضل حالاتي. لم ينقصني شيء.

استهلكنا كل الحليب. أوقع كريستيان وهو يتحرك متحمسًا جزءًا من مسحوق الحليب على أرض الغرفة. أزال المسحوق من على الأرض، ودسه أسفل السرير من دون أن يخبرني. ثم نفخ الكيس الفارغ، ووضعه على الرّف كي لا أنتبه إلى ما حدث. جعلني ذلك أفقد أعصابي. يا لها من سذاجة. سذاجة الأطفال التقليدية التي لم أكن في حاجة إليها، ولم أفهمها. شعرت بخيبة الأمل، فلم أكن أنتظر شيئًا كهذا من صبي قادر على أن يدس إبرة تحت أظافره. قلت لنفسي:

- لن أنهره، لكن عليّ أن افعل شيئًا آخر كي يعلم أن لا وجود للأرواح في الحديقة، وأنهم لن يضعوا حليبًا مجففًا في الكيس الفارغ.

- خذ نقودك يا كريستيان، وانصرف لتحضر لنا حليبًا، هل فهمت؟ ارتدي ملابسك! صحيح أنها ما زالت مبللة، لكن لا يهم، فالمطر ينزل في الخارج على أية حال. البس سترتي أيضًا، وضع غطاءها فوق رأسك حتى لا يتعرف عليك أحد، مع أن كل الناس قابعة في بيوتها، انظر كيف تهطل سيول الأمطار. هذه هي حقيبة ظهرك! وخذ هذا الكيس أيضًا. حسنًا؟ حسنًا. اركب الحافلة رقم خمسة! لا تذهب إلى المتجر الكبير، فهذا سيستغرق وقتًا طويلًا. يكفي أن تركب محطة واحدة، ثم اذهب إلى أي متجر صغير. أنت تعرف أي متجر. ذلك الذي يجاور الصيدلية. فهمت؟ اشتري علبتين من حليب طويل الأجل، ذلك الذي عليه بقرة زرقاء، واشتري أيضًا شيئًا نأكله. سأترك هذا الأمر لكَ، إنها أموالك. اشتري شيئًا معقولًا كي نشبع. هل فهمت؟! بسرعة لأن الطفلين جائعان. فلولاك لما جاعا يا كريستيان! انطلق!

لم ينتظر كريستيان حتى يلتقط أنفاسه، وعلى الفور التقط بإحدى يديه سرواله المبلل، وباليد الأخرى حقيبة الظهر الصغيرة. وخلع سروالي بكل إذعان، وارتدى سرواله. كان جسمه ينتفض، لكني دفعته بكل قسوة خارج الباب. لم أبد أي تعاطف معه في تلك اللحظة. واعتبرت أن تلك العقوبة مناسبة.

لكن كريستيان ارتعب، وبدأ يحتجّ. تمتم قائلًا:

- لا، لا، لا يمكنني أن أذهب، ياركا! أرجوكي، أنا أنا أنا أنا لا أريد، لن أذهب إلى أي مكان.. وحدي.. أرجوكي، من فضلك.. وهكذا بقينا للحظات نتدافع عند عتبة الباب. أمسك هو بحلق الباب، وأنا أدفعه إلى الخارج بركبتي.

صرخت فيه:

- يا كريستيان! الأطفال جائعة، وأنت السبب أن الحليب نفد منّا. ببساطة أنت مضطر إلى الذهاب.

راح ينوح، ويقول:

أنا أنا أنا، أرجوكي، أرجوكيييي..

لكني كنت قاسية، فقد اتخذت قراري بأن أجبره على الخروج، حتى لو تجمد من البرد. كلما زاد في تراجعه زاد إصراري على أن أغلق الباب. لم أكن أرغب في السير تحت ذلك المطر، ولم أقو على أن أتركه وحده مع الطفلين طالما كان حمارًا أخرق بهذه الطريقة. لكن كريستيان بدأ يبكي ويتوسل حتى كدت أن أسحبه إلى داخل الكوخ. حنى ساقيه عند ركبتيه، وقوّس ظهره، ودس رأسه بين كتفيه. جاهد نفسه كي يكتم البكاء إلى أن صار يرتجف مثل غسالة الملابس. أمسكته من كتفيه، ورحت أهزّهما.

قلت له:

- كريستيان! توقف! لا يجب أن تكرر تلك المسرحية! نحن في حاجة إلى حليب لأن الأطفال جوعانة. فكّر في الأمر، واذهب لشراء الحليب، لكن بسرعة، حسنًا؟ انطلق أو اذهب إلى بيتك، ولا تعد إلى هنا ثانية! لا تصرخ، فالأطفال خائفون منك.

ثم حملت يعقوب، وبدأت أتجول به في الغرفة كي يشعر بالمشكلة. وبدأت أتحرّش بكريستيان عن عمد كي يفهم أنه يقف عائقًا، وعليه أن ينصرف. لكنه لم يظهر أي رد فعل. ظل واقفًا هناك ينتفض. تحركت هنا وهناك وأنا أدفعه. كنت غاضبة لأنه تسبب في مشكلات لا داعي لها. فقد عكّر الأجواء التي هدأت بعد ساعات طويلة من المعاناة.

انفجرت أديلا في البكاء. توقفت أمامه مباشرة، وطلبت منه بكل هدوء وإصرار أن ينصرف.

ـ الأطفال جوعانة، ألا تسمع؟ أم تريد أن تبقى أنت بمفردك معهما. هل أغلق الباب عليكم هنا؟ أحبسك معهما؟ هل ستهتم بهما؟ أجبني؟ استسلم كريستيان بعد تلك الكلمات، ثم أخذ حقيبته وانصرف.

صحت فيه من جديد:

ـ بسرعة!

شاهدته من خلف النافذة وهو يعبر بين الحشائش العالية على مهل، وهو يلتفت حوله، ويبحث عن مساعدة بين الأحجار، وفي قمم الأشجار. كان صغيرًا، تائهًا وسط النباتات.

كانت الساعة العاشرة وأربعين دقيقة. قلت لنفسي إنه ما لم يحضر خلال ساعة سأضطر إلى أن أذهب لإحضار الحليب بنفسي. خسارة أنه لم يسرق ذلك المبلغ في أوراق بنكية صغيرة، كي أسرق منه ورقتين أو ثلاث ورقات بنكية وأحل بها مشكلة من مشكلاتي.

اشتد بكاء الأطفال عند الظهيرة حتى قررت أن أسكتهم بالفيتامينات. هرست حبات التوت بملعقة في الطبق بعد أن غسلتها، ثم ناولتهما إياها بجرعات صغيرة في فميهما المفتوحين. واحدة من أجل ياركا، وواحدة من أجل كريستيان، وواحدة من أجل أديلا، وواحدة من أجل يعقوب. أكلوا كل شيء. ولعقت ما تبقى منه بين أصابعي. استسلما للنوم وأنا معهما.

أتذكر حلمًا قديمًا. كان الثلوج تتساقط وأنا أمشي فوق رصيف اتّخذ شكل مجرى نهر ضحل. رجل ما يسحبني من يدي. لا أعرف من يكون. لم أرفع رأسي، ولم أنظر إلى وجهه. كان عمري في الحلم نحو خمسة أعوام. أرتدي معطفًا أحمر، يعلو كُميّه صفان من شريط أزرق، وأضع فوق رأسي قبّعة جلدية بيضاء. تتهادى على صدري كرتان معلقتان في خيط، وكنت سعيدة بهما. أسير على مهل، ببطء مثل بطء الثلوج وهي تسقط. لكني أحيانًا أقفز كي تهتز الكرتان. الثلوج تئز، ولا أسمع سوى أزيزها. يمتص الثلج كل الأصوات الأخرى، أصوات صياح الأطفال، وهدير السيارات المارقة، والنهر.

يمشي أمامنا طفل. فتاة أكبر مني بقليل، وتجر خلفها زلاجة. تبتسم، وتقفز في الهواء. مرة تدفع الزلاجة أمامها، ومرة تجرها خلفها، ثم تجلس عليها وتحاول أن تدفعها بقدميها. أرى أنها تقول شيئًا، تتحدث عني، لكني لا أسمعها وسط الثلوج. لا أفهم ما تقول، عاجزة على أن أقرأ كلامًا من شفتيها. لا أفكر في ذلك الرجل الذي يمسك بيدي. أشعر بالأمن ويدي في قفازه الكبير. لا أشغل بالي بالتفكير فيه. فقد كان يساورني شعور بأنه حاضر في داخلي طوال الوقت. أنا جزء منه وهو جزء مني. يسير بجواري، لكني أشعر بأنه يطير فوقي في الهواء. ظله لا يسقط عليّ، لا يشدني. تعجبني

الكرات العالقة في صدري، أفكر فيها وأنا أدور برأسي كي تهتز أكثر فأكثر.

فجأة تجري الفتاة ثم تتوقف على بعد نحو عشرين مترًا أمامنا. تدفع الزلاجة إلى حافة الرصيف، في المكان الذي ينحدر منه الشاطئ نحو النهر، وتجلس عليها. تضحك، وترفع قدميها عاليًا، فيكشف سروالها عن ساق مغطى بجوارب خضراء. ثم تدفع نفسها بكل قوة، وتنزلق من فوق التل. يطفو الزبَد فوق سطح النهر، تخبط قطرات الماء في الهواء وفي قطع ثلج متكسرة. ثم يهدأ النهر، ويواصل رحلته بهدوء وانتظام تمامًا كما كان من قبل.

نواصل السير. الرجل يعلو في الهواء بجواري، والكرتان ترتطمان على صدري، ودقات قلبي تتلاحق عالية.

أعتقد أن الفتاة كانت شقيقتي، وأن الرجل الذي يسحبني هو أبي. ربما كان بيتر. ربما كان هذا حلم أحد غيري. فأنا لم يكن عندي أب ولا أخت يومًا ما. ربما كانت تلك مجرد أمنيات تمنيتها. أشياء كانت تنقصني كثيرًا وأنا صغيرة، ولم أتمكن من تحقيقها يومًا.

لا أعرف ماذا يعني ذلك الحلم، إن كان حلمًا. أتذكره جيدًا، أتذكر التفاصيل، لون الثلج، ومدى اتساع خطوات الرجل. هذا الحلم يراودني كثيرًا، ولا يمكن أن أنساه. أحمله في نفسي على مدار أعوام طويلة كأنه ورقة غريبة. أود أن أتخلص منه، لأنه يصيبني بالفزع.

أتذكر على وجه الدقة شعورًا غريبًا بالارتباط بذلك الرجل الذي يمسكني بيدي. أصابعي باتت بين أصابعه كأنها أسنان زمام منزلق. لست مضطرة إلى أن أبحث عن يده، فهي تنتظرني، إنها

في المكان الذي أحتاج أن أجدها فيه. خطوة من قدميه تساوي خطوتين من خطواتي كطفلة. يمكنني أن أذهب معه إلى أي مكان، إلى الظلام، وأسفل سطح ماء النهر إلى أي مكان. نفس الشعور راودني بعد أعوام، بعد أعوام طويلة وأنا مع بيتر. لا أتذكر أني شعرت به من قبل ولا من بعد.

جلسنا في المرج. كان مشهد خلابًا، وكانت السحب تنتشر من فوقنا. رحت أقول لنفسي وأنا أضع رأسي فوق كتفه إن ما أشعر به يشبه شعور الأطفال في أرحام الأمهات. كأنني في ماء دافئ، في حالة انعدام للوزن، في غلاف رقيق يحمي من دون ضغط أو اختناق. قل لنفسي:

- إني أحبه، أحبه من كل قلبي، وأحتاج إلى نفسه، وقلبه، وكل جسده. أحتاج أن أكون بالقرب منه كي أتنفس الهواء الذي يخرج من رئتيه، كي تنام يدي في يده. كي أشعر به وهو يستجيب لحركاتي ولكلماتي، كي أتفاعل أنا نفسي معه، كي أشعر أخيرًا بالطمأنينة والسكينة. بالطمأنينة الحقيقية والهدوء الحقيقي. كي أحدد لنفسي هدفًا.

قال لي ذات مرة:

- أنت تتحدثين لغات متعددة أيتها الجميلة، لغات لا أعرفها.

وقال أيضًا:

- لأن البعض لا يجيد الحديث إلا مع شخص واحد. عثر في نفسي على أشياء لم أعرف بوجودها.

توقف المطر، فخرجت مع الأطفال لاستنشاق الهواء. أفرغت الماء من العربة أولًا، ثم مسحتها ووضعت فيها فراشًا جافًا. كنت

مثل حيوان يُعدّ لنفسه عرينًا، ويملؤه بالحشائش والفراء. سحبت العربة إلى أسفل شجرة التفاح، ثم جلست على أحد الأحجار.

كان الهواء مفعمًا بماء المطر، ورائحة الحشائش تملؤ المكان. كانت المدينة بعيدة، والكوخ يبتعد ويتضاءل. ارتفعت المياه، وتدفقت إلى السفن القادمة من أحلامي، وفاضت في عينيّ.

كان الطفلان هادئين، استلقيا يتطلعان حولهما. كانت البقع ما زالت تظهر على وجه يعقوب، لكنني تعودّت على وجهه بذلك اللون. يبدو أن حرارة أديلا ارتفعت. أزلت عنها الغطاء كي تعتدل حرارة جسمها. تصلبت معدتي الممتلئة بمعجون الشيكولاتة. معدة صغيرة تزعجني مثل حبة جوز محشورة في جيب سروال ضيق.

كان الطفلان هادئين. استلقيا يتطلعان حولهما. كنت سعيدة من هدوئهما هذا.

فكرت كيف ستكون الحال لو أننا قضينا البارحة ومعنا ثلاجة مليئة بالطعام، ولم أضطر إلى البحث عن طعام منسي في أرجاء الشقة. لو أنني لم أرَ الورقة الصغيرة أسفل شطيرة الخبز التي لم تكملها لوتسيا، لو أنني لم ألتق بالصبية، ولو أنني لم أضرب أحدهم بلوح الخشب. لو أنني تأخَّرت في المتجر، لو أنني لم أرفس العلبة فوق الرصيف أمام محطة القطارات، ولم ترتطم بحجر صغير فتتغير اتجاهها.

ماذا كنت سأفعل؟ سأتجول في الحي تمامًا كما فعلت أول من أمس، وكما فعلت الشهر الماضي. سألعب مع الأطفال الصغار في منطقتنا فوق تل التزلج، وسأركب معهم المراجيح. سأجلس على محطات الحافلات، وفي الاستاد المتهدم، وأمام متجر المأكولات، وعلى الدرج، أو في أفضل الأحوال سأجلس في الحديقة تحت

شجرة التفاح. بعدها أركب الحافلة، وأذهب إلى مركز المدينة، وأعود لأنام. ربما فكرّت في أثناء كل ذلك في المدرسة، وفي وجبة الغذاء في مطعم المدرسة. سأقف عند نافذة المطبخ أتطلع إلى مرفأ السيارات، على أمل أن أرى أحدهم يقل لوتسيا. سأشاهد التليفزيون حتى وقت متأخر من الليل، سأشاهد فيلمًا من أفلام الإثارة أو الكوميديا الرومانسية. سأنام في سرير لوتسيا.

كنت أحيانًا أنام في سرير لوتسيا عندما تتركني في الشقة وحدي في أثناء الليل. كنت أشعر بها موجودة في الشقة، أشعر بحرارتها. لم تكن تراودني في ذلك الدفء أحلام الآخرين. كانت فقط أحلامي. أحلامي الطيبة اللطيفة والمفهومة. أحلام عن بلوغ سن الرشد. إنه ملخص الأيام السابقة، وتصوراتي عن مجرى حياتي لو أنني سيطرت على نقاط التجول الموجودة في مسيرة حياتي. هل يوجد شخص في العالم يمكنه أن يتحكم في نقاط التحول في حياته؟ ليتني أعرفه.

عندما تعود لوتسيا في الليل؛ كانت تُشعل مصباح النيون كعادتها، ثم توقظني، وتأخذني إلى غرفتي الباردة. فأترك أحلامي السعيدة هناك، أترك الدفء الذي صنعته بصعوبة. كان ذلك مشهدًا يتكرر على الدوام.

انتظرت كريستيان. استلقى الطفلان في العربة الصغيرة لا يتحركان كأنهما دميتان. لم يتحرك منهما سوى عينيهما التي تتجول في كل اتجاه، وتخبراني أنهما ما زالا على قيد الحياة، يملؤهما الفضول، ومفعمان بقوة لتحريك عينيهما أشد من قوة طائرة مروحية تطير على ارتفاع منخفض فوق الأرض. يراقبان كل ورقة صغيرة فوق شجرة التفاح، وكل طائر، وكل ذبابة.

يقول الأطفال وهم على أعتاب سن المراهقة إنهم لن يكونوا مثل والديهم، ولن يكرروا نفس المسرحية الذي يلعبها آباؤهم كل يوم. الآباء متحفظون، رغم أنهم يعتقدون بغير ذلك، وبأنهم متفهمون، ومتسامحون، ومنفتحون. وأنهم لا يريدون سوى الخير لأبنائهم. ويعتقدون أن أبناءهم لن يُقدّورا ما يفعلونه إلا بعد أعوام. عندما يصيرون عقلاء، يفهمون أشياء كثيرة لا يمكن فهمها إلا بمرور الزمن، عندما نغادر نحن الآباء هذه الحياة.

سيقيمون علاقات طيبة، سيكونون صادقين ومخلصين. لن يكرروا أخطاء آبائهم. سينظفون الطريق أمامهم من جميع الأحجار بكل همة ومن دون أي تأخير كي لا تتكسر عجلاتهم فوقه. سيزيلون التراب عن أحلامهم التي لم تتحقق، ومشكلاتهم النفسية وطموحاتهم التي تعوق مسيرة آلة الحب. فكل شيء مرهون بالحب، كل شيء. يجب أن يبقوه حيًا بأي ثمن، وقويًا على الدوام كي يظل يحافظ على عمقه وجودته. الحب بين جميع أفراد الأسرة. هدايا بسيطة وورد.

سيكونون متفهمين، يشعرون بالآخرين، ويستمعون، ويصمتون كلما لزم الأمر. لن يُحقّروا من شأن أحد، ولن يسمحوا لأحد أن يستذلهم، لن يسمحوا لأحد أن يضربهم، أو يبتزهم. لن يتوقفوا عن

وضع أيديهم في يد الآخر، لن يخجلوا من القبلات على مرأى من الجميع. سيتحدثون معًا، ويتناولون طعام الغداء معًا، سيخططون لكل شيء معًا، سينامون معًا في غرفة واحدة. لن يخفي أحدهم عن الآخر مشكلاته الجنسية؛ كي تظل الرغبة متأججة على مدار السنين. لن يعاشروا زوجات ولا أزواجًا غير أزواجهم وزوجاتهم. لن يصرخوا في أولادهم، لن يطاردوا أبناءهم مثل الذباب. سيجيبونهم على جميع أسئلتهم. لن يسرفوا في الشراب كي لا يضطر أبناؤهم أن يبحثوا عنهم في المصارف. سيتصرفون بكل أدب كي لا يخافهم أبناؤهم، وكي لا يخجلوا من الحديث أو الضحك أو البكاء أمامهم. سيكونون قدوة لأولادهم. مفخرة ومثلًا أعلى لهم، خارطة طريق يُحسّنون منها على الدوام. إلى أبد الآبدين. آمين!

مرت ساعتان على انصراف كريستيان. وحان وقت إطعام الطفلين؛ رغم أنهما لم يبكيا بعد. خرجت إلى الرصيف، لكني لم أر أي أثر لكريستيان. لم أر سوى بضعة الأشخاص يمرون بين كرمين. ففضلت العودة، وحمل الطفلين إلى داخل البيت. أشعلت المدفأة، وغلوت الماء. وضعت في الطبق بضع حبات من الحليب الجاف العالق في ثنايا الكيس. لكنها لم تكن تكفي لعمل أي شيء. فأخذت الدقيق، ووضعته في الماء بدلًا من الحليب. كان السائل شبيهًا بالحليب، لكن طعمه سيئ نوعًا ما. لكني كنت سعيدة من طريقتي الإبداعية في معالجة المشكلة. أطعمت يعقوب وأديلا، قارورة كاملة لكل منهما. كنت بالفعل راضية عن نفسي، وعن تطور الأحداث. شرب الطفلان المياه الملونة دفعة واحدة. لم ترتفع معدة أديلا كما كانت تفعل. لم تبك. لكن جسمها كان ساخنًا، فوضعت على جبينها خرقة مبللة. أردت أن أغير لهما حفاضاتهما. لكن لم يكن هناك داع لذلك. قرأت لهما مقالة من جريدة حول كيفية تشغيل المدفأة. أدرت كل منهما على بطنه، أدرت وجهيهما

متقابلين كي يتحدثا معًا، ثم أحطتما بالألعاب. سويت المكان، وأحصيت عدد الحفاضات، ثم ذهبت للتبول. صببت على بعض قطع التفاح مياهًا ساخنة، ثم شربت السائل. خرجت مرة أخرى إلى الطريق، لكني لم أرَ كريستيان. لكني توقعت أن يعود.

جاء كريستيان قبل الساعة السادسة بقليل. كان واضحًا من الوهلة الأولى أن الصبي لم يقضِ ساعات وهو يمر أسفل شجيرات الكرز النابتة، لكنه مرّ بتجربة لم يكن مستعدًا لها ولا حتى نظريًا. كانت فانلتي الجميلة ممزقة، والسروال ملطخًا بالطين. قدمه اليمنى من دون فردة حذاء. يتصبب منه ماء، ويسقط فوق أرض الغرفة النظيفة. كان يحمل حقيبته الثقيلة على صدره وهي ممتلئة عن آخرها، وبدت كأنها حقيبة سفر تخبر من نفسها عن حياة صاحبها، كانت مسحوقة وملطخة بالوسخ.

اختفت من حركات كريستيان أي علامة على المقاومة، لم يبق منه سوى الاستسلام. كان في مقدوري أن أثني ذراعيه خلف ظهره وأجذب عضوه الذكري، ولن يستطيع أن يصدر أنّة واحدة. كان متجمدًا من البرد. لم يكن ممكنًا أن يفوز في مسابقة أفضل تلميذ في الصف الثاني. لكنه عندما مد يده بحماس المنتصر، وناولني الحقيبة المليئة بالطعام كان وجهه يشع فخرًا وسعادة، وأنا أمسك لساني كي لا أسأله لماذا تأخر كل ذلك الوقت.

أخرج من الحقيبة أرغفة الخبز الطازج أولًا، ثم سمكة مدخنة، ونقانق فرانكفورت، وشيبسي، وشيكولاتة، وحليب للأطفال، وشخاشيخ، وزوجين من الجوارب، وعلب بودينج، ومكرونة اسباكتي، سيارات صغيرة، وأقلام من الشمع، ورقاقات بطاطس مقلية. وبعد أن أفرغ كل شيء ووضعه على الطاولة بدأ يشعر ببرودة شديدة، وبدأت أسنانه تضطرب. خلعت عنه ملابسه، بكل

حرص ومن دون أية تعليقات غبية حتى صار يقف وسط الغرفة عاريًا تمامًا، أبيض مثل طائر صغير، باستثناء ساقيه ويديه. كانتا مكتسيتين بطين أسود. خبأ قضيبه الصغير بأصابعه، لكنه لم يحتجّ. لم تكن يداي أسوأ من البرد، والمطر، والشجيرات، والأشواك، والحشائش العالية المبتلة، والطين، والحفرة التي وقع فيها. مسحت القذارة من على جسمه بالخرقة المبللة التي سحبتها مع على جبين أديلا. ثم وضعته فوق السرير وهو ملفوفًا في البطانية، وأعطيته ما تبقى في قاع الكوب من شراب التفاح. أعطيته السيارات، والجوارب، والشخاشيخ كي يفضها بنفسه، ويعطيها للطفلين. أعطيته كوب بودينج. فتدفأ، وهدأ. لم يخبرني بأي شيء سوى أنه بقى وقت طويلًا في حفرة سقط فيها. غلبه النعاس بينما أغلي المكرونة الاسباكتي.

عثرت في جيوب سرواله أكثر مائة وخمسين كرونة من المعدن، وأوراق نقدية صغيرة. أخفيت نصفها في حقيبة النقود، وتركت النصف الآخر له.

استفاق يعقوب قليلًا من خموله، وتطلع حوله، ثم بدأ يرفس بقدميه، ويزيل الغطاء عن كريستيان وهو نائم. شحب لون البثور حول فمه، أو ربما أني اعتدت عليها إلى درجة أني لم أرَ فيها أية غرابة.

كانت أديلا تعاني من حمى. فلم تستطع الحفاظ على جسمها منتصبًا عندما أجلستها في حجري. كانت هشة ومستسلمة، وتدلت يداها مثل حبلين من المكرونة الاسباجتي. كانت ترشح عرقًا، لكن حفاضتها ما زالت جافة. لم يأتِ على ذهني أنه أمر غير طبيعيّ. كل ما فكرت فيه أن الحفاضات ستصمد معهما لوقت أطول.

كان الطفلان يعانيان من الجفاف، رغم أني كنت أقدم لهم شيئًا يشربانه بصورة منتظمة. كل ما فعلته المياه الملونة بالدقيق أنها سدّت معدتيهما، ولم يكن الحليب الكثيف كافيًا ليروى جسديهما الصغيرين. كان الجو في الغرفة حارًا، والطفلان يرتديان ملابس ثقيلة. هكذا كانوا يقولون لي دائمًا: البسي ملابس ثقيلة كي لا تمرضين! وعندما تشعرين بالمرض عليك أن تنامي في السرير، وتلفي نفسك في الغطاء جيدًا. لذلك كنت ألبس الطفلين ملابس ثقيلة، وأغطيهما بالبطانية كلما غلبهم النعاس. كنت أشعر بأني أمًا يَقِظة.

لم أشعر برغبة في النعاس ولا بالجلوس عند الطاولة، والاستماع إلى كريستين وهو نائم يرتشف ريقه ويتنهد. كنت أشعر بالبرودة، فقررت أن أذهب إلي البيت لأحضر بعض الملابس والأدوية. خرجت من الكوخ وأن أرتدي تي شيرت؛ حيث ضحيت بقميصي ذي الذراعين الطويلين، وأخذت حقيبة كريستيان الصغيرة. أغلقت الباب على الأطفال من الخارجِ كي لا يأتي أحد ويسرقهم. كان المطر ينزل، وظل يهطل بطريقة رتيبة لا ينقطع. تعمّقت الأخاديد التي تقطع الطريق، وامتلأت بالماء المتدفق من الكروم. قلت لنفسي:

- كان الجو طوال الصيف جافًا وحارًا، وصارت الأرض صلبة مثل الحجر. لكن صيفًا كهذا قد انتهى اليوم. بلا رجعة. وعليّ أن أذهب عند دوروتا لأعرف ماذا سنأخذ معنا في المدرسة. فهي دائمًا تتابع مثل تلك الأمور. سأترك كريستيان مع الطفلين، وأستقل الحافلة مساء غد، سأذهب إلى السوبر ماركت لأشتري كراسات، وزيًا جديدًا لو تبقت معي نقود. سأشتري حذاءً رياضيًا لكريستيان، وحفاضات للطفلين. فقد نسى أن يشتريها كريستيان.

لكن طلبات الأطفال بسيطة. يبدو أن النقود لن تكفي لشراء حذاء لكريستيان، إلا لو عثرت على بعض النقود في غرفة لوتسيا. يجب أن أتدبر أمر المدرسة لاحقًا. فهي ستبدأ بعد أربعة أيام. أربعة أيام طويلة. لا داعي للتفكير بتلك المشكلة الآن. فهى لم تصبح مشكلة بعد. انتهى الصيف، انتهى وقت الملل الحار اللطيف. لكن الدراسة لم تبدأ بعد ، ولا أشعر بحاجة إلى الطمأنينة من انتظام الأمور. إنها فترة عجيبة، صدع في الزمن سقطت فيه قدمي.

رحت أتحرك في الحديقة وفي الكوخ طوال اليوم. اعتدت ذلك العالم، حتى إني عندما فكرت في النزول إلى المدينة انتابتني حالة من القلق. كنت أرى كل شيء غريبًا: المدينة، والصور المنعكسة في برك المياه الصغيرة، الناس وهي تمر وسط الوحل القادم من حقول الكروم، العتمة التي بدأت تنتشر فوق الأرض متثاقلة وبالتدريج. انطلقت أهبط من فوق التل، أقفز في برك المياه الصغيرة كي ترتفع المياه منها عاليًا. هرولت حتى وصلت إلى مواقف السيارات، وقفت بالقرب منها ألتقط أنفاسي كي أجري وسطها لأتجاوزها دفعة واحدة. بعض المخاوف تقبع في أعماق أنفسنا إلى درجة تجعلها محتفظة بقوتها رغم مرور الزمن.

كان الحيّ خاليًا من السكان باستثناء خمسة أو ستة يبحثون عن شيء ما بين شجيرات نمت حول جدار منطقة المدرسة الصناعية. خيّل لي أني رأيت بعضًا منهم يلقي نظرة على الأرض الفضاء خلف السور، لكني لم أفكر في الأمر أكثر من ذلك؛ لأني لمحت ضوءًا قادمًا من شقتنا. راودني من جديد قلق كان قد اختفى في أثناء الجري، وجعل معدتي تنقبض. شعرت فجأة باضطراب كبير. كنت سعيدة أن لوتسيا عادت إلى البيت أخيرًا، لكني في الواقع كنت أتطلع إلى شقة خاوية وملابس جافة، لا أكثر. كنت أفكر في الطفلين وفي

كريستيان. صرت أرى كل شيء غريبًا قاسيًا بعد كل ما رأيته خلال اليومين الماضيين؛ البيت الذي أقف أمامه، والحي، والعمارات التي لا تسمح لتلك العتمة الرائعة أن تتسلل بينها. من المؤكد أني لم أكن أنوي البقاء هناك. كان عليّ أن آخذ بعض الأشياء ، لكني لم أجرؤ على مغادرة مكاني في ظل إحدى الأشجار. اِلتفتّ حولي، ونظرت إلى البيت المقابل. كانت غرفة المكتب التي يجلس بها والد كريستيان مضيئة. مصباح مخروطي الشكل يقف بلا حراك فوق المكتب كأنه اسطوانة من المرمر. هل يمكن أن أستنتج شيئًا من هذا؟ لا شيء على الإطلاق.

لم أكن متحمسة للذهاب إلى شقتنا. رحت أتصورها ببرودتها ورطوبتها. إنها أسوأ شقة في الحي على الإطلاق. تذكرت الطفلين النائمين، وكريستيان الملفوف في بطانية، تذكرت سور النباتات والأغصان الناتئة فيه. كان من العبث الوقوف وسط تلك العمارات الحقيرة، طالما استطعت أن أنام بجوار الأطفال.

كدت أتحرك من مكاني عندما سمعت صفيرًا مكتومًا. وانفصل ظلان عن حائط البيت، وهرولا نحوي، جسمان صغيران يتحركان بطريقة واحدة وكأن أحدهما انعكاس للآخر. باتيو وماتيو.

صاح كل منهم في نفس واحد:

-ياركا، هل سمعتِ بما حدث؟ كريستيان اختفى! ألا تعرفين شيئًا عنه؟ لقد جاءت الشرطة إلى هنا.. وجاءوا عندنا أيضًا.. وسألونا.. متى رأيناه آخر مرة.. وأين.. كان أحدهم يتكلم من خلال الآخر، في نفس الوقت، وكأنهما قد تدربا على ذلك من قبل. وعربة الشرطة ما زالت هنا.. ما زالت تدور هنا.. ألم تريهم؟

كانوا متحمسين، فقد كان كريستيان صديقهما، ويسكن في

العمارة المجاورة. كانا خائفين، لأنهما في البيت وحدهما، ويتوقعان أن يختفيا هما أيضًا بعد أن اختفى كريستيان.

قال باتيو:

ـ كل الجيران يبحثون عنه. وسنذهب نحن أيضًا لكي نجده.

خبطه ماتيو في عظمة كتفه ليدعوه أن يتوقف عن الثرثرة. أصلح باتيو الجملة، وقال:

ـ سنذهب للبحث عن والدينا.

واصل ماتيو الكلام بعد دفع شقيقه بعيدًا:

ـ ألم تلقيهما؟

لم يتركا لي فرصة للكلام. انفجرا مثل البركان، وانصرفا بنفس الطريقة. لم يبق منهما فوق الحشائش سوى خط متعرج. خرجت من تحت ظل الشجرة، وصعدت فوق الرصيف كي أراهما وهما يقفزان حول بركة ماء صغيرة. كنت سأعتبرهما توءمًا سعيدًا خالي البال، يذهب إلى المتجر لشراء الحلوى لولا أني رأيتهما بعد بضع دقائق أو ربما بعد ساعة يجرون أمهما إلى البيت من أحد البارات فوق الحشائش كأنها خرقة مبللة. كان عندي انطباع دائم بأنهما يعتبران تلك الجولات كأنها لعبة "استغماية" مع أصدقائهما، لا شيء غريب، ولا شيء تراجيدي. جزء طبيعي من حياة أطفال لآباء أدمنوا الكحول. لم يكن المحيط الذي يتحرك فيه أبواهما متسعًا. كانت جولاتهما المسائية بين الحانات والأكشاك المحيطة محفوظة لهما عن ظهر قلب. كانا يعرفان جميع الحانات، وكل من في الحانة يعرفهما. إن تكرار حتى أسوأ الأشياء يجعلها ناعمة، وانسيابية، ورقيقة. الروتين يكون مفيدًا جدًا في بعض

مواقف الحياة.

وفجأة مرقت بجواري سيارة نقل ثقيل، وتطاير الماء نحوي مباشرة من إحدى الحفر العميقة. لم يكن ممكنًا أن أتجاهل إشارة كتلك. وهكذا لم يكن أمامي إلا أن أنتبه، وأفتح الباب.

كان نور المدخل لا يعمل. وجدت عود ثقاب مدسوسًا في مفتاح الكهرباء. كانوا يغيرون لمبة مصباح الموجودة المدخل كثيرًا. فدائمًا كان هناك من يحرقها أو يسرقها، أو يكسر زجاج الغطاء الواقي عليها بعصي ما.

كان باب الشقة موصدًا، ولم أسمع أي صوت، لا صوت موسيقى، ولا صوت بشر. فتحت الباب بالمفتاح الذي معي، ثم خلعت حذائي. عندما خطوت أول خطوة، تعثرت بقدمي في شيء ما. شيء شائك وبارد. صرخت، ثم قفزت عائدة نحو الباب، وأضأت النور. كانت الملابس مبعثرة فوق الأرض، بلوفرات، ومعاطف، وسترات قصيرة من جلد صناعي. الملابس الثقيلة كنا دائمًا نضعها في حقيبة بلاستيكية سوداء بعد انقضاء فصل الشتاء. نغطيها بالجرائد، لأن حبر الطباعة الأسود يحمي الملابس من العِتّة، ثم نضع الحقيبة في الخزانة. كانت تلك الحقيبة ملقاة على عتبة غرفة نوم لوتسيا، وفيها شيء ما. لكني لا أعرفه. أنا لا أحب النظر إلى الحقائب البلاستيكية السوداء على أي حال.

كانت تبدو في صورة مخيفة. لم أتمكن من المرور بجوارها، لم أتمكن حتى من تجاوزها، وفي كل خطوة أخطوها أجد شيئًا تتعثر به قدمي. كانت مجرد ملابس وجرائد مجعدة، لكن الأجواء تحمل أخبارًا بأن لوتسيا لديها مشكلة جديدة، ولا أعرف إن كانت قد عثرت على الحل في الحقيبة السوداء.

لكن لم يكن هناك أحد بالشقة. ألقيت نظرة على الثلاجة. بدت من الوهلة الأولى في حالة مذرية تمامًا كما كانت قبل يومين. نظرت في الحمام. كانت الأرض مبللة، والمرآة ملوثة بالماء، الصابون في قاع الحوض لزجًا. كانت الفوضى في غرفة نوم لوتسيا كالمعتاد، وبدت غرفتي كأنها تعرضت للسرقة، لكنها لم تتعرض. على وسادتي ورقتان ماليتان فئة خمسين كرون، وبعض النقود المعدنية، وورقة سجائر شفافة. وعلى أرض الغرفة قلم برأس مقصوفة. وعلى الورقة حرفان:

- يا...

تعني ياركا ربما.

بالكاد تمكنت من قراءتهما. والباقي مجرد كشوط لأن القلم توقف عن الكتابة. لم يُجهد من كتب نفسه في البحث عن قلم آخر، فبقيت الجملة غير مكتملة. وجدت أنا القلم الآخر، وكتبت على نفس الورقة أن ياركا تنام عند دوروتا.

تطايرت بعض قطع الملابس الشتوية إلى غرفتي. معطف أحمر بخطين على الكمين، غطاء رأس جلدي معلقة به كرتان. كنت أعرفه جيدًا، وأعرف الجورب الأخضر للفتاة التي كانت تتزلج في أحلامي. تلك الأشياء لم أرَها من قبل في الكيس.

خلعت ملابسي، وأخذت النقود، والسترات، وملابس داخلية، ومنشفة نظيفة وبعض أشيائي الصغيرة لأعطيها لكريستيان. جمعت الأدوية الموجودة في الصندوق وجميع نشراتها ووضعتها في الجيب الجانبي للحقيبة الصغيرة. ثم انصرفت بسرعة. كانت يداي ترتعشان من البرودة والقلق. فقد كانت تلك الملابس مبعثرة في الغرف مثل الأفكار الشريرة، والأعمال السيئة.

تذكرت وأنا في الشارع أني لم أطفئ نور المطبخ، لكني كنت مضطرة إلى أن أرحل على الفور، فلم أهتم بالأمر. توقف المطر، وتضاعف ضوء المصابيح. فقد كانت الأرصفة والطريق ممتلئًا ببرك الماء. مشيت على جانب الرصيف، بعيدًا قدر الإمكان عن الطريق كي لا أتعرض لرزاز ماء السيارات. مشيت بسرعة وفي خط مستقيم، وسحبت القبعة فوق جبيني كله. نزلت من فوق الرصيف عندما لمحت مجموعة من رجال الشرطة أمام المتجر الليلي. واصلت السير بجوار العمارة. مررت في شارع طوله نحو مئتين متر، به مصابيح مشتعلة، ثم عبرت خط السكة الحديد حيث الظلام، ومررت من تحت الجسر حتى وصلت إلى منطقة الفيللات، ومرافئ السيارات. وهناك تملكني الخوف. شعرت أني أحمل في معدتي ما يشبه مكعبًا كبيرًا من الإسمنت.

ذكريات كتلك يجب أن أمحوها من ذاكرتي. يظهر من وقت لآخر على شاشة الجهاز عندي جدول به رسالة تقول:

- من فضلك امحِ بعض الملفات من الذاكرة، ثم اضغط على الزر أعِد. لكني أقول لنفسي إن الإنسان ربما عليه ألا يمحوها.

•

توجد على عمق نحو 1400 متر، في بحر الصين جزيرة كربونية. الكربون في الحالات العادية غاز، يقع تحت ضغط كبير في عمق المحيط الهادي ويصير سائلًا. جزيرة تحت البحر، في قاع المحيط. عند رؤية الخط الساحلي، وسطح البحر، وأمواج سوداء، سطح أسفل سطح يقف الإنسان طويلًا كي يدرك جيدًا ما يراه، ويُقِرّ بأن شيئًا كهذا له وجود.

ثلاثة أطفال نائمون متجاورون في كوخ أزرق له حديقة ويشبه السفينة. مدفأة من حديد الزهر وأطباق ببقايا مكرونة أسباجتي فوق الطاولة، وألعاب، وزجاجات، ودمى سيارات. إنها جزيرتي الخاصة تحت سطح مكان وزمان حقيقيين. عندما نظرت إلى تلك الجزيرة المنعزلة عبر حبات المطر التي تتدفق فوق إطار النافذة، لم أكد أصدق أنه مسموح لي الدخول، وإيجاد مكان لي في ذلك العالم الصغير المتناغم. لم تكن مغادرة الحي صعبة. ملل، وشقة فارغة، ورسالة غير مكتملة. كان يكفي أن أفتح الباب وأدخل. لم أدخل على الفور. أسعدني أني أقف متكئة على النافذة، وأنظر. أنظر إلى صورة ثابتة خلف الزجاج، مقطع من الزمن. تلك الصورة استقرت في أعماق أعماقي.

تقاطعت مع إطار النافذة قنوات ماء ملتوية، ومرآة من قطرات

المطر. اعترضت جبيني تلك الشبكة؛ حيث أسندت رأسي. وأسفل النافذة سرير أمامه طاولة، ومقعد صغير، ومدفأة عتيقة، وركن مُعتم. رأيتها لأني أعرف بوجودها. وخلف الباب بندقية صوت. لم أكن أراها، لكني أعرف أنها هناك. وعلى الطاولة طبق ملوث ببقايا الطعام، لمعت حوافه الذهبية عندما تحركت من مكاني. ينام كريستيان والطفلان على السرير، على بعد بضعة سنتيمترات من حيث أقف، خلف الحائط. كان كريستيان ملتويًا، مؤخرته تجاوزت طرف السرير، ويلمس الحائط بجبينه. يبرز من تحت الغطاء ساقاه وكاحلاه المسحجان. وعلى الجانب الآخر شعر العسلي. كان فيه شيء حيواني وهو يرقد بتلك الطريقة.

كان الطفلان نائمين في أحضان كريستيان. لم أر مِن يعقوب سوى يده الصغيرة الملقاة على الوسادة كأنها حلية ذهبية. كانت أديلا تنام في المنتصف. فمها موارب، وشعرها متلبد من العرق. تحركت بعد لحظات، ثم ابتسمت وهي نائمة. تنتشر حولهم الألعاب والشخاشيخ والعربات الصغيرة. ضوء خافت يسقط على الأطفال الثلاث، ويبدو بيتهم كأنه مطفأة سجائر صغيرة. إنه بيت يجمعنا، نحن الأطفال.

إنه الدليل الوحيد الذي أملكه، ويقف شهدًا على جميع الخطايا. لا توجد طريقة لأن آخذه وأحوله إلى شيء ملموس وأقول إننا كنا معًا سعداء، وإننا لم نرد أن نؤذي أحدًا. لم أتمكن يومًا من استخدامه للدفاع به عن نفسي. إنها مجرد ذكرى صارخة ورائعة. ذكرى لا يمكن حملها أو نسخها. ذكرى لا تنتمي إلى هذا العالم. أحملها مثل أثر مقدس كدليل على البراءة.

قالت لوتسيا تعاتبني:

عليك أن تندمي على ما فعلتِه! ليتك تفعلين! ليتك تقولينها صراحة إنك آسفة على ما فعلته، وإنك لم تقصدي... أتعرفين أن ذلك قد يخفف عني؟

راحت تنتقد عنادي:

ـ أنتِ فخورة بنفسكِ وعنيدة! لا تعترفين بأنك ارتكبتِ خطأ. لقد ارتكبتِ خطأ. الجميع يتوقع أن تبدي الندم يا ياركا!

لم أندم على ما فعلته يومًا، لكني ندمت على ما لم أفعله. على ما لم أتجرأ على فعله.

دخلت إلى البيت، وخلعت ملابسي، ووضعت الأشياء التي أحضرتها من البيت على الطاولة. ثم استلقيت على أوراق الكرتون المفروشة على أرض الغرفة، وضعت رأسي على فانلة مجعّدة، وغطيت نفسي ببطانية أخرى. نمنا جميعًا الليل بطوله تقريبًا. استيقظت في الصباح الباكر فجأة. شيء ما أيقظني. لم يكن صوتًا ولا بردًا. بل شيئًا ما قادمًا من أعماقي. بقيت للحظات غير مدركة لما حولي. تخيلت أني أنام في البيت في الدهليز وسط ملابس الكيس الأسود. ثم وقع نظري على السرير وقدم كريستيان. نهضت ثم جلست على السرير. كان الأطفال مستغرقين في النوم. وعندما مررت بأصابعي فوق وجوههم لم يتحركوا.

لم تكن أديلا نائمة. لكنها لم تتحرك. كانت عيناها مواربتين، وفمها أيضًا. يداها مطوية عند كوعها وملقاة على البطانية التي تصدر خفيفًا من أثر تنهدات كريستيان. لكنها ترقد في هدوء ولا تفعل شيئًا. حملتها برفق بين يديّ. كانت تبدو خفيفة ومرنة

كأنها من اللافقاريات. اتكأت عليّ ونظرت على وجهي. رفعتها كي أقبلها على وجنتيها. كانت حرارتها مرتفعة، وجهها ممتقع اللون، ونفسها ضعيف. لو أنها لم تتجول بناظريها في وجهي لما عرفت أنها ما زالت على قيد الحياة.

أدركت أن شيئًا ما قد حدث. شيًا سيئًا. عرفته من نظراتها إليّ، من يدها التي سقطت عندما حررتها. شيئًا ما لم يكن طبيعيًا رغم أنها لم تسعل، ولم تنزف دمًا، ولم تبكِ. ارتجفت قوائمي، وانقبض صدري، وراحت دقات قلبي تتسارع، وتضخ الرعب إلى جميع أجزاء جسدي. وقفت مشدوهة للحظات من الفزع، وقلة حيلتي، لا أتحرك، مسلوبة الإرادة.

قفذت إلى مخيلتي رغمًا عني ذكرى أحد الأيام بعد الظهيرة عندما لم تحضر لوتسيا لتأخذني من الحضانة. جلست على سجادة وسط غرفة خاوية، ليس بها أطفال ولا العاب. رأيتها فجأة ضخمة ومقنطرة مثل كهف أو معبد. جلست على الطاولة أمسك في يدي بمكعب بلاستيكي من مجموعة مكعبات غير مكتملة، لا يمكن أن تصنع منها شكلًا له ملامح. كانت المدرسة تدور من حولي، تجمع آخر الألعاب من على أرض الغرفة، وتضعها على الأرفف. لم أسمع لها صوتًا. ربما أنها خلعت خفّها، أو ربما أنها كانت تمشي على أطراف أصابعها فوق الأرض. ثم جلست عند الطاولة، وراحت تكتب شيئًا ما. لم ترني. نسيتني، ونسيت أنها بقيت فترة أطول في العمل بسببي، وراحت تفعل ما لم تتمكن من عمله في يوم آخر. لم يكن يربطنا أي رباط. وحتى السجادة الخضراء انتهت على بعد خطوتين من الطاولة التي تجلس عندها. جلست مثل أي طفل مطيع تخلف عن مواعيد الانصراف. كنت أسمع خبط الخزائن، وصوت الأطفال وهي تنصرف. يثرثرون، ويتدافعون رغم أن آخرهم انصرف منذ ما

يقرب من ساعة. تخيلت أن الليل قد حلَ وأنا نائمة على السجادة وسط فصل دراسي كبير، مترامي الأطراف. أضع تحت رأسي وسادة من عربة أطفال. تركتني المدرسة في ذلك الهلع لمدة ساعتين، ثم رافقتني بعدها إلى المنزل. كانت لوتسيا تنام بعد وردية عمل ليلية.

تحركت أديلًا قليلًا، وأدارت رأسها، وأغلقت عينيها. تطلعت إلى وجهها طويلًا وأنا أقول لنفسي إن كل شيء سيكون على ما يرام، وإن بعض الأطفال يكونون أهدأ وأقل إزعاجًا من غيرهم. ورحت أمنّي نفسي بأن أحدًا لم يمت بعد بسبب الحُميّ. ارتفاع حرارة الجسم أمر شائع. أصبت بها مئة مرة ولم يحدث لي شيء. ربما أهتم بأديلا أكثر مما ينبغي. أنا نفسي مرهقة، وأحتاج للنوم، وتراودني أفكار غريبة.

وضعتها من جديد بجوار كريستيان، وحاولت أن أستسلم للنوم. كان صعبًا أن أغلق عينيّ، وأكفّ عن التفكير في أديلا.

بدأ نور الصباح يلوح في الأفق، وأنا لا أعرف إن كنت قد نمت أم لا. فجأة أدركت أن السماء اكتست بلون باهت، وصارت ملونة. جلست عند الطاولة، تناولت عود حلوى وبضع ملاعق من عجينة الشيكولاتة. كنت أجلس صامتة لا أتحرك. أفكر كيف سنقضي يومًا يبدو من النور القادم من خلف النافذة أنه سيكون يومًا جميلًا، لن تسقط فيه الأمطار. تمكنت وأنا في حالة بين النوم واليقظة أن أفكر في مشكلة الحرارة التي تعاني منها أديلا. ومرة أخرى بدت لي في حالة جيدة. طفل طبيعي يغالبه النعاس.

استيقظ كريستيان فجأة بعد أن سقط من فوق السرير. كان منظرًا كوميديًا! كان أفضل مشهد رأيته؛ إذ كانت الكآبة من إرهاق

الليلة الفائتة قد تمكنت مني. ضحكت وأنا أضع يديَّ فوق فمي. غمغمت، وصفرت، وكريستيان لا يقوى حتى على التأوه. كان ما زال عاريًا. استيقظ في الصباح تمامًا كما نام في المساء. لكنه لم ينتبه إلى ذلك. جلس فوق أرض الغرفة، عيناه تطرفان، وقضيبه منتصب قليلًا. لا أعرف ما الذي بدا لي مدعاة للضحك أكثر من غيره؛ سقوطه المدوي برأسه على الأرض، أم قضيبه الصغير المنتصب. لم أستطع أن أنزل ناظري عنه. فقد أصلح لي مزاجي.

ناولته أشياءه، ثم وضعت بعض معجون الشيكولاتة في الملعقة. ارتدى ملابسه من دون أن ينطق بكلمة واحدة، لعق الكريمة ثم جلس فوق السرير. بدا كأنه كتلة من التعاسة. جلس متبلدًا يشعر بالإهانة من ضحكاتي. لم يقل شيئًا. راح يجول بنظره في الغرفة، ويخبط ساقًا بساق. اعتقدت أن بيتنا صار لا يعجبه.

قال لي بعد لحظات من دون أن ينظر إليّ:

- أمي تصنع لي شايًا في الصباح.

توبيخ واضح. أجبته قائلة:

- والآن عليك أن تصنعه بنفسك.

ذهبت نوبة الضحك عني، واختفت السعادة. ومرة أخرى رأيت صبيًا صغيرًا متبرمًا يجلس أمامي. صبيًا لا يتمتع بأي درجة من درجات الاعتماد على النفس. بدأ يتأفف، ويتقوقع على نفسه، فلم أعد أرى وجهه. حسنًا، أنا سأصنع لك شايًا. تعاطفت في النهاية مع موقفه. تخيلت أنه قد يتعافى لاحقًا، ويصير عونًا لي. قلت له:

- لكن ليس عندي سوى شاي من التفاح.

أجاب:

- أنا لا أشربه. لكنك شربته بالأمس.

- لم أشربه.

- أنا أتذكر جيدًا. لم أشرب شايًا كهذا في حياتي.

- أنت كذاب. لم أصنع له شيئًا.

عدت أدراجي، وجلست على المقعد، وأكلت ثلاث ملاعق أخرى من الشيكولاتة.

لم يعرف ماذا يفعل.. فلم يكن في الكوخ أي شيء يمكن أن ترسو عنده مراسيه. لم يكن معه كوبه، ولا حمّامه، ولا قطته، ولا الفيتامينات التي يتناولها بانتظام، ولا أربع قطع تفاح في طبق. لم ير أباه من النافذة وهو ينصرف بسيارته. لم يستمع إلى الإذاعة. كاد ينفجر في البكاء. جلست بجواره، ووضعت يدي فوق رأسه. لففت ذراعيّ حول كتفيه. لم يقاوم طويلًا، جزء من الثانية إلى أن بدأ يشعر بحرارة جسمي، ويقرّ بأنه لن يحصل على شيء آخر ذلك الصباح. استرخى ودسّ وجهه في القميص الذي أرتديه. قلت له:

- عليك أن تعود إلى البيت يا كريستيان!

لكنه هزّ رأسه.

قلت له مرة أخرى من جانب فمي:

- يجب أن تعود إلى البيت يا كريستيان!

في الواقع إني لم أكن أعني ما أقول. صحيح أنه سوف يكون في حالة أفضل في البيت. سيحصل على كل ما يحتاجه، سيبدأ

يومًا جديدًا في حياته كما ينبغي أن يكون. سيحصل على كل ما لا أستطيع أن يوفره له شخص مثلي، وبيت مثل كوخي المتواضع. لن يحصل على شاي بالأعشاب والعسل، لن يجد كعكة الخشخاش، ولا تفاحة من دون بذور. لن يجد منشفة نظيفة، ولا فرشاة لتنظيف الأسنان، ولا ساعة صغيرة يعرف منها الوقت الضروري الذي عليه أن ينظف فيه أسنانه الصغيرة. لن يحظى بنظرة على سيارة والده وهي تنعطف، ولا بنظرة على أمه بعدها بدقيقة وهي تنصت إلى الإذاعة، وتستمع إلى توقعات الطقس في الإذاعة السلوفاكية. كلاهما يحافظ على الوقت. كلاهما راضٍ بأن كل شيء يعمل بكل بانسياب. جميع الأجزاء تعمل في وقت واحد من أجل سعادة الجميع، رغم أنها ليست متجاورة، وكل جزء يدور بطاقته الذاتية، بطموح ورغبات ذاتية، بناءً على تصورات خاصة عن الحياة. كل يوم يمر هادئًا مثل غيره من الأيام. يبدأ كما بدأ اليوم الذي سبقه، وينتهي كما سينتهي اليوم الذي يليه. لم يكن في إمكاني أن أمنحه شيئًا من ذلك. ورغم ذلك كنت أظن أن عليه أن يبقى.

قلت لنفسي:

- أديلا تعاني من شيء ما. حرارتها مرتفعة.

ثم خاطبت كريستيان قائلة:

- ذهبت إلى البيت وأنتم نائمون وأحضرت بعض الأدوية. أتجيد القراءة يا كريستيان؟ ثم ألقيت جميع الأدوية وتعليمات الاستخدام على السرير. نظر إليّ نظرة استنكار، واستياء؛ ثم بدأ يعبث في الأدوية. أخذ الأدوية بين أصابعه ينظر إليها عن قرب، كأنه لم ير شيئًا كهذا من قبل. الواقع أنه لم ير شيئًا كهذا من قبل. الأدوية عندهم في البيت سجينة أحد الصناديق. والصندوق عليه

قفل لتأمينه ضد الأطفال كي لا تصل إليه يد كريستيان. وعندما يضطر إلى تناول الأدوية كان يرتشفه من أنبوب بلاستيكي، أو يخلطه بالعصير كي لا يشعر به في فمه.

قلت له وأنا أبحث في الكيس:

ـ ابحث في النشرات عن الأدوية المضادة للحمّى. وأنا سأنظر في الكيس. فيه بعض الزجاجات.

وقرأت بصوت عال:

ـ سابسيمليكس، فيجانتول. لا أعرف هذه الأدوية. اقرأ أنت أيضًا بصوت عالٍ.

ألقي نظرة على الطفلين! نائمان. حسنًا.

راح كريستيان يقرأ:

ـ نو ـ بيـرين. يجب الحـ ـ ذرأثنـ ـ اء قيـ ـ ا ـ دة السيـ ـارة و أثنـ ـ ـاء الـ ـ عمـ ـ ل على مـا ـ كينة أو من دو ـ ن دعـ ـ م. دعم؟

قرأ التعليمات من بداية وحتى نهاية الورقة. انفجرت في الضحك، وضحك هو على حذر، ثم قرأ الصفحة التالية بحماس:

ـ الـ ـ مـاد ـ ة الـ ـ فعالة اتر ـ يوتر ـ يوتيرو ـ نين ليوتير ـ بوليو ـ تيرو ـ نين تعـ ـ الج من.. أنا لا أفهم شيئًا من هذا.

همهم كريستيان ثم واصل القراءة بصوت منخفض. كانت شفتاه تتحركان مثل شفتي جدّة تهمس وهي تمسك مسبحة في يدها. قال وهو يعبث في نشرات الأدوية:

ـ أنا لا أفهم شيئًا من هذا! د ـ ينو ـ كسـ ـ ينال 60 أقـ ـ را ـ

ص.

أخذت منه النشرة، وقرأت بصوت عالٍ: يؤثر بشكل إيجابي في علاج تسمم الكليتين ويحمي من التليف.. له تأثير إيجابي على مجرى الدم.. يساعد على إزالة المواد السامة من الجسم.. اممم! لابد أنه دواء جيد على ما أعتقد. لكن ابحث عن شيء آخر يتحدثون فيه عن الحمى أو ارتفاع درجة الحرارة. بالتأكيد أن بينها شيئًا من هذا القبيل.

قرأ كريستيان بكل حماس، وأنا أضع النشرات فوق الأدوية. سألني فجأة:

- أنت كنتِ في البيت؟

- نعم.

- متى؟

- وأنتم نائمون.

- لم أنتبه لهذا!

- كنت مستغرقًا في النوم..

- اممم! لماذا؟

- لأنك كنت مرهقًا، أليس كذلك؟ وما أدراني؟!

- لا، لا... لماذا ذهبتِ إلى البيت؟

- لأننا في حاجة إلى دواء. وملابس. لقد دمرت سترتي.. صحيح

- المعذرة! لم أقصد..

كنت أعرف أنه يشعر بالأسف حقًا على ما حدث للسترة. جلس صامتًا يعبث بإصبعه في تجويف تخلف عن حبة دواء.

راح يتحدث بصوت مختلف أراد أن ينم عن لامبالاة، وقال:

ـ عندنا في البيت...

قاطعته قائلة:

كانت الأنوار مُضاءة. إنهم يبحثون عنك. لكن لا تخف! لن يجدوك هناك..

ـ وماما..

ـ لم أرها.. لا تفكر فيها.. حسنًا؟ من الأفضل أن تبحث عن فاكسيبرول. فاك ـــ سيـ ـــ برول.

بحث كريستيان عن الدواء وهو يهمس باسمه. بدأت أديلا تتبرم، فصنعت لها على الفور حليبًا من بقية الماء الساخن الذي تبقى في الوعاء. لكنها رفضت الحليب، وهزّت رأسها يمينًا ويسارًا، وراحت تحرك كفّيها الصغيرين، لكن كانت حركاتها تعوزها القوة والطاقة. في النهاية تمكنت من حلمة القارورة في فمها، وصببت فيه الحليب. رفعتها إلى أعلى، وحملتها في يديّ، وتجولت بها في الغرفة لمدة عشر دقائق إلى أن تجشأت. نامت على ذراعي ويداها عالقتان في مرفقيّ. سقطت نقطة حليب بهدوء من جانب فمها الموارب. كانت تتنفس بصورة خافتة.

لم أقل شيئًا. كنت أشعر أن كريستيان يقرأ أفكاري، وبدأ الخوف أو هاجس ما يساوره. وضع النشرات فوق الدواء ورصّ العلب متجاورة كي يقرأ أسماء الأدوية بشكل أفضل. لكن عيناه

كانتا مصوبتين نحو الطفلين. بدأت يردد كلمات أغنية من حكاية خيالية معروفة تُذاع مساءً في برامج الأطفال. كان يغني في نفسه، بصوت منخفض، ورأسه مسدلة تمامًا. قطعت الأغنية قراءة أسماء الأدوية التي كانت طويلة للغاية. أو أنها لم تكن واضحة من النشرات. لكني كنت أرى أن صوته عاليًا، كنت أسمع كلمات الأغنية بوضوح. لكنه لم يكن يحفظها جيدًا، أو ربما أن تلك الأغنية لم يكن لها وجود أساسًا. كانت الأغاني من دون كلمات، مجرد نغمة، شيء مثل همممممم.. هههمم.. همممممم... كانت الكلمات تأتي على ذهني ثم تختفي من دون أن أفهم معناها. كان كلمات أغاني أخرى قادمة من عصر مختلف.

- هل عثرت على شيء؟

- كلا. لا أفهم هذه الأدوية. أنا تائه تمامًا.

- همم. لا يمكن أن نعطيها أي دواء، طالما لا نعرف ماذا يُعالِج. أتذكر طالبة الصف الثامن التي تسكن في حيّ زاتيشي. كانت في رحلة قبل عامين، وتناولت حبات دواء، ثم غسلوا معدتها في المستشفة لاحقًا؟ أتعرف كم كانت تعاني؟ قالوا إنها نجت بأعجوبة، فقد كانت زرقاء تمامًا. لكن كريستيان لم يتذكر أي شيء. فهو لم يكن في المدرسة وقتها، ولم يسمع عن أي فتاة من حي زاتيشي. وحتى أنا لم أكن أعرف الكثير عنها. لكن الجميع قالوا إنهم أجروا لها غسيل في المعدة أو شيئًا من هذا القبيل.

- وكيف يغسلون معدتها؟

- وما أدراني؟ لا أعرف.

قال كريستيان فجأة:

ـ يجب أن تذهب إلى المستشفى. طبعًا.

قال طبعًا لكنه شخصيًا لم يكن مقتنعًا بما يقوله. لم يكن واثقًا من نفسه إلى درجة تجعله يقدم اقتراحات أو يعرض حلولًا. كان غالبًا ينفذ الأوامر التي تُعطى له بابتسامة على شكل رجاء. التزمت الصمت.

قال ليدافع عن وجهة نظره:

ـ أمي كانت تأخذني دائمًا إلى المستشفى عندما ترتفع حرارتي. حتى في منتصف الليل، نذهب إلى الطوارئ بعربة الإسعاف.

قلت له:

ـ أنا لم أذهب إلى المستشفى يومًا بسبب ارتفاع حرارة جسمي. الحرارة شيء لا يُذكر. تذهب من تلقاء نفسها مع العرق.

ـ لكني كنت أكاد أموت بالفعل.

ـ لا تخف يا كريستيان!

ـ لا أحد يموت من الحرارة. بل يموت.

ـ حسنًا. يموت.

ـ لن أتشاجر معك. دعك من هذا الأمر يا كريستيان،

ـ ماشي؟

ـ هل أنت جوعان؟

صمت. وهزة خفيفة من رأسه.

- كريستيان! هل أنت جوعان؟ دعك من هذا الأمر، حسناً؟ كف عن هذا، إنه يثير أعصابي. هذه الهمهمة.

قال بعد خمس دقائق من الصمت وهو يضع أصابع أديلا بين أصابعه إشارة إلى أنهما صديقان:

- أنا سأذهب بها إلى المستشفى. ما رأيك؟

أنا سأذهب معها إلى هناك!

- إلى أين؟

- إلى المستشفى.

- هل جننت؟ إنها في حالة لا تسمح لها.

- لا، بل تسمح!

- لا.

- بل تسمح!

- لن تذهب! لن تذهب إلى أي مكان يا كريستيان! ماذا هذا العبث. أنت لا تقوى على حملها.

- بل أقوى.

- لا تقوى. وكف عن الشجار!

- بل أقوى على حملها.. وحملت المشتريات من قبل..

كان ذقنه يرتعد، لكنه كان يقاوم. رفع رأسه، وراح ينظر في عينيّ مباشرة. أول مرة يفعلها منذ أن أخذته من الحافلة. قال بكل

حزم وهو يقبض يده ويشد على فكيه:

- أنا سآخذها إلى هناك!

قلت له:

- حسنًا.. لا، لا، إنها فكرة غبية. سأذهب أنا طالما أنت مُصِرّ.. سأذهب فقط كي تهدأ.

الواقع أنه أضعف من عزيمتي، فتتها إلى درجة أني اقتنعت أن ذلك القزم على حق، ويتصرف بمسئولية أكثر مني أنا. شعرت بالخوف. أتذكر جيدًا أن حالتي كانت سيئة عندما أصبت بالحمى. تصبب مني العرق. كان العرق يتسلل إلى رداء النوم والى الغطاء. لم أقو على الوقوف والنهوض من السرير، ولا حتى على إزاحة الغطاء. كانت لوتسيا تحضر لي الماء باستمرار، وتجبرني على أن أشربه وأن أتمدد تحت غطاء مبلل كريه. هي نفسها كانت تجلس أمام التليفزيون تأكل الفشار. انخفضت حرارتي في الصباح، وفي المساء أصبحت في حالة جيدة. لم أشعر سوى بضعف وتخدير بسبب النوم المتقطع طوال اليوم.

قاطع كريستيان أفكاري، وقال:

- لقد وضعوا لي ذات مرة محاليل. وضعوا لي تلك الأنابيب الصغيرة. على مدى ثلاثة أيام، لم أقو على الحركة من السرير، فقد كنت مربوطًا بتلك الزجاجة. كانت المياه تقطر منها، من الأنابيب إلى داخل جسمي مباشرة. كان هذا منذ وقت بعيد. أمي أخبرتني بتلك الحادثة.

- حسنًا. لكن ستبقى هنا وحدك مع يعقوب يا كريستيان، وحدك، أفهمت؟ سوف ترعاه وتهم به كي لا يبكي فيسمعكم أحدهم. هناك

من يتجول في الكروم في كل وقت، صبية ما، ربما كانوا من المشردين. فاحرص إذن، ولا تخرج من الكوخ إلا عندما يكون الطفل هادئًا. أتفهمني؟

ـ أفهمُكِ.

أردت أن أضع الطفلة في العربة، لكن عندما رأيت أن العربة مبللة ولافتة للأنظار، وأن الطريق موحل، تركت العربة خارج الكوخ. أخرجت من حقيبة الظهر كل شيء، ووضعت الطفلة فيها مثل الشيواوا التي تضعها الفتيات في حقائب يدهم. كانت الحقيبة كبيرة. وضعت أديلا فيها، وحنيت قدميها فكانت كافيه تمامًا. في الوقت نفسه راح كريستيان يجمع الأدوية، ويصنع حليبًا احتياطيًا آخذه معي مع أغراض أديلا، والحفاضات، وبعض الألعاب. وضعها كلها في حقيبة الظهر. كان قلقًا، يحاول أن يخفي قلقه بعمل حقيقي. كان يطير في الغرفة مثل الفراشة، يبحث عن شيء يفعله. يحرك المقعد، ينفخ فتات الطعام من فوق الطاولة، يبحث في الحقيبة، أو ينظر من النافذة إلى خارج. كانت الساعة السادسة عندما خرجت من الحديقة وأنا أحمل على كتفي حقيبة ثقيلة وكبيرة وشفافة. أحمل على ظهري حقيبة كريستيان، ثم انطلقت فوق التل. كنت أعرف أن كريستيان يقف خلف النافذة يتابعني وأنا أمشي فوق الحشائش المبللة. لم أرفع له يدي أحييه، ولم ألتفت حولي. كنت خائفة من أني لو استدرت سأعود إلى الكوخ.

أشرقت الشمس. المدينة أمامي والسفينة خلفي غارقة في بحر من الحشائش. مداخن شركة سلوف نافت ومعصرة الزيت، وسطح مدرجات الاستاد، وتل السكة الحديدية، والمدرسة الفنية، كله أمام عيني. ألقيت نظرة على الحقيبة، وتحسست بيدي الطفلة النائمة التي يزداد ثقلها مع خطوة أخطوها. كانت جسم أديلا ساخنًا مثل

رغيف الخبز، وكانت تشع منها رائحة السخونة.

هبطت من فوق التل سريعًا، بكل ما استطعت من قوة، اجتزت طريقًا أعرفه يمر بين مواقف السيارات، وبيوت ذات طابق واحد كانت ما زالت تستيقظ. التقيت امرأة مبتسمة مع كلبها الذي يكشط من على الزجاج الأمامي للسيارة ملصقًا منتهي الصلاحية يسمح لصاحبة بالمرور على الطرق السريعة. امتلأ الشارع خلف جسر محطة القطارات، بالناس، وبدأ إيقاعه يعلو. مشيت بجوار طريق الحافلات أفكر فيما سأفعله لو أن أديلا استفاقت في الحافلة، وراحت تبكي. قد أنفجر أنا أيضًا في البكاء كي أغطي على بكائها. هذا ما قد أفعله. ذكرني ذلك بمشهد من مسرحية هزلية. مرت دقائق لم أفكر في شيء سوى في الأفلام التي شاهدتها بفضل أمي غريبة الأطوار. عدد ضخم من الأفلام.

امتلأت المحطة بالناس. كانوا ناعسين. قواهم العقلية ليس متأهبة بعد للصراع مع المدينة. توقعت أن يلفت جودي على المحطة في وقت مبكر من الصباح أنظارهم. أبطأت من خطواتي أتدبر الأمر. نظرت إلى الناس وأنا أحاول أن أقرأ أفكارهم.

سيدة عجوز تحمل حقيبة تسوق فوق عجلات رفعت نظرها نحوي وظلت تراقبني. كانت تشبه إيرينا تمامًا..

- ياركا! اذهبي إلى المتجر واشتري لنا خبزًا، أسرعي كي تكوني أول من يذهب.. قبل أن يصبح الخبز ملوثًا بآثار الأصابع، ومليئًا بالثقوب.

قبضت السيدة بإحدى يديها على مقبض الحقيبة، أمسكت بالأخرى معطفًا فوق صدرها تمزّقت فتحات أزراره فراحت الأزرار تنفلت منها باستمرار. صرت على بعد بضعة أمتار من المحطة،

وقريبة منها بدرجة جعلتني أميز لون أزرار معطفها، وفجأة تركت الرصيف، ومشيت على قضيب خط الترام. ذهبت إلى الرصيف المقابل، وانتظرت الإشارة الخضراء بكل هدوء. عبرت معبر المشاة إلى الجانب الآخر من طريق به أربع حارات للسيارات تلاحقني نظرات السيدة وتخترق ظهري. أردت أن أجري لكني لم أفعل. أسرعت من خطواتي بتعجل وبلامبالاة، كأنني أقول بتلك الرحلة كل يوم. كل يوم في الساعة السادسة وخمس وأربعين دقيقة. أحمل حقيبة كبيرة وأخرى صغيرة على ظهري، وحدي تمامًا. لم أشعر وقتها بوزن الحقيبة، لم أفكر فيما هو في داخلها. فقط اجتزت طريقًا رسمته لي قوة خفية.

حيّ خامل، سيارة نقل تقف أمام المتجر، وثلاثة أطفال يقفزون فوق علب ورقية أمام بيت يقيم فيه فيتناميون. صوت رتيب ربما قادم من جهاز في أحد المطابخ. كان في الواقع خليطًا من جميع أصوات المدينة، السيارات والقطارات، وعربات الترام، والناس، والكهرباء التي تتدفق في الأسلاك، والقوارض، وأجهزة الراديو، والملاعق التي تجلجل في الأكواب، والأوراق التي تسقط على الرصيف. ظهرت على الطريق من بعيد السيارة الوحيدة التي تتحرك ببطء، فلم يكن واضحًا إن كانت تأتي أم تنصرف. وسقطت في برك الوحل الضحلة أولى الأوراق الصفراء وعلقت بها. إنها علامات شهر سبتمبر المقبل. مفتاح ينزلق داخل فتحة الباب بسهولة تشير الشكوك. وطريق من الكوخ إلى الشقة لم يستغرق أكثر من عشرين دقيقة.

اختفت الملابس المبعثرة ووضُعت في كيس أسود. برز في فتحة باب الحمام الموارب كُمّ معطف ترتديه لوتسيا، ينتهي بخط جلديّ عريض. كانت عندما ترتديه تبدو مثل دب الكوالا.

كانت لوتسيا نائمة في سريرها. كانت جميلة. لم تظهر بمثل ذلك الجمال من قبل. بشرة خالية من مساحيق الزينة، هادئة ومستكينة. اكتست وجنتاها باللون الأحمر الوردي. تضع يدًا أسفل الوسادة والأخرى مطروحة أمامها على السرير. قدماها وسط غطاء صيفيّ خفيف. اكتست بشرة يديها باسمرار جميل، أصابع طويلة ورقيقة بمفاصل بارزة. لا أثر لأي طلاء على أظافرها. نظرت إليها للحظات وأنا أتمنى أن أبدو مثلها عندما أكبر. مثل لوتسيا التي يراودها حلم جميل في نهاية الصيف.

كانت نائمة على الجانب الأيسر من السرير العريض، وكان الجانب الأيمن خاويًا. أزلت الغطاء الآخر ووضعت الحقيبة على مفرش السرير. اهتزّت أديلا قليلًا، وغمغمت بصوت ضعيف. لكن لوتسيا لم تستيقظ. حركتِ إصبعها حركة خفيفة. أنزلت حقيبة الظهر من فوق صدري، ووضعتها في المطبخ. ثم أخرجت أديلا بطريقة خرقاء، ووضعتها بجوار لوتسيا. كانت لينة مثل دمية من القماش. أعطيتها الحليب الذي أعده كريستيان لتشربه، ومسحت ما سقط منه على ذقنها وعلى رقبتها المطوية. دسست في يدها الدافئة شخشيخة. لو أنها انتبهت وهزّتها قليلًا لنهضت لوتسيا من النوم واهتمت بها. إنها أمّ حقيقية. ستعرف بدقة ما يجب فعله مع توءم مريضة. هكذا قلت لنفسي رغم أني أعرف لوتسيا تمامًا. لوتسيا لم تكن تجيد رعاية الأطفال. ولا رعاية طفلتها. كانت مستهترة، وتقلل من شأن كل شيء. لم تكن صبورة. كانت مشتتة الأفكار. لم تعرف كيف تسحق حبة دواء بين ملعقتين، أو تطهو الحساء بطريقة صحيحة.

رغم ذلك شعرت براحة كبيرة. كانت أديلا في السرير، في شقة في أحد الأحياء، وسط عالم متحضر، مياه ساخنة، وبوتاجاز

يعمل بالغاز، وحمَام، وأناس كبار في متناول اليد. أشياء معروفة، تلفزيون، وغلاية ماء، ومناشف. توجد كلها في أماكن ثابتة، يكفي أن تمد يمدك مغمض العينين فتلمسها. كانت تبعث على الطمأنينة وهي رابضة في أمكانها لا تتحرك. أخذت الأشياء الموجودة في حقيبة الظهر ووضعتها في الكيس، ثم تركت الكيس فوق طاولة المطبخ بحيث تراه لوتسيا بمجرد أن تدخل. تناولت كوب زبادي من ثلاجة ممتلئة بالطعام، وأكلتها وأنا أقف متكئة على إطار الباب، أتطلع إلى السرير. أردت أن استلقي بينهما لبضع دقائق. لم أرغب في أن أوقظ لوتسيا، ولا في أن أشرح لها ما حدث. على الأقل رأيتها لبضع دقائق. ربما تستجيب لأن يمتلئ النصف الخالي من السرير بكائن حي. قلت لنفسي:

ـ لو أننا عشنا نحن الثلاثة معًا منذ البداية لتغيرت الأمور كثيرًا.
أكملت الزبادي، ومسحت فمي بكفي، ثم قبلت أديلا على جبينها. لم أرها بعد ذلك.

كان طريق العودة سريعًا ومبهجًا. أحمل حقيبة فارغة على ظهري، أشعر برضا وأنا أنصرف من عند مدخل البيت نحو الفناء. رأيت خلف مقطورة صغيرة سيارة والد كريستيان تنصرف وأنا أرفع قدمي فوق الأرض كي أتجاوز الطين المنتشر بجوار حاويات القمامة. سقطت يداي بقوة على زجاج السيارة الخلفي حيث توجد عربة أطفال خضراء مخصصة لكريستيان. توقفت السيارة كي يتأكد والد كريستيان من خلال زجاج النافذة المغلق أني لم أسقط، فرآني أقفز إلى الخلف. وقبل أن أتمكن من فعل أي شيء، من فتح الباب، أو الخبط على النافذة، أو دسّ المفتاح في غطاء المحرك كانت السيارة تزأر وتتحرك. عندما وصلَ إلى الشارع الرئيسي ضغط على دواسة البنزين بقوة كي يتمكن من تجاوز الشاحنة

التي تقترب. صفرت عجلات السيارة، وخلفت وراءها خطوطًا سوداء على الطريق. كانت الساعة تمام السابعة والربع.

كانت والدة كريستيان تقف عند النافذة، وتمسك راديو صغيرًا به هوائي منتصب. تضعه بجوار أذنها. كانت الستائر ناصعة البياض من خلفها، تشبه ستائر المسرح المسدلة، وتبدو كممثلة في مسرحية درامية. مغنية عالقة في منتصف الطريق، وحيدة، من دون كومبارس مبتدئ يقفون خلف الستارة، يكتمون ضحكاتهم الساخرة. مندهشة من خطأ فني حدث، ومحاطة بإطار نافذة نظيفة تلمع وسط أطر خشبية بالية بطريقة تلفت الأنظار. كانت تقف في غرفة الصالون، ترتدي قميصًا ورديًا شفافًا، تقف ممتقعة اللون، مكلومة، لكنها جميلة. أغلب الظن أنها لم تنم طوال الليل. ربما جلست بجوار الهاتف تنتظر أية أخبار، ربما تجولت في أرجاء الحيّ تبحث عن كريستيان مع أسرتها وجيرانها الذين التقت بهم لأول مرة منذ أن جاءت إلى ذلك البيت، مجبرة على التواصل معهم. حتى ذلك الوقت لم تتوقع أن كل هؤلاء الناس يسكنون في بيت واحد.

كانت دائمًا النموذج المغاير للوتسيا. يبدو عليها الرضا والهدوء. ترتدي ملابس أنيقة من دون حلي مبالغ فيها أو حركات زائدة، لا تظهر أية انفعالات حادة. تنتاب الإنسان في حضورها رغبة في عمل الخير، وفي أن يخفض من صوته أو يغفو. كان الجيران يخافون من مخاطبتها؛ لأنها كانت تبدو كأنها لا تريد ذلك. كان كل من يلتقيها يعتقد أن تلك المرأة ليست في المكان الصحيح. إنها تحلم ببيت مرتب، به حديقة، وملعب آمن مخصص للأطفال. تحلم بطفل ثانٍ، وشهوة قد تعود ولو لليلة واحدة في الشهر لتجمع بينها وبين زوجها. كان يبدو على وجهها نفور دفين من النظر إلى أكوام

الأثاث المتكسر، وأكياس القمامة، ومن جار سكران يستلقي بجوار حاويات القمامة. لم تكن سعيدة في البيئة التي تعيش فيها.

كانت لوتسيا دائمًا محاطة بتيار هواء. الكئوس تتراقص على الطاولة، والستائر تتطاير، والكلمات تسقط على الأرض مثل الأحجار. تبتعد عن بعضها مسافة أميال كأنها كائنات مختلفة.

لكن النساء تكاتفن مع بعضهن بعضًا في ذلك الموقف. لم تتمكن والدة كريستيان من أن تسوي شعرها. فراح يتطاير ويلتصق في الستائر المخملية، يتطاير حول رأسها كأنه أشعة لهب، تمامًا مثل شعر لوتسيا المبعثر على الوسادة. كانت تبدو كأنها عارية في قميص نومها الشفاف. أمسكت بطرف الستارة بين أصابعها، وغطت بها صدرها. كان وجهها الجميل الذي يبدو عليه الإرهاق والقلق يشبه وجه أمي الهادئ الوديع. كان بإمكانهما أن يرقدا متجاورين، فيبدوان كأنهما بيضتان، لون أبيض وملمس ناعم، شكل وملمس رائعان، وأجنّة في داخلهما. بيضة تتأرجح فوق ملعقة شاي.

أسعدتني حالة الخفة التي شعرت بها، والحركة الخفيفة من دون ذلك الحمل الثقيل. كنت تارة أجري، وتارة أخرى أقفز فوق برك الوحل الصغيرة. تجاوزت إحدى التقاطعات الكبيرة رغم أن الإشارة كانت حمراء. ثم مررت أسفل جسر السكة الحديد وأنا مغمضة العينين، وعبرت مواقف السيارات وأنا أقفز بكل سعادة.

تخيلت لوتسيا وهي تستيقظ على صوت الشخشيخة، وهي تقفز من فوق السرير، وتجري عارية وسط الشقة، ثم تعود إلى السرير، ثم تضع الطفلة بين أحضانها وهي لا تصدق. ضحكت. كانت ضحكات مختلطة بالتشفي والراحة. اقتنعت بأني أخذت على

عاتقي عبئًا كبيرًا للغاية، أكبر حجمًا وأثقل وزنًا من حجم ووزن أديلا التي حملتها في الحقيبة. لم يكن تصرفًا مسئولًا عندما أخذت الطفلين، واعتقدت أني قادرة على رعايتهما. كان تصرفًا ساذجًا. لكني لم أره ساذجًا عندما دفعت العربة أمامي، وصعدت من نفس الطريق. كانت فرصة، هبطت عليّ السماء مع الرياح التي دفعت العلبة الصفيح بين قدميّ، ومع القطار الذي اختفت فيه تلك المرأة. فرصة أن أفعل شيئًا صالحًا وكبيرًا. فرصة تسبح مثل السفينة، بهدوء وروية، ولم يكن صعبًا أن أتمسك بها وألتقطها.

كان من الصعب التحكم في الدّفة. كنت ضعيفة وعديمة الخبرة رغم أني لم أشعر بذلك وقتها. كان من السهل ترك جميع الأشياء للصدفة، والدفاع عن نفسي أمام نفسي. الدفاع عن كل قرار أتخذه.

لم أفكر في نهاية الحكاية. فالأطفال لا تفكر في العواقب. فليست جميع النهايات قريبة كي يزعج الإنسان نفسه بها. فنحن لا نربطها في أقدمنا كأنها وزر يذكرنا في كل خطوة أن كل شيء يومًا ما سينتهي.

كنت سعيدة بأني كنت جزءًا من بيت صغير في كوخ. كنت أحيانًا أشعر أني سأنفجر من السعادة. كل ما حدث هناك كان خارج السياق تمامًا، منفصلًا عن باقي العالم. مر زمن مختلف خلف سور الحديقة، تكونت علاقات مختلفة. بدّل كل منا دوره، واتّخذ لنفسه دورًا آخر. كان لكل شيء قوة مختلفة، وبُعد مُختلِف. شعرنا بالانفصال عن العالم، أو حاولنا ذلك. على الأقل هذا ما اعتقدته أنا. كانت لحظة جاءت في غفلة من الزمن.

بدت حقول الكروم فوق سفوح جبال كرباتيا الصغرى في ذلك الصباح مختلفة. كان الهواء نظيفًا. نظفته الأمطار من التراب.

تكاد السماء تكون بيضاء تمامًا. البرودة والسكينة تتصاعد من الأرض، سكينة رائعة. كان الجو هادئًا. شعرت أن الأرض توقفت عن الدوران، وسقطت في فجوة زمنية سحيقة.

الأرض مفعمة بالماء بعد أمطار الليل، أعمدة الأقاسيا تتأرجح في الهواء، أعمدة فضية مُجعَّدَة ومُغلَفة بالأسلاك. وحبات العنب عالقة بتلك الأسلاك، وشرارة ضوء. مشهد تقليدي في الصباح الباكر في أيام الخريف.

انقشعت السحب، وسالت المياه فوق الإسفلت. انتبهت إلى خطواتي كي لا أسقط في الوحل. كنت أشعر بالراحة، والخفَّة. اختفت من نفسي حالة القلق والشك التي انتابتني مع الحمَّى التي ألمّت بأديلا. كنت أتنفس بسهولة وأنا أفكر. كنت مشتاقة لرؤية الولدين، ولسماع كريستيان وهو يتذمر. قطفت أربعة أهداب من ثمار جوز الطيب التي لم تنضج. أسِفت لأني لم أحضر لولدي العزيزين أي شيء معي. فقد كانت الثلاجة عامرة بالطعام على غير العادة.

غاص كعبا الحذاء في كومة رملية خشنة مبللة. شعرت كأني إنسان يسير في طريق يعرفه بعد توقف طويل، يمر بأماكن تربطه بها ذكريات طيبة. تطفو فوق السطح بقوة، تطفو صارخة لكنها منفصلة عن الواقع. يعتقد أنه سعيد، وأن تلك الذكريات التي تزعق في داخله هي السعادة نفسها التي يقولون عنها إنها لا تُشْتَرى.. وإنها ثمينة وسريعة الزوال.. أو إنه الحب.. الحب الحقيقي الطاهر غير المشروط. أو إنه أحد أنواع الحب التي لا تعد ولا تحصى. يتغلب به على كل حجر، ويتخطى كل شجرة شائكة. يقف فوق أخدود مليء بالماء، ويفكر فيما لو أن ذلك الأخدود كان موجودًا من قبل، أم أنه تكوّن في أثناء فصل شتاء، ويراه للمرة الأولى. يرى ذلك الأخدود جزءًا من الطريق. وهو هناك منذ البداية. فيضعه

في ذاكرته كأنه حفرة عادية في الأرض، لا يلتفت إليها إلا عندما يتحطم دولاب سيارته. يقارن ما يراه مع ما هو مُخزَن في ذاكرته، يستخرج التفاصيل والأشياء التافهة. يشعر بشيء يمكنه أن يكون هو السعادة نفسها. يشعر بدغدغة في جسده. ربما يكون هو الحزن الساكن في حلقه. تمامًا مثلما يبتلع حجرًا أملسًا مستديرًا، فلا يسقط ذلك الحجر في معدته، بل يظل عالقًا في حلقه.

لا يستطيع أن يلتقط أنفاسه لبعض الوقت. لكنه رغم ذلك يقف فوق حفرة وسط الإسفلت، عند عمود الأقاسيا، والحجر المسطَح، ويحاول أن يصله بسلسلة الأحداث.

يقف متأثرًا ومضطربًا، ويشعر بالضجر حتى من نفسه.

مرت بي سيارة واحدة. سيارة سكودا قديمة بها خزان بنزين مثقوب. خلفت وراءها في الهواء رائحة بنزين. وصل قطار بضائع إلى المحطة، ثم لحقه بعد قليل قطار ركاب سريع. هبت الرياح وأنا أتهادى في المدق الملوث بالوحل وسط البساتين، وشتت السحب الثقيلة الداكنة. فجأة صار الجو معتمًا، وباردًا. وتبخرت نشوة السعادة من صباح جميل. كانت الحشائش زلقة، وامتلأ حذائي بالماء ـ كانت قد تبللت من قبل لكني لم أشعر بها إلاّ الآن. رحت أنعى حظي في سري. قطعت غُصنًا من شجرة الجُلْجُل المُتربة التي نمت فوق سور الحديقة، ثم رميته على الفور. فلم تُشعرني تلك الحركة بأي هدوء. بدأت أفكر في طعام الغداء. في أن أطهو شيئًا حُلوًا، مثل رقائق الزلابيا أو ما شابه. أعتقد أني قادرة على صنع رقائق الزلابيا في مطبخنا البسيط. رقائق الزلابيا مع عجينة الشيكولاتة إن لم يكن كريستيان قد أكلها كلها. أعتقد أننا نستحقها. فقد مررنا بليلة عاصفة. كريستيان يمكن أن يجمع بعض الفواكه من البساتين المجاورة، وأنا أُعدّ العجينة. يمكن أن نُسوّي جزءًا

من الحديقة أسفل الشجرة بمنجل صغير له يد خشبية كي نجد مكانًا نبسط فيه البطانية. أعتقد أن ثلاثتنا سنسعد لو جلسنا في الهواء الطلق، ما لم تسقط الأمطار. ولو تساقط المطر سنضطر إلى أن التفكير في وسيلة أخرى للتسلية. يمكننا أن ننظف الكوخ جيدًا. يمكننا معًا أن ندفع السرير جانبًا، ونرفع المدفأة. كريستيان يمكنه أن يثبّت الألواح المنفلتة على حوائط الكوخ الخارجية. أو يصلح قوائم البوابة. أحتاج إلى أن أفعل شيئًا مفيدًا. أن أخطط لذلك الصبي المسكين وأوجّهه. كنت واحدة من الأطفال المهملين المذمومين الذين لا يشعرون بقيمة لهم، ويعانون من الوحدة نتيجة نقص الأعمال الهادفة. وكان كريستيان واحدًا من هؤلاء الذين يرغبون في تجربة كل شيء وإثبات أنفسهم فيه، لكنهم لم يمكنوا؛ لأن شخصًا بالغًا يتحلى بالمسئولية يحول بينهم وبين خطر محتمل من وقوع مكروه لهم.

كان بإمكاننا أن نتكامل. كانت لدي خطط كبيرة. لو صار لدينا مزيد من الوقت والطاقة والمعدات لهذبنا الحديقة بالكامل، ولنقلنا الأحجار المبعثرة هنا وهناك، ولصنعنا من الحبال والأغطية أرجوحة شبكية نتأرجح فيها نحن الثلاثة، يأرجح كل منا الآخر كي ينام. وكي لا نحترق في الغرفة نصنع موقدًا في الخارج - نستفيد من الأحجار التي نتعثر فيها. نطلي سقف الكوخ وحوائطه. نزرع في فصل الربيع شيئًا لا يحتاج إلى كثير من الرعاية، بعض شجيرات الفاكهة، أو الفراولة. لكن في البداية يكفي أن أصنع رقائق الزلابية.

كانت البوابة مفتوحة على مصراعيها، وبدت قوائمها مائلة إلى الداخل أكثر مما كانت. تمهلت في خطواتي مترقبة. أرفع حذائي من فوق الأرض كي لا يرتطم كعبها بالأحجار. ثم ملت، ونظرت

من فتحة في حائط النباتات. لم أرَ شيئًا. بل سمعت حفيفًا وصريرًا ورنينًا، وكأن زجاجات فارغة ترتطم ببعضها في حقيبة ما.

بدأت دقات قلبي تعلو، وانتابني الهلع. في البداية جثمت فوق الأرض وأسندت جسدي على كفيّ. شعرت ببرودة الأرض بين أصابعي بعد ليلة ماطرة، وخطر لي أن الأرض ستصير يومًا باردة كلها، ستبرد من الداخل، ويستيبس قلبها ويتحجر. وستسقط جذور النابتات والأشجار الديدان والزواحف في فجواتها.

رحت أسترق السمع، توقف الحفيف والرنين لبعض الوقت، ثم جاء صرير وصوت متقطع لم أفهم منه شيئًا. مقطع أو مقطعان، لا أكثر من ذلك. ربما كان صوت كريستيان أو صوت الرضيع. وصوت رنين من جديد، وحفيف حشائش. وشيئًا ما يتحرك بعده، من دون أن يرفع أقدامه من على الأرض. كان صوتًا ضعيفًا وعاديًا. ربما صدر من قطة ناعسة أو من كلب ضال. ومن جديد صدر صرير ورنين خافتان. صرير القوائم الخشبية في الكروم، والأشجار. الكوخ بأكمله راح يصدر نفس الصوت. وكذلك أغطية زجاجات الفواكه المطبوخة، والشرائح المعدنية فوق الشجيرات النابتة في بعض البساتين. قلت لنفسي إنه عندما تشتد الرياح تصلصل قطعتان معدنيتان معلقتان فوق إطار نافذة الكوخ. شيء ما يحدث في الحديقة، شيء ما يمشي هناك.

تخيلت أن قطًا أسودًا يحفر في الأرض. لكن هذا غير ممكن. لقد لقي القط حتفه، وانقسم إلى نصفين، داسته الدراجة النارية.

نهضت بعدما هدأت الأصوات، وسويت أحزمة حقيبة الظهر، ونظرت إلى داخل الحديقة.

رجلان يمشيان في الحديقة. أحدهما يرتدي حذاءً مطاطيًا أخضر

مائلًا للاصفرار ـ الصرير، والثاني يرتدي حذاءً رياضيًا ـ الحفيف. يحمل الرجل ذو الحذاء الرياضيّ حقيبة بلاستيكية في يده، وفيها زجاجات ـ الرنين. كانت الزجاجات ممتلئة، والرجل يميل على جانبه كي يحافظ على توازنه. كان نحيفًا وهزيلًا، الملابس عالقة فوق جسمه كأنها فوق مسمار تعليق الملابس. كان كل شيء يرتديه باهتًا وغير واضح. يكاد يتوه وسط الحشائش. ينظر أسفل قدميه اللتين تتحركان فوق الحشائش كأنهما تتحركان في خف كبير واسع. يبدو أن كل ما يهمه هو أن يسير في خط مستقيم، ولا يبذل جهدًا كبيرًا وهو يتقدم إلى الأمام.

كان الرجل ذو الحذاء المطاطي يقف وينظر حوله. كان طويلًا وضخمًا. تتسم حركاته بالهوادة والخمول. قطع من دون أن يفكر ساق نبته وقعت بين أصابعه صدفة. مال باسترخاء على جانبه ثم ترك الساق يسقط على الأرض. كان العرق فوق مؤخرة عنقه يتلألأ. أكمام قميصه الأبيض مفكوكة ومطوية حتى أسفل كوعه. تخيلت أنه بيتر. بعد لحظات من الانتظار تقدمت إلى الأمام. أردت أن آخذ الغصن من بين أصابعه، وأضعه في كفه، ثم أذهب معه إلى داخل الكوخ الصغير، يرافقني صرير حذائه ورنين الشرائط الحديدية. تمامًا كما مشيت فوق الثلج المتساقط حديثًا في أثناء الحلم.

وهنا تمتم الرجل الذي يحمل كيسًا بلاستيكيًا بشيء من أنفه وأنا أقف متأهبة، أمدّ قدمًا إلى الأمام. كانت الحشائش تغطي أربعة خطوط حديدية غائرة وسطها.

شيء ما تحرك خلف النافذة. لم يكن سوى ظل. وربما لم يكن ظلًا. ربما تراءى لي ذلك. لم أكن أقف في المكان الصحيح، ولم أكن قريبة من النافذة بالقدر الكافي. لم يكن الدخان يتصاعد من

المدخنة. لم أسمع صوت بكاء، أو أية أصوات أخرى. أسقط في يدي، توقف رأسي عن التفكير، ولم تخطر لي سوى أشياء تافهة، بأني لم أشتر زيًا رياضيًا، وأريد أن يكون بغطاء رأس فيروزي اللون. وأن دوروتا الآن تمشي على شاطئ البحر في كرواتيا. ولن تأخذني لوتسيا إلى هناك يومًا ما. بدت لوتسيا في الصباح جميلة بالفعل. مثل جِنّية في غرفة النوم. سيُسحق العنب في حقيبة الظهر، ويتسرب منها، ويترك بقعًا على ملابسي. لو أنني حملتها على صدري لبدوت كأنني تقيأت على نفسي. زِرّ الجدة المزيفة إيرينا، وصباح هادئ. عربة كريستيان الخضراء في السيارة.

دار الرجلان حول البيت. وقف الرجل ذو الحذاء المطاطي أمام البيت، وفرد ساقيه، ثم قطع غصنًا آخر، وكسّره بين أصابعه إلى قطع صغيرة. تقدم الرجل النحيف من النافذة، ونظر إلى الداخل وهو يخبئ بكفيه انعكاس الضوء على الزجاج. صاح بصوت عال:

- لا أرى أحدًا. ليس هنا سوى الظلام. لا يوجد أحد هنا. ثم تراجع إلى الخلف،

وأضاف بصوت أكثر هدوءًا وهو يفرك خلف أذنه:

- لكني رأيت ذلك الصبي هنا منذ ساعة، وسمعت صوت بكاء. أنا متأكد.

ألقى الرجل ذو الحذاء المطاطي الغصن المتكسر بكل عزمه وفتح باب الكوخ. تطاير الدخان من وراء الباب. أفلت الرجل المقبض من يده وهو يشتت الدخان بيده من أمام وجهه. قلت لنفسي:

- أين المفتاح؟ من أخذه؟ ولِمَ هذا الدخان؟

وهنا وثب كريستيان من خلف البرميل المعدني وهو يحمل

بندقية الصيد في يده، وعلى وجهه علامات الغضب. كأن أحدهم قد سحره. ساحر مشتت الفكر، خفيف الدم. يرتدي تي شيرت يخصني، تي شيرت قصيرًا بتفصيلة نسائية، وطوق مزركش. يبرز من تحت التي شيرت قميصه، وسقاه النحيفتان بكدمات كبيرة في منتصفها. كان حافيًا؛ إذ فقد فردة حذائه في اليوم السابق. كانت بندقية الصيد تهتز في يده، كانت بندقية كبيرة وثقيلة من دون حشو. وهو يتأرجح معها. كان يدفعها بعيدًا عن جسمه قدر استطاعته. لا يعرف كيف يستعملها. فهو لم ير يومًا فيلمًا يطلقون فيه النار. كان يبدو مرتبكًا، كأنه حسب نفسه خطأ شخصًا آخر. ارتكبت الطبيعة خطأ محزنًا ومضحكًا؛ صنعته من مجموعة أطفال. اختفت نظرة الغضب من على وجهه سريعًا بمجرد أن رأى الرجلين وجهًا لوجه. وتحولت إلى نظرة يأس وخوف. كانت يداه ترتعدان وهو يحاول أن يدك رأس البندقية في الأرض.

لم يغير الرجل ذو الحذاء المطاطي من شكله غير المبالِ. قام الرجل الآخر بنقل الكيس الرنان إلى يده الأخرى، ولم يتركه من يده طوال الوقت. وقفا متقابلين، يتحاوران في هدوء لبضع دقائق.

صاح الرجل ذو الحذاء المطاطي بصوت عالٍ:

ضع هذا البندقية على الأرض.

ثم أضاف بسخرية:

كي لا تجرح أحدًا!

ضحك الرجل الذي يحمل الحقيبة ضحكة خشنة، وراحت الزجاجات في الحقيبة تصلصل.

قلت لهم في سري أسبهم:

أغبياء! أنتم لا تعرفون ما يخبئه لكم، لا تعرفون قدرات ذلك الصبي. إنه مختلف عن أولادكم يا أغبياء.

واصل الرجل ضحكاته. قلت لنفسي:

- إنه مسكين، لا حيلة له. يقع في مشكلة لا ذنب له فيها. اتركوه في حاله!

لكني لم أفعل شيئًا. بقيت واقفة خلف الشجيرة ساكنة مثل التمثال، أدعو ألا يلتفت أحدهم فيراني. لم أفعل شيئًا. تركته وحده، يقف خائفًا مثيرًا للشفقة. لم أعلن عن نفسي، لم أدافع عنه. لم أضغط على البندقية التي سحبته إلى الأرض.

من جديد رحت أسأل نفسي:

- أين المفتاح؟ سؤال تافه. لم يكن مهمًا أين يكون المفتاح. حتى لو كانت الباب موصدًا لفتحوه بغصن جاف، أو بإصبعين اثنين. أين وضعت المفتاح؟ أين الطفل؟ أين اختبأ الطفل؟

تجولت بنظري في أرجاء البستان، في الزاوية الضيقة التي أراها من مكاني. كانت الحشائش تلمع في مكان ظليل يحتفظ بالأمطار التي سقطت بالأمس. كانت الأغصان المفعمة بالماء ما زالت داكنة اللون وثقيلة. لا شيء يتحرك هناك، لا تهتز ولا حتى وريقة صغيرة. لم يتحرك كريستيان، ولا أحد من الرجلين. لم يكرر الرجل ذو الحذاء المطاطي كلامه. تسمّر كريستيان في مكانه وهو منفرج الساقين، يضم يديه في جنبيه ولا يتحرك.

بدا كريستيان شاحبًا، كأن الدم قد هرب من جسمه بالكامل. وفجأة كشر عن أنيابه، ثم تقدم وهو يحمل البندقية في يده. تجاوز الرجلين بمهارة، وقفز عاليًا فوق الحشائش حتى وصل إلى الباب.

تردد هناك قليلًا، حيث علق حزام البندقية بقائمة البوابة الصغيرة. نظر نحوي وكنت أقف على بعد مترٍ واحدًا منه. لكني شعرت بأنه لم يرني. كأن النقطة التي يصوب عليها تبعد كيلو مترًا. جذب البندقية بقوة، ثم أفلت حزام البندقية، ثم صعد على الطريق. تعثر في أحد الأحجار، وتحركت حبات الرمل الخشن الملقاة على جانبي الطريق تحت قدميه، والتصق الطين بهما. سقط مرتين، واستند بنصف وجهه على الحشائش الباردة الملطخة بالطين، وسقطت البندقية من يده مرتين. ثم اختفى خلف الأسوار.

وضع الرجل الهزيل الحقيبة على الأرض في تردد وهو ينظر إلى الرجل ذي الحذاء المطاطي. ثم سأله:

- هل أمسكه؟

قال الرجل الآخر بهدوء:

- لا داعي.

ثم دخل إلى الكوخ. كأن شيء لم يحدث، وكأن ما مر أمامه لم يكن سوى ثمرة جوز هائمة لا يمكن أن تؤذي أحدًا. هزّ الرجل النحيف كتفيه، ثم نظر بأسى صوب بوابة الحديقة. يبدو أنه انتابه شعور صائد قديم، فشعر برغبة قوية في أن يذهب لتعقب كريستيان المسكين. لكنه لم يرغب في أن يفعل من دون موافقة شريكه. كان في تلك اللحظة مجرد مستمع يثق فيما يقوله شريكه. همهم بشيء ثم انصرف وراءه إلى الداخل. أسرعت خارج البستان وراء كريستيان عندما اختفيا وسط الدخان المتناثر. لكن كريستيان اختفى. كانت آثار قدميه واضحة على الأرض. لكنه اختفى بعد أن رأيته ينعطف، واختفت آثاره. رحت أتنقل بين البساتين، وأمر بين الكروم فوق التلال المتدرجة، أبحث عن آثاره في الطين. شعرت

بأن عليّ أن أبحث عنه. شيء ما يتهدده، شيء مخيف. شيء لن يحميه منه أحد آخر غيري. أنا الوحيدة التي تعرفه، أعرف مخاوفه وأصابعه. كنت أرى أنه يجب أن نبقى معًا، نحن الاثنان. ربما أني لم أعرف ماذا أفعل، وإلى أين أذهب. فكان البحث عن كريستيان هدفًا مناسبًا.

رحت أطوف وعصارة العنب تتساقط من حقيبة الظهر. نسيت يعقوب. توقفت عن التفكير فيه تمامًا، وعن التفكير في الرجلين، وفي المفتاح، وفي الدخان.

تجولت في الكروم والبساتين طولًا وعرضًا. سمعت نعيق الأبواق، وإعلان عن وصول أحد القطارات. مشيت وأنا أحني ظهري. لم أتوقف إلا عند تقاطعات الطرق. اشتدت حرارة الشمس، وشعرت بالجوع. فأكلت بضع حبات التوت والعنب المتنوعة التي قطفتها من مختلف حقول الكروم. اختفى كريستيان. دخلت إلى الغابة. كنت مثل الفارس النبيل في آخر حملة صليبية. تجولت في غابة لا أعرفها إلى ما يقرب من ساعتين، إلى أن وجدت نفسي صدفة على الإسفلت. قادني الطريق الإسفلتي إلى خارج الغابة، إلى النور، وإلى الحضارة، وإلى محطة الحافلات. بعد محطتين بالحافلة وصلت إلى محطة القطارات. نزلت هناك، وأزلت الطين بأحد الأغصان الصغيرة عن كعبي حذائي، ثم ذهبت إلى البيت.

استيقظت لوتسيا منذ ما يقرب من نصف ساعة قبل عودتي. وجدَت على السرير طفلة شبه ميتة بجوارها على السرير. ارتدَت معطفها وخفها، ثم لفّتها في بطانية، وطرقت على باب شقة أم كريستيان؛ لأنها التي كانت ما زالت تقف خلف النافذة، وتضع الراديو بجوار أذنها، كانت أول من رأته لوتسيا عندما وقفت خارج البيت تتطلع في هلع حولها لتعثر على أي خيط يقودها إلى السبب

الذي جعل طفلة تعاني من الحُمّى ترقد بجوارها على السرير.

قالت لي لوتسيا بعدها ببضعة أيام:

ـ كانت تبدو من تلك النافذة كأنها ملاك. وكأنها ممرضة في مستشفة أورام الأطفال. ودودة ومقتدرة.

ثم أضافت بانزعاج:

ـ لم يخطر على بالي وقتها شيء آخر. أردت أن أجد حلًا لذلك اللغز بأسرع ما يمكن. كنت أتطلع إلى أن أستيقظ بجوار شخص آخر تمامًا. كان يجب أن يكون هناك، كان عليه أن ينتظرني. وعدني بذلك. لكنه اختفى كما فعل من قبل، قبل أن أستيقظ.

كانت تفكر في ذلك الرجل الذي ضاجعها قبل بضع ساعات. لم تكن تعنيها الطفلة. كانت مجرد جزء من موقف وجدت نفسها فيه من دون أن تدري، جزء شاذ يصعب تفسيره. كانت مجرد شيء ظهر في سريرها على سبيل الخطأ. الواقع أن جميع الأطفال الذين قابلَتهم، كانوا مجرد رفقاء سفر عابرين، لم يكن في مقدورها أن تتقبلهم بقلب منفتح، أو حتى تتركهم عند الباب.

ارتبطت الطفلة في البداية بذلك الرجل. اتصلت به هاتفيًا. تخيلتها وهي تقف عند النافذة بشعرها المبعثر، متعجلة، تضع الهاتف فوق أذنها، والوسادة البيضاء على صدرها. تتحدث مع رجل أسلمته عقلها وجسدها. تتطلع إلى امرأة في العمارة المقابلة. لم تلاحظ التشابه بينهما. لم تعرف كم الأشياء التي تجمعهما. لم تعرف أيًا منهما بذلك الأمر. الرجل ينصحها بأن تعطي الطفلة على الفور لأحد تثق به، وأخبرها بأنه سيعود على الفور، سيعود إليها مجرد أن ينتهي من بعض الأعمال. المهم ألا يجد في البيت طفلًا

غريبًا يصرخ.

تقف في النافذة المقابلة - كأنها في مرآة - امرأة أسدلت رأسها قليلًا، ما زالت تستمع إلى الإذاعة كأنها مُنوّمَة مغناطيسيًا. لوتسيا تعرف أن تلك السيدة هي والدة صديقي. إنها تحتفظ بتلك المعلومة في رأسها من دون أن تقصد، رغم أنه لا الجيران ولا أهل أصدقائي يعنونها في شيء طالما أن الأمر لا يتعلق برجال ذوي مظهر معين ومكانه معينة.

التقيا بعد دقائق. جلسا في غرفة الصالون لمدة خمس دقائق، لوتسيا تشرب القهوة - قهوة بالفعل جيدة يا ياركا! قهوة ناعمة مثل الحرير - سعيدة بقميص نومها الوردي. تحاول أن تشرح للمرأة ما تريده منها. غير قادرة على أن تنطق جملة واحدة مكتملة. السيدة – الملاك تأخذ الطفلة من يديها مثل طرد تتسلمه من ساعي البريد - ثم تودعها ثم تعود لوتسيا لتواصل نومها. بعد عشر دقائق يعلو صوت عويل سيارة الإسعاف. تطوف بموقف السيارات للحظات، وفي النهاية تقطع الفناء. الجيران يميلون من النوافذ. لا يفهمون كيف صَغُر كريستيان إلى هذا الحد. أمّ كريستيان تمسك بالطفلة فوق صدرها، لا تريد أن تفلتها من يدها ولا حتى في سيارة الإسعاف. لوتسيا تتابع كل ما يحدث من وراء ستارة.

يأتي الرجل بعد مرور ساعة على انصراف سيارة الإسعاف، فتنسى لوتسيا الطفلة على الفور. تنسى جميع أطفال العالم. يضاجعها الرجل مرة أخرى، ثم يتركها لتنام راضية، وساخنة ومبتلة.

وجدْتُها في الوضع نفسه الذي تركتها فيه. لكن الجزء الأيمن من السرير صار خاويًا. لا توجد على طاولة المطبخ أية حقيبة أو

أية أغراض تخص الأطفال، بل فقط وكالعادة، كوب من قهوة لم تفرغ من شربها، وعلبة سجائر فارغة. الشيئان الوحيدان اللذان أراهما على الدوام فوق الطاولة في الصباح، وفي المساء، في الشتاء والصيف، ممتلئان أو فارغان، كأننا نعيش فقط على القهوة التركية والسجائر. لا أثر يدل على أن رضيعًا غريبًا ظهر في شقتنا.

عدت إلى البيت أبحث عن أديلا، لكنها لم تكن هناك. ليس في غرفتي، ولا في غرفة لوتسيا، ولا في الحمام، ولا في الدهليز. لا أثر لها. السرير مبعثر، ولوتسيا ما زالت نائمة. لم أعرف كيف أفسر الأمر. كنت متعبة من كل ما حدث، من الهرولة وسط الكروم. من الترقب والخوف. لا أعرف أين ذهبت الطفلة. أين اختفت بأشيائها من دون أن تستيقظ لوتسيا. لا يوجد ما يشير إلى أنها نهضت من فوق السرير. كل شيء في مكانه. لا أعرف ماذا أصنع. لأول مرة أشعر باختلاط تام، كأنني أمسكت فجأة بطرف حبل بعد رحلة طويلة في متاهة مظلمة. ولا أعرف بماذا أمسك. لا أعرف ماذا حدث مع الطفل الآخر، ولا مع كريستيان. لا أعرف إن كان كل ما حدث مجرد حلم.

جلست على الأريكة، أشعلت التليفزيون، أخفضت من صوته كي لا يزعج لوتسيا. شاهدت أغاني. كانت الصور تتناوب بسرعة، لكني لا أفهم الصور، عاجزة على التركيز فيها. غرقت في التفكير فيما حدث وأنا خارج الشقة. فقررت أن ألتزم الصمت ما لم تتحدث لوتسيا عن الطفلة. ربما لم يكن هناك طفل في شقتنا من الأساس، وأن كل ما حدث كان مجرد حلم.

استيقظت لوتسيا بعد دقائق، تتصرف كعادتها. ترتدي قميص النوم، وتجلس على حافة السرير، تغطي صدرها بيديها، وتسوي كتفيها، وتتثاءب.

- ماذا تشاهدين؟

سألتني، ليس عن اهتمام منها، بل فقط لمجرد أن يبدأ الحديث.

قلت:

- لا شيء.

- أطفئي صوت التليفزيون، فأنت لا تفهمين منه شيئًا على أية حال.

أطفأت صوت التليفزيون. سيطرت على الشقة روح سوداء كئيبة.

قالت محتدة:

- أغلقي التليفزيون من فضلك!

رمقتها فلم أجد على وجهها أية تعبيرات غريبة. ذكرتني بنبات القراص الذابل. سألتني وهي تتناول من الثلاجة بودنج بارد بالكريمة:

- هل أنتِ جوعانة؟ خذي شيئًا من الثلاجة..

كان البودنج وقمته البيضاء يتراقص في الملعقة، ولوتسيا تتابع تلك الحركة باهتمام. ثم وقفت فجأة بعد الملعقة الثالثة أو الرابعة، وتوجهت نحو النافذة، وأزاحت الستارة بحدة. راحت تنظر إلى العمارة المقابلة. لم تقل شيئًا. تظاهرت بأنني أتابع الغناء في التليفزيون. لكني في الواقع كنت أراقبها، وأنتظر ما ستقوله. وقفت قليلًا وهي تقرض إصبعها، ثم عادت إلى الطاولة، وراحت تجمع بقايا البودينج بالملعقة. قالت:

- جربيه! إنه طيب.

ثم ألقت علبة البودينج في السلة، وبدأت ترتدي ملابسها.

ـ يجب أن أنصرف الآن، انتظريني هنا، حسنًا؟ سأعود خلال ساعتين. لا أكثر.

ثم أضافت:

ـ لا تفتحي الباب لأحد، وسوف أغلق الباب من الخارج على سبيل الاحتياط.

انصرفت قبل أن أجيبها. سمعت طرق خطواتها على الدرج، وصرير مفاتيحي وهي تضعها في جيبها. ظللت جالسة فوق الأريكة، ثم رفعت صوت التليفزيون. جاء أحدهم يدق على الباب بعد نحو نصف الساعة. لكنني لم أتحرك من فوق الأريكة كي أرى ثقب الباب من يكون. غلبني النعاس فوق الأريكة، وسقط الريموت بين حشاياها. استسلمت للنوم وأنا أفكر في أن علينا أن نربط الريموت بالأريكة بحبل كي لا نبحث عنه كل يوم.

راودني حلم. أقف فوق سفينة تبدو كأنها سفينة بخارية قادمة من حكاية خرافية. سفينة زرقاء بخطوط بيضاء. فوقها كابينة تبدو كأنها صورة مصغرة من بيتنا الريفيّ. بها مدخنة، وإفريز، ونافذة وحيدة. كان من المفترض أن يكون الكوخ على هذا الشكل لو أنني تمكنت مع كريستيان أن أنفذ خطة الإصلاح التي وضعناها.

كان الجو هادئًا، والسفينة تقف وسط المسبح بلا حراك. سطح الماء ناعم. لا تسقط أمطار ولا تتساقط أوراق من الأشجار. الحشرات تقف على جانب مسبح شديد الاتساخ، وماؤه عكر. لو لم يكن الحمّام ممتلئًا بالماء لظن الإنسان أنه مهجور منذ أعوام. تبدو السفينة الزرقاء الواقفة بلا حراك في منتصف المسبح كأنها

شبح. حلم مالكها الذي أفلس، وأمنية أطفال بخيالٍ خصب. أطفال ليس عندهم مكان يسبحون فيه وقت الإجازة.

أتقدم خطوتين من النافذة بحرص كي لا تهتز السفينة. أميل، وأسند بجبيني على الزجاج. أضع يديّ على وجهي كي لا أرى المشهد. كل شيء في الداخل مرتب مثل بيتي الريفيّ. سرير أسفل النافذة، مدفأة من حديد الزهر، وطاولة، وأكواب فوق الأرفف، وأشرطة معدنية على إطار النافذة تلمع. غرفة صغيرة ولطيفة ومريحة، تكفي لشخص واحد. أتعجب، كيف أن مكانًا صغيرًا كهذا يتسع لكل هذه الأشياء!

أعود، وأعبر الحاجز. أجلس على حافة السفينة التي تتهادى. أغمس طرفيّ حذائي في الماء، فتنتشر الدوائر فوق سطحه. أتحرك نحو الحافة أكثر وأكثر، ثم أغمس ساقيّ حتى كعبي. أشعر بالماء وهو يتسرب إلى داخل الحذاء، فيصير ثقيلًا. أغلق عينيّ، أقفز، ثم أغطس في الماء. أمكث هناك قليلًا، ثم أصنع بعض الحركات العنيفة. شعري ينتشر فوق سطح الماء ويعلو. أسبح بعينين مغلقتين وأنا أفكر أني بعد قليل سأرتطم بحائط المسبح. لكن شيء كهذا لم يحدث. أواصل السباحة، بسرعة، وحائط المسبح يبتعد عني. ما زلت في المسبح نفسه، لكني لا أرى نهاية له ولا بداية. وصارت السفينة بعيدة عني. لا أرى منها سوى بقعة زرقاء، ومن خلفها فراغ مفتوح متسع. مكعبات كبائن تبديل الملابس، وبوفيه. صارت السماء مثل ستارة زرقاء مُسطّحة. أواصل الغوص، وأسبح من دون أن أستنزف طاقة من داخلي. أسبح بيدين منفرجتين، والتيار يدفعني إلى الأمام فأستسلم له. أشعر بالإرهاق. يهدأ التيار فجأة، وأسقط في القاع. أضع يديّ أسفل رأسي وأنام.

كانت المروحيات والكلاب تبحث عن كريستيان وعن الطفلين.

عثروا عليه في صباح اليوم التالي، بالقرب من البستان. ربما هام على وجهه طوال الوقت بين الكروم مثلي أنا. ربما جلس في قنطرة إسمنتية ضيقة ممتلئة بالماء، تستخدم كجسر بين الطريق وبين البستان. كان في حالة هستيرية، ولا يتكلم مع أحد. أردت أن أفسر له بعض الأمور، وأن أحضنه، وأقول لها إنه صبي شجاع، ولم يخيّب ظني به. أردت أن أفسر له الأمور، وأحكي له عن كل ما حدث منذ أن انصرفت في الصباح مع أديلا المريضة. أردت أن أسمع منه، ماذا صنع وحده في البستان. كنت على قناعة بأنه قد يخبرني بكل شيء. وضعوه في المستشفى، ولم يسمحوا لأي شخص غريب أن يزوره. لكني لم أكن شخصًا غريبًا.

التقيت كريستيان صدفة بعد مرور أعوام على ما حدث. التقينا في محطة بنزين. كان لطيفًا. حاول أن يخفف من شأن ما حدث، ويعلن عن تفهمه. استمع إلى روايتي واعتذاري وهو يخبط على كتفي ليشد من أذري. لكني شعرت بأن كل كلمة قلتها ترتد إليّ مثل الكرة، وأنه لا يستوعب أي منها، ولا يشعر بها. لم نعد أطفالًا، ولم نكن في الحديقة، بل كنا في محطة البنزين. جلسنا متقابلين عند طاولة صغيرة من الألومونيوم بجوار رفّ ممتلئ بزجاجات بها سائل سيارات ضد التجمد.

كان كريستيان يشبه والده، طويلًا غير رشيق، يرتدي ملابس أنيقة، وتبدو عليه التربية الصالحة. كان مظهره جيدًا، من رأسه وحتى قدميه. لكني لم أمنع نفسي من الشفقة عليه. ما زال يبدو كإنسان يجب أن تذرف الدموع من أجله. مثل وعاء فارغ قد تملؤه تلك الدموع. كانت حركاته مترددة، وكأنه غير واثق منها، أم ربما كانت طريقته وهو يرفع الكأس إلى فمه غير صحيحة! كانت كلماته غير مقنعة. يردد دائمًا عبارة:

- لست متأكدًا تمامًا.. لا أستطيع إيجاد الكلمة المناسبة.. لا أعرف إن كنتِ تفهمينني.. أودّ أن أعبر بطريقة مختلفة أكثر دقة، لكني غير قادر..

أحيانًا كانت تنتابني رغبة في أن أصفعه على وجنته كي ينتبه، كما كنت أفعل في ذلك الوقت، هناك في البستان.

حزمت أمتعتي أنا ولوتسيا بسرعة البرق وتركنا الشقة. اشتريت معطفًا جديدًا في مدينة مختلفة تمامًا، مدينة مغمورة؛ حيث يغلقون مصابيح الشوارع بعد الساعة الثانية عشرة. افتقدت الحافلات، ولوحات الإعلانات، وغرفتي، وبيتر، والشوارع الواسعة، والحي. كانت لوتسيا هلعة من أن تقابل تلك السيدة المسكينة التي قابلتُها على محطة القطارات، خائفة من أن تقابلها في أحد الشوارع. لم تتصور أنها ستضطر إلى النظر كل يوم ناحية نافذة شقة كريستيان، وأن تتجنب أمه في موقف السيارات. لم تتحمل نظرات الجيران، كانت خائفة من الصحفيين، ورجال الشرطة، وموظفي الشئون الاجتماعية. ففضلت أن تترك شقتنا لصديقتها، وفي الأول من سبتمبر انصرفنا ونحن نحمل الحقائب إلى مسكن آخر. تركناه بعد ثلاثة أشهر، وأقمنا بعدها عند رجل عجوز، في غرفة ذات شرفة. ثم انتقلنا إلى إحدى المزارع ومنها إلى ذلك الرجل، وهكذا.

حاولت أن أجهد نفسي كي أستمع إليها. حاولت بكل عزيمة أن أقاومها وهي تهمس، وتقول:

- يا ياركا! لا تسببي مزيدًا من المشكلات، فكفاكِ ما فعلتي. يا ياركا! لا تدمري حياة غيرك. أنت تتدخلين في شئون الآخرين رغم رفضهم لذلك، فهم لا يحتاجون إلى تدخلكِ! يا ياركا! لماذا أنت شريرة هكذا؟ يا ياركا! تذكري هؤلاء الأطفال...

كانت كلماتها تردد في رأسي بصوت خافت لا أميزه. كانت كل كلمة منها مغلفة في فقعة هوائية كي لا تؤلمني كثيرًا. لم أتمكن من التخلص منها. كان الدوامة خلف سفينتها تجذبني على الدوام، وتسحبني نحو القاع. كانت مثل حلم الشتاء الذي يراودني مع رجل غريب. مثل ماء يغمر امرأة فلا تستطيع التنفس.

كان جدول الماء الذي سقطت فيه لوتسيا ضحلًا، ينساب فيه الماء على مهل وفي هدوء. كان سطحه في بعض أجزائه ثابتًا لا يتحرك. سقطت أوراق الصفصاف، والتصقت بجوانبه، وراحت تدور في دوامات صغيرة. كان الجدول في بعض الأماكن يفيض من فوق جسور صغيرة بنيت من قناطر إسمنتية، وعوارض من خطوط السكك الحديدية. أحيانًا يفيض من فوق أشجار صفصاف نائمة فوق الأرض. انتشرت كروم الخوخ، والمناحل، والمراعي خلف الجسور الصغيرة. كان مكانًا جميلًا في نهاية إحدى القرى في وسط سلوفاكيا. انتابتني رغبة في أن أجلس فوق جسر صغير، وأطلق قدمي فوق الماء، أقطع غصن شجرة رفيع وطويل أداعب به سطح الماء.

لا أعرف كيف استطاعت الوصول إلى مكان كهذا، ولماذا هذا المكان بالتحديد وهي قضت حياتها في المدن الكبيرة والصغيرة. اعتادت السير فوق الأرصفة الإسفلتية. لم تشكُ يومًا من مصابيح الشوارع المضاءة طوال الليل. كانت تحب المتاجر التي تعمل ليل نهار، والأنوار المتلألئة، وكرات صالات الرقص اللامعة، وأجهزة صنع القهوة في الأماكن العامة والمصاعد. قال رجل الشرطة الذي رافقني إلى ذلك المكان:

- المرأة الملعونة في مدينة فاهو. يوجد خلف الهضبة ثلاثة أو أربعة بيوت ريفية يؤجرونها في الصيف.. رحت أقول لنفسي:

ـ ربما كانت تحتفل بشيء ما.. الشباب يأتون إلى هنا كثيرًا للاحتفال.. فالخمر هنا رخيص. كل شخص يصنعه في البيت، ويبيعه من نافذة قبو بيته.. أو ربما أنها أصيبت بالجنون.. أو تاهت. سألني:

ـ هل أنتِ شقيقتها؟

قلت له:

ـ ابنتها.

كان ردًا غير متوقع.

ـ كم عمرها؟

ـ خمس وثلاثون.

همهم، ثم قال باهتمام:

ـ امرأة جميلة.

لم يكن أمامي اختيار آخر غير العيش معها. لم يكن ممكنًا أن أسامحها، وأنظر إليها من خلال زجاج نظيف. لم أصفح عنها. لا أتذكرها إلا كامرأة بليدة الشعور وضعيفة. امرأة لا تجهد نفسها، وتتظاهر بأنها تحب ابنتها. أتذكرها مثل إنسان عليّ أن أخاطبه باسمه رغم أن اسمها يخرج من فمي بصعوبة. نهاية حبل يقود إلى أعلى درجة من درجات العلاقة، إلى التفاهم والغفران، هذه النهاية بقيت عالقة بعيدًا عني، لا أطالها.

حاولت كثيرًا أن أتخلص منها قبل أن ألتقي بيتر مجددًا. ترددت على جلسات التنفس التأملي، وجلسات اليوجا. لكنه لم يكن سوى

عرض مسرحي. ارتديت ملابس وردية اللون، استرخيت وأطلقت حواسي، توقفت عن التفكير، وفتحت صندوق الألغاز. تنفست بعمق كي أتخلص من المشكلات من خلال فجوات منفرجة بفضل الحركات الصعبة. حاولت النسيان. لكن شيئًا لم يتغير. كان كله ساكنًا في أعماقي، كأن حجرًا يحبسه وأنا لا أملك الإرادة أو القوة على أن أحرك هذا الحجر من مكانه. كل ما أردته أن أكون ابنة صالحة.

قالت لي لوتسيا ذات مرة وهي سكرانة إني وحدي المسئولة عن كل شر حدث لها ولإيرينا، ولكريستيان، ولأسرة كريستيان، وللطفلين ولأمهما، ولكل الأسرة. قالته عرضًا من دون مقدمات، ببساطة كأنه لعاب يسيل من فمها. وأنا صدقتها، فهي أمي. من وقتها لا تمر دقيقة من دون أن أفكر في كل الناس الذين دمرت حياتهم. ومن وقتها وأنا أحاول أن أكون فتاة صالحة. كل ما فعلته كان مدفوعًا بقوة ما. أن أكون فتاة صالحة، ألا أتسبب في مشكلات، ألا ألفت إليّ الأنظار، ألا أفعل شيئًا قد ينتهي نهاية سيئة، ويهدد شخصًا آخر، ويترك تأثيرًا سلبيًا على حياته. لم أكن قادرة على التصرف بتلقائية وعفوية. استقر في نفسي أن أتحكم في كل ما أفعله.

لكن شيئًا ما حدث، في شهر سبتمبر، بعد تناول العشاء مع دوروتا وبيتر.

ذهبنا إلى بيتر بعد أن انصرفنا من مطعم الحديقة. جلسنا في المطبخ نستمع إلى دوروتا لمدة ساعة. ثم رافقتها حتى محطة الترام. كانت لديها موعد آخر. وعدت مرة أخرى. وقفت طويلًا أمام شقة بيتر أتطلع إلى الشارع. كانت الظلام قد نزل، والساعة قد جاوزت التاسعة، والجو حارًا. حرارة صيف عاصف لا يمكن أن

تستغرق فيها. هواء شهر سبتمبر العليل، المفعم بالروائح الطيبة. قضيت نحو عشر دقائق أنظر عبر نافذة موارية إلى درج السلم، وسياجه الحديدي وحقائب بلاستيكية مدلاة من حاويات القمامة الممتلئة. كان الشارع خاليًا من المارة. نوافذ البيوت المقابلة داكنة وسحيقة مثل حفر تخلفت عن إطلاق نار. استقر الناس الذين مررت بهم منذ قليل في بيوتهم، ولم يشعلوا جميع الأنوار ولا التليفزيون بعد. ترددت قليلًا. فجأة فارقتني قواي، وانتابني خوف من أن يصرفني خارج الشقة. لو أنه فعل لما استطعت أن أعثر يومًا على دفة السفينة أو أقودها. عندها سألملم الشراع، وأنام في قاعها.

كانت كل الناس تغلق أبوابها في وجهي، رغم أني لم أطلب شيئًا من أحد. لذلك كنت في حاجة ماسة إليه، وخشيت كثيرًا من أن يفعل مثلهم، فتراجعت نحو البوابة. كنت احتاجه وأنا طفلة، وما زلت في حاجة إليه.

اتكأت إلى سور البيت، وأغلقت عينيّ. رحت أستجمع قواي. أفكر في العشاء الذي تناولته معه، وفي الضباب الذي حل علينا، واللمسات. أقول لنفسي:

ـ ماذا لو أنها ليست سوى أوهام في نفسي ثارت بعد تناول الطعام بسبب ذكرياتي الجميلة من أيام الطفولة. بسبب ذكرى الشعور بالأمان والثقة، ذكرى أشياء بسيطة لم يمنحها لي شخص غيره.

وبينما أقف هناك مر بي ثلاثة صبية في عمر العاشرة تقريبًا. كانوا منشغلين بمشكلاتهم، مرّوا بي من دون أن يلاحظوا وجودي. أحدهم يحمل صندوقًا ورقيًا على صدره فوق يدين مستقيمتين. في الصندوق قطة سوداء ميتة. الآخر يقفز أمام الصندوق، وينظر

إلى ما في داخله طوال الوقت. لم يكن حولنا سوى حدائق خاصة، ومساحات من الإسفلت تغطي ما بين أسوار الحدائق. لا يوجد أي مكان يمكنهم أن يصنعوا فيه حفرة واحدة. من الواضح أنهم تأخروا عن العودة إلى البيت. سمعتهم يقولوا إنهم سيدفنون القطة بأي ثمن. تفهّمت قراراهم. فأنا قد دفنت قطتي منذ زمن بعيد.

جاءت الإشارة عندما انعطفوا عن الناصية واختفوا. وأضاءت في الوقت نفسه ثلاث شقق في الفيللا المقابلة. قلت لنفسي:

- إن أطفئوا النور أيضًا مرة واحدة سأصعد الدرج بلا تردد وأطرق على الباب.

اتحد الاحتمال مع الأمل في اكتشاف مقبرة الحيوانات في براتسلافا. اتحد الاحتمال مع الأمل في أن أحظى بحب بيتر.

انفتح الباب وأنا أطرق عليه للمرة الثالثة. كأن بيتر كان ينتظرني خلفه، ويضع يده فوق المقبض. وكأنه كان يقف هناك طوال الوقت، منذ أن انصرفت مع دوروتا إلى المحطة، وعدت وحدي.

سألته في نفسي:

أين كنتُ طوال هذا الوقت؟ أين كنت طوال كل هذا الوقت؟

لم يكن ذلك لومًا، بل حزنًا على كل الأيام التي مرّت. لم يرُدّ. بدا فزِعًا بعض الشيء. جلسنا في المطبخ لبعض الوقت. بيتر يدور بإصبعه المبلل حول شفير الكأس. ثم انفرط شيء في داخلي، كأن مرساة السفينة انحلّت، وبدأت تشق الماء برقة وبثقة. هممت واقفة، وتجولت في أرجاء الشقة، وأطفأت جميع المصابيح. لم أتمكن من انتظار أن يحدث شيء يقطع ذلك الخيط الرفيع بيننا. كان عليّ أن

انتبه قبل أن يسقط لوح من الخشب أسفل قدميّ، لوح خشبي ضخم سيظل يتدحرج أمامي لعشر سنوات مقبلة.

أطفأت كل الأنوار، وعدت إلى المطبخ. كان المطبخ خاويًا. بحثت عنه وسط الظلام في شقة لا أعرفها، منتشية بوجوده. كانت أطراف الأشياء في الشقة ناعمة الملمس، تتنفس في صمت مثل الأطفال النائمة. تركت جزءًا من ثوبي ذي القطع الأربع في كل غرفة. ثم بدأت أصفر بهدوء. عثرت عليه. أخذت الكأس من يده، ولعقت قطرة نبيذ من على صدري. احتضنني بقوة حتى شعرت أن جسدي يتضاءل حتى صار نقطة صغيرة.

همس في أذني، وقال:

- أين كنت طوال هذا الوقت؟

- كنت تائهة.

إجابات عن جميع الأسئلة، وعفو عن كل ما حدث، والتئام للجراح. صمتت لوتسيا وقتها. لم أصدق أن الأمر كان بتلك السهولة والسرعة، وبلا ألم. اختفت ياركا التي لا تشعر بالأسف على أنها سرقت طفلين صغيرين في الماضي. اختفى جميع الأطفال، وكل الملصقات وكل الرواسب. ووقفت عارية تمامًا، خفيفة ورشيقة.

في الغالب كان الصبية في البيت، يأخذون حمّامًا ساخنًا بعد أن عثروا على مكان مناسب دفنوا فيه القطة. ربما قفزوا من فوق أحد الأسوار، وألقوا بها فوق رجل مسكين، ينام خلف بوابة كوزوفا. ينامون بهدوء وهم يشعرون بأنهم قاموا بعمل صالح من دون أن يسخر منهم أحد. صحيح أن حمل حقيبة جِدّة ما، والصعود بها فوق الدرج عمل محمود، لكنه ليس كذلك بالنسبة لصبية في

العاشرة من عمرهم. سيلتقون في الصباح، ويتبادلون نظرات شلّة مترابطة في صمت. لكنهم لن يتحدثوا عن القطة السوداء.

رحت أسبح ورأسي تحت الماء، أخذت نفسًا عميقًا، وأغلقت عيني دون أن أفكر في عمق الماء،
ولا في النفايات التي التصقت بذراعيّ فأفسدت إيقاع السباحة. شعرت وأنا أغطس تحت الماء وكأنني في زجاجة.
لازمني ذلك الشعور فيما بعد، وبعد تلك الحادثة الحزينة.
شعور بأني حبيسة إحدى الزجاجات،
لا أخرج منها، يراقبني فيها الناس. هكذا كانت طفولتي كلها.

مونيكا كومبانيكوفا:

أديبة سلوفاكية من مواليد 1979، حصلت قصصها القصيرة على جوائز محلية عامي 2001 و2003 على التوالي. أصدرت أول مجموعة قصصية لها بعنوان "مكان للوحدة" عام 2003 وحصلت على جائزة عنها، وحصلت عام 2008 علي جائزة مخصصة لشباب المبدعين، وحصلت روايتها "السفينة الخامسة" علي إحدى أرفع الجوائز الأدبية في سلوفاكيا (أنا سوفت)، وترجمت الرواية إلى عدة لغات وصدرت في ثلاث طبعات حتى اليوم.

Cover Design by: Mohamed Sayed

SEFSAFA PUBLISHING HOUSE
WWW.SEFSAFA.NET